العلامة الشهيد مرتضى مطهري



طهارة الروح

دار الرسول الأكرم



طهارة الروح

الاستاذ الشهيد مرتضى المطهري

طهارة الروح

اعداد

حسين واعظي نجاد

ترجمة

خليل زامل العصامي

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار الرسول الأكرم
طباعة ـ نشر ـ توزيع

حارة حريك ـ خلف البلدية ـ تلفون: ٠٣/٨١٤٢٩٤ ـ تلفاكس: ٠١/٥٤١٩٣٠
ص.ب: ١١/٨٦٠١

مقدمة المترجم



تزكية النفس أو تطهير الروح فضيلة شريفة ولبنة أساسية في الإيمان وتكامل الإنسان.

وهي مما أكّد عليه الإسلام في تعاليمه الشريفة؛ حيث دعا اتباعه إلى الصلاح والإخلاص والعبادة والعمل، وهذه هي أُسس الإسلام وغاياته والركيزة التي عليها يعول.

وقد حثّ الباري تعالى عباده في آيات كثيرة إلى تنقية نفوسهم وتطهير باطنهم. سيراً على طريق النضوج والتكامل الذي ينتهي إلى إعداد الإنسان الإلٰهي الصالح الذي يعمر الأرض وينال عن جدارة منصب الخلافة فيها.

والشهيد المطهري واحد من أبرع من ألّفوا في شتّى ميادين المعارف الإسلامية وترجمت كتبه إلى اللغة العربية ولقيت رواجاً واسعاً واقبالاً شديداً لما تتّصف به من العمق والسلاسة وتركت في النفوس تأثيراً عميقاً. هذه الميزة التي تتصف به كتبه دعت البعض إلى استخلاص أبواب منفصلة منها واستلال مواضيع معيّنة من بين طيّاتها واعادة ترتيبها ترتيباً موضوعياً.

والكتاب الذي بين يديك واحد من تلك الكتب؛ جمعت فيه آراؤه وكلماته في موضوع طهارة الروح وتزكية النفس، واعيد ترتيبها على هذا النسق.

ورأيت ضرورة نقله إلى اللغة العربية لينتفع منه القارىء العربي، لعلّي أكون وإياكم ممّن ينال ثواب القول الصالح والعمل الصالح.

خليل العصامي

جمادي الاولى ١٤١٨

الباب الأول

روح العبادة

روح العبادة

تعدّ مشاعر العبادة والانابة من أقدم وأدوم تجلّيات النفس الإنسانية، وأحد أكثر آفاقها أصالة. ويستدلّ من دراسة آثار الحياة الإنسانية على وجود الانابة والعبادة حيثما وجد الإنسان، والذي يتفاوت هو كيفية العبادة وطبيعة المعبود.

فمن حيث الكيفية تتباين العبادة ابتداءً من الرقص والطقوس الجماعية الرتيبة التي ترافقها سلسلة من الأذكار والأوراد، وانتهاء باسمى صور الخضوع والخشوع وارفع أنماط الذكر والثناء، أما من حيث طبيعة المعبود فقد تباين ابتداءً من الحجر والخشب وحتّى الذات الأزلية الأبدية المنزّهة من الزمان والمكان.

لم يبتدع الأنبياء العبادة ولم يأتوا بها من عندهم، بل انّهم علّموا الإنسان كيفية العبادة ـ أي نوع الآداب والأعمال التي ينبغي أن تتمّ بها العبادة ـ ونهوا عن عبادة غير الله الواحد الأحد.

يستفاد من المسلّمات الدينية ومن آراء بعض المتخصّصين في علم

الأديان[1] انّ الإنسان كان في بداية أمره موحّداً وكان يعبد ربّه الحقيقي، وما عبادة النجم والقمر والإنسان إلاّ انحرافات وقعت لاحقاً. أي ان الإنسان لم يبدأ أولاً بعبادة صنم أو إنسان أو مخلوق آخر، وبلغ مع تكامله الحضاري مرحلة التوحيد. إذ ان مشاعر العبادة التي يُعبّر عنها أحياناً بالشعور الديني موجودة لدى عموم بني الإنسان. نقل عن اريك فروم قوله:

«قد يعبد الإنسان الحيوانات والنباتات أو الأصنام الذهبية أو الحجرية، أو اِلهاً لا تدركه الابصار، أو قائداً شيطانياً، وقد يعبد أسلافه أو شعبه أو طبقته أو المال أو النجاح، أو ربّما يكون قادراً على تمييز معتقداته الدينية عمّا سواها من معتقداته غير الدينية، أو ربّما على العكس قد يعتقد انه مجرّد من الدين. والمسألة هنا لا تهتمّ باعتقاده الديني أو عدم اعتقاده، وإنّما القضية المهمة هي: بأيّ دين يعتقد»[2].

يقول «وليم جيمس» بناء على ما نقله إقبال:

«ان دافع الانابة إفراز طبيعي لهذا الأمر، وهو مع وجود مشاعر اجتماعية لدى كلّ إنسان في أشدّ حالات المشاعر الذاتية والعملية، فإنّ صاحب تلك الذات يتسنّى له[3] في عالم الفكر (التفكير الباطني) فقط. وان أكثر الناس ينوبون إليه في أفئدتهم سواء بشكل دائمي أو بشكل عرضي. وان أدنى شخص على وجه المعمورة يجد نفسه عبر هذا الشعور السامي واقعاً ملموساً وذا قيمة»!

---

(١) من أمثال ماكس مولر.

(٢) جهانى از خود بيگانه: ص ١٠٠.

(٣) احياء الفكر الديني: ص ١٠٥.

يقول ويليم جيمس عن عمومية مثل هذا الشعور عند جميع بني الإنسان ما يلي:

قد يختلف الناس في ما بينهم في درجة التأثّر بشعور الرقيب الداخلي في وجودهم؛ فهو يشكّل لدى البعض منهم القسم الأساسي من الوعي الذاتي، وقد يكون أغلبية من يحملون هذه الصفة أكثر تديّناً. ولكنّني واثق انّ حتى أولئك الّذين يدّعون تجرّدهم من هذه المشاعر بالمرّة انّما يخادعون أنفسهم، بل انّهم متدينون إلى حدّ ما.

انّ إضفاء صفة الأبطال الأسطوريين على العلماء والأشخاص الأقوياء وعلماء الدين ينبثق أساساً من مشاعر التقديس الكامنة في أعماق النفس، والتي تدفع المرء إلى أن يجعل لنفسه موجوداً جديراً بالتقديس والاطراء، والثناء عليه بشكل يفوق الحدّ الطبيعي. وما نراه اليوم من مبالغة في ثناء الإنسان على الأبطال الحزبيين والوطنيين، والحديث عن عبادة الحزب، والغاية، والمنهج، والعَلَم، والأرض، والماء، والشعور برغبة في التضحية في سبيل هذه المثل يعزى في الحقيقة إلى مثل هذا الشعور.

فالشعور بالإنابة طموح غريزي لكمال لا نقص فيه، وجمال لا قبح فيه. وعبادة المخلوقات بأيّة صورة كانت تمثّل انحرافاً لهذا الشعور عن مساره الأساسي.

الإنسان يرمي من وراء العبادة الانطلاق من وجوده المحدود، والاتصال بحقيقة لا يعتريها النقص والفناء والزوال، وكما يقول «انشتاين» العالم الكبير في

عصرنا الراهن: « في مثل هذه الحالة يدرك المرء ضحالة التطلّعات والآمال البشرية، ويستشعر الجلال والعظمة المتجلّية خلف الأُمور والظواهر السائدة في الطبيعة أو في الذهن»[1].

يقول إقبال:

«الانابة شعور حيوي وعادي نكتشف عبره جزيرة شخصيتنا الصغيرة من خلال وضعها في وجود كلّي أكبر من الحياة».

العبادة تعكس وجود «إمكان» و«رغبة» لدى الإنسان؛ إمكان الانعتاق من حدود المادّية، ورغبة الاتّصال في أُفق أسمى وأوسع. ومثل هذه الرغبة من الخصائص التي يتفرّد بها الإنسان[2]

◙ العبادة فطرة الإنسان

نداء التوحيد هو النداء الأساسي في القرآن، وهو ركيزة النداءات الأُخرى. نداء التوحيد هذا لا يختص بخاتم الأنبياء، بل يقع في رأس رسالة جميع الأنبياء.

وهذه القضية معروضة من وجهة نظر القرآن بشكل يقول للناس يجب أولاً أن تعبدوا موجوداً، وثانياً يجب أن يكون هذا الموجود هو الله. أبداً، فالإنسان لا يمكنه العيش بلا عبادة، جميع الناس يمارسون العبادة بشكل أو آخر. وهي جزء من الغرائز الذاتية والفطرية عند الإنسان. أي انّ الإنسان يميل فطرياً لتقديس شيء وتنزيهه والتقرّب إليه.

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموعة الآثار، ج ٢، الإنسان في القرآن: ص ٢٧٧.

هذه الرغبة قائمة لدى جميع الناس. وحتّى الناس الماديّون يـمارسون العبادة، حتّى انّ كارل ماركس يقول:

«أُريد تحرير الإنسان من عبادة غير الإنسان، لأجل عبادة ذاته».

فهو يدرك أيضاً انّ الإنسان لابدّ وأن يعبد شيئاً، ولكنّه يدّعي الرغبة في تعريفه بالمعبود الحقيقي.

ونداء القرآن هو أن يا أيّها الإنسان اعبد ربك وإلهك ومن بيده أمرك.

وهذا الإله الذي بيده زمام كلّ شيء، إذا غفل لحظة لانهار كلّ شيء.

﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم.....﴾ [1].[2]

▣ العبادة انعكاس للمعرفة

معرفة الله الواحد الأحد باعتباره أكمل ذات، ويختصّ بأكمل الصفات، ومنزّه عن كلّ نقص، ومعرفة صلته بالعالم وهي فيض عطفه ورحمانيّته تـفرز لدينا ردّ فعل يعبّر عنه بالعبادة.

العبادة نمط من علاقة الخضوع والثناء والحمد التي يوجدها الإنسان مع خالقه. وهذا النوع من العلاقة يتسنّى للمرء إقامته مع ربّه فقط ولا تصدق على ما سواه؛ بل انّها لا تصدق ولا تجوز على ما سوى الله. فمعرفته سبحانه وتـعالى باعتباره المبدأ الوحيد لعالم الوجود ومالكه الوحيد وهو ربّ كلّ شيء توجب أن لا نجعل أي مخلوق شريكاً له في العبادة. والقرآن يؤكد عـلى وجـوب أن تكون العبادة للّه وحده؛ إذ لا ذنب أكبر من الشرك باللّه.

لنلاحظ الآن ماهيّة وكيفيّة هذه العبادة الخاصّة بـاللّه، والتـي لا يـنبغي للإنسان أن تكون له مثل هذه الصلة إلّا معه.

---

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) آشنائى با قرآن (التعرف على القرآن): ص ١٣٢.

◙ تعريف العبادة

لابدّ من ذكر مقدمتين من أجل أن يتّضح مفهوم العبادة ومعناها، ولكي نضع تعريفاً صحيحاً لها:

١ ـ العبادة إمّا لفظية، وإمّا عمليّة. فاللفظيّة عبارة عن سلسلة من العبارات والأذكار التي تجري على ألسنتنا كقراءة الحمد والسورة، وأذكار الركوع والسجود والتشهّد في الصلاة، وكذا التلبية في الحجّ. أمّا العبادة العملية: فهي من قبيل الركوع والسجود في الصلاة، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام، والطواف في الحجّ. وغالباً ما تشتمل العبادة على قسم لفظي وآخر عملي كالصلاة والحج؛ فكلاهما فيه قسم لفظي وآخر عملي.

٢ ـ أعمال الإنسان على قسمين: فبعضها مجرّد من القصد الخاصّ ولا يؤدّى كدلالة على شيء آخر، وإنّما يؤدّى لأجل معطياته الطبيعية والتكوينية كأن يقوم المزارع بسلسلة من الأعمال المتعلّقة بالزراعة لأجل نيل معطياتها الطبيعية وهو لا يؤدّيها باعتبارها دلالة أو مؤشراً على سلسلة من الأحاسيس، وكذلك الخيّاط في عمل الخياطة. وهكذا الحال عندما نذهب من البيت إلى المدرسة، فنحن لا نريد من وراء هذا الذهاب إلّا الوصول إلى المدرسة، وليس هدفنا تحقيق أيّ غرض آخر.

لكن بعض الأعمال تُؤدّى باعتبارها دلالة على سلسلة من المقاصد، وللتعبير عن نوع من المشاعر. كما لو هزّ أحد رأسه دلالة على التصديق، أو جلس آخر عند نهاية المجلس كمؤشّر على تواضعه. أو انحنى شخص لآخر من باب الإعظام والتكريم.

ومعظم أعمال الإنسان من النوع الأوّل، وقلّما تكون من النوع الثاني. لكن بعضها ـ على أيّة حال ـ من هذا اللون الذي يتّخذ كتعبير عن المشاعر، وهو

يدخل في حكم استعمال الكلمات والألفاظ الشائعة لإفادة معنىً وللتعبير عن نيّة معيّنة.

نقول بعد هاتين المقدّمتين: إنّ العبادة اللفظية والعمليّة عمل ذو معنى يؤدّيه الإنسان لفظاً للتعبير عن حقيقة أو عدّة حقائق، ويؤدّيه عمليّاً كالركوع والسجود والطواف والإمساك ليؤكّد نفس ما يبغيه من الاذكار اللفظيّة.

◘ جوهر العبادة :

يتلخّص ما يعبّر عنه المرء من خلال عباداته اللفظيّة والعمليّة بما يلي:

١ ـ الثناء على الله بالصفات الخاصّة به، أي صفات الكمال المطلق ؛ كالعلم المطلق ، والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة . ومعنى الكمال المطلق ، والعلم المطلق ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة ، أنّها غير محدودة بحدود ، ولا مشروطة بشروط، وتستلزم غنى الله عن كلّ شيء.

٢ ـ تسبيح الله وتنزيهه من كلّ نقص أو عيب، كالفناء أو المحدوديّة أو الجهل أو العجز أو البخل أو الظلم ، وما شابه ذلك.

٣ ـ شكر الله باعتباره المصدر الأصلي للخير والنعم، وكلّ ما لدينا من خير فهو منه، وكلّ ما عداه ليس إلّا وسيلة أوجدها هو سبحانه.

٤ ـ التسليم المحض والطاعة المطلقة له تعالى، والإقرار بأنّه مطاع على الإطلاق ، وأنّه جدير بالطاعة والتسليم، وهو أهل للأمر والنهي لأنّه ربّنا، ونحن ملزمون بطاعته والتسليم له لكوننا عباده.

٥ ـ وهو تعالى لا شريك له في أيّ من القضايا السالف ذكرها؛ فهو وحده الكامل المطلق، وهو وحده المنزّه عن النقص، وهو وحده المنعم الأصلي ، والخالق لكلّ النعم ، ولهذا يعود الشكر كلّه له. وهو وحده الجدير بالطاعة والتسليم الخالص له. وانّ كلّ طاعة لنبي أو إمام أو حاكم شرعي أو أب أو أُمّ أو

أستاذ فلابدّ وأن تصبّ في طاعته وإلّا فهي غير جائزة. هذا هو الموقف اللائق بالعبد أمام خالقه العظيم، وهذا الموقف لا يصدق ولا يجوز إلّا له جلّت عظمته[1].

العشق والعبادة:

لدى الإنسان خصلة نسمّيها بالعشق. والعشق حالة تفوق المحبّة؛ لأنّها ـ أي المحبّة ـ موجودة لدى كلّ إنسان في الحدّ المتعارف، ولها أنواع شتّى من قبيل محبّة شخصين لأحدهما الآخر، ومحبّة المريد لمراده، ومثل هذه المحبّة العاديّة شائعة بين الأزواج، ومنها أيضاً المحبة المتبادلة بين الأبوين وأبنائهما. أمّا العشق فهو شيء آخر. وهذه الكلمة مشتقّة من الفعل «عَشَقَ». وهناك نبات متسلّق يسمّى «العشقة» يتعلّق بكلّ شيء يمتدّ إليه، ويلتفّ حوله، وعندما يمتدّ حتّى يصل نباتاً آخر يلتفّ عليه إلى حدّ يستولي عليه تقريباً ويهيمن عليه.

إنّ مثل هذه الحالة وما يتمخّض عنها تخرج الإنسان ـ وخلافاً للمحبّة المتعارفة ـ من حالته العادية، وتسلبه القدرة على النوم والطعام. وتجعل اهتمامه مشدوداً إلى تلك النقطة وإلى ذلك المعشوق. أي انّها تخلق فيه نوعاً من التوحّد والآحادية وتجعله منقطعاً عن كلّ شيء وتوصله بشيء حتّى يغدو وهو كلّ وجوده. ومثل هذه الظاهرة لا وجود لها بين الحيوانات التي تربطها في ما بينها وشائج لا تتعدّى حدود الوشائج التي تربط الناس أو الأزواج مع بعضهم الآخر. وإذا اتّسمت هذه الوشائج بالغيرة والتعصّب، فمثل هذه الخصلة موجودة لدى الحيوانات أيضاً بشكل أو آخر. لكن الحالة التي تحدّثنا عنها تختصّ بالإنسان.

أمّا جوهر هذه الحالة فقد غدا واحداً من مواضيع الفلسفة؛ فابن سينا له

---

(١) مجموعه الآثار.

رسالة في «العشق»، وأفرد الملّا صدرا أيضاً في كتاب الأسفار حوالي أربعين صفحة في فصل الإلهيات لتفسير ماهيّة «العشق» وطبيعة هذه الحالة التي تعرض للإنسان.

كما انّ قضية العشق تحظى اليوم باهتمام علم التحليل النفسي الذي يسعى إلى الوقوع على ماهيتها. وقد أراح البعض أنفسهم من عناء البحث فلخّصوا كلمة العشق باعتبارها مرضاً. إلّا أنّ هذا الكلام لا يجد اليوم آذاناً صاغية. فهو ليس بمرض وإنّما هو موهبة.

القضية الأساسية هنا هي هل العشق نوع واحد أو أكثر؟ يرى البعض انّه نوع واحد لا أكثر، وهو العشق الجنسي، أي انَّ له جذوراً عضويّة ومادّيّة ولا شيء سواها. وانّ كلّ صور العشق التي كانت ولا زالت ماثلة في هذا العالم وبكلّ آثارها وخصائصها هي من طراز العشق. الرومانسي الذي ملأ آداب العالم بالقصص الغراميّة. ويعتبرون كلّ هذا صوراً للحب الجنسي ليس إلّا.

يذهب فريق آخر مثل ابن سينا، والخواجة نصير الدين الطوسي، والملّا صدرا إلى تصنيف العشق الذي هو حبّ الإنسان إلى نوعين، ويعتبرون بعض أنواع الحبّ حبّاً جنسياً ويعدّونه حبّاً مجازياً لا حقيقياً، وبعضه الآخر روحيّاً ونفسيّاً. ولمّا كان منشأ الحبّ الجنسي غريزياً، فإنّه يتلاشى بمجرّد وصال المحبوب وإشباع الغريزة. فإذا كان الحافز إليه إفرازات داخلية فإنّه ينتهي بإشباعها. أيّ انّه يبدأ من هناك ويُختم هناك. إلّا إنّهم يدّعون أنّ المرء قد يبلغ أحياناً مرحلة من الحبّ تفوق هذه الحدود، أو كما يعبّر عنه الخواجه نصير الدين الطوسي انّه مشاكلة بين النفوس، ويشيرون إلى أنّ بذور الحبّ الروحي مغروسة في نفس الإنسان، وهي حتى وإن كانت لها صبغة ماديّة فهي محفّزة فقط، والمحبوب الحقيقي للإنسان حقيقة غيبيّة تتّحد معها روح الإنسان وتبلغها

وتكتشفها، والمحبوب الحقيقي يكمن في الواقع في أعماق الإنسان.[1]

المحبوب الحقيقي للإنسان هـو الذات الالهية المقدّسة وهو متى ما أحبّ شيئاً آخر حبّاً روحياً فإنّما هو إحياء لذلك الحبّ الذي هو حبّ الذات الإلهية ولكن تجسّد على هذه الشاكلة، وما هو في الواقع إلّا قبس من عبادة المحبوب الحقيقي[2].

القدر المسلّم به هو انّ الإنسان يمتدح الحبّ، أي يعتبره شيئاً جديراً بالثناء، في حين انّ كلّ ما هو من سنخ الشهوة غير خليق بالثناء. الإنسان مثلاً لديه شهوة الطعام، والرغبة في تناول الغذاء ـ وهي أمر طبيعي ـ فهل هذه الرغبة لم تتّخذ طابعاً قدسياً لكونها رغبة طبيعية؟ وهل رأيتم إلى الآن شخصاً يثني على رغبته في هذا الطعام أو ذاك؟ والحبّ أيضاً طالما كان متّصلاً بالشهوة الجنسيّة، فهو كالطعام لا يستوجب التقديس. إلّا انّ هذه الحقيقة قد حظيت ـ على كلّ حال ـ بالقداسة، وهناك قسم كبير من آداب العالم أفرد لتكريم الحبّ وتقديسه. وهذه الظاهرة تلقى اهتماماً فائقاً من قبل علم النفس التحليلي الفردي أو الاجتماعي لاكتناه جوهرها.

الأكثر عجباً من هذا انّ الإنسان يتباهى بالتضحية بكلّ شيء من أجل المحبوب، ويتظاهر حياله بالتفاني، بمعنى أنّه يستشعر العظمة حين يكون ازاء محبوبه عدماً، أو بتعبير آخر: فناء العاشق في المعشوق.

إنّ ما عرضناه في باب الأخلاق ويعتبر فضيلة كالايثار والتفاني لا يتّسق مع منطق المصلحة. الايثار لا ينسجم مع الانانية. الإنسان في البعد الأخلاقي يقدّس الجود، والاحسان، والايثار، والتضحية، ويعدها فضلاً وشرفاً. وهنا

(١) الفطرة: ص ٥٧.

(٢) الفطرة: ص ٦٤.

تختلف قضية الحبّ عن قضية الشهوة. لأنّ الشهوة يعني طلب الشيء لمصلحته الذاتية.. وهنا يكمن الفارق بين الشهوة وما سواها. حيث إنّ المرء إذا أحبّ شخصاً وكانت القضية هي قضية شهوة، فهنا يطمح العاشق في الاستحواذ على المعشوق ليقضي وطره من وصاله. إلّا أن الحبّ خالٍ تماماً من قضية الاستحواذ والوصال. ولا ينطوي سوى على فناء العاشق في المعشوق، أي أنّه لا يتّسق بتاتاً مع منطق الأنانية.

هذا هو الذي طبع هذه القضية بهذه الأهمية، وجعلها جديرة بالتحليل والدراسة لمعرفة ماهيتها وجوهرها، ومن أين تستمدّ وجودها بحيث يطمح المرء إلى التسليم المحض له فقط فلا يبقى من ذأته وأنانيته شيئاً. كما حظيت هذه القضية أيضاً باهتمام فائق من الأدب العرفاني.

ونظم المولوي أشعاراً بديعة في هذا المعنى جاء في أحدها:

الحبّ قهّار وأنا مقهور للحبّ غدوت كالقمر المنير من نور الحبّ

وقضية العبادة تبلغ بالإنسان مرحلة تجعله يطمح إلى أن يصوغ من محبوبه إلهاً، ومن ذاته عبداً، ويعتبره وجوداً مطلقاً وهو في ازائه فناءً. فما سرّ هذا؟ وما حقيقة هذه الظاهرة؟

ذكرنا انّ هناك رأي يقول إنّ الحبّ على الاطلاق ينبثق عن جذور وحوافز جنسية، وهو يسير على خطى الغريزة الجنسية ويبقى على هذا المسار ويظلّ حتّى النهاية ذا طبيعة جنسية.

النظرية الأُخرى هي التي ذكرنا، وتحظى بتأييد حكمائنا، وهم يقسمون الحبّ إلى نوعين: الحبّ الجسمي والحبّ الروحي، ويذهبون إلى أنّ أرضية الحبّ الروحي موجودة لدى كلّ إنسان.

هناك نظرية ثالثة تحاول التوفيق بين هذين الرأيين.

وهناك أيضاً نظرية فرويد المحلّل النفسي المعروف الذي يعتبر كلّ شيء والجنس بطريق أولى له جذور جنسية. فهو يرى انّ العلم، والمحبة، والخير، والفضيلة، والعبادة، والحبّ، وكلّ شيء آخر ذا صفة جنسية. وهذه النظرية لا تلقى اليوم أيّ قبول من أيّ شخص.[1]

◙ تعارض الحبّين :

ركب قيس مجنون ليلى ناقة كانت قد ولدت حديثاً بغية الذهاب إلى دار محبوبته. وما أن ابتعد عن المدينة قليلاً حتّى انطلق خياله يطوف حول حبيبته وغفل عن الحيوان، وارتخت يده عن زمام الناقة شيئاً فشيئاً حتّى أفلت من يده، وغدا قيس كالحمل المطروح على الناقة التي أخذت تشعر تدريجياً انها طليقة الزمام، وكانت هي الأُخرى قد دفعها الحنين إلى صغيرها . فلوت العنان وعادت صوب حضيرتها، وأفاق قيس من ذهوله فوجد نفسه قد وصل إلى الحضيرة وبدلاً من وصول قيس إلى دار حبيبته، وصل إلى الحضيرة.

ساق الناقة ثانية نحو دار حبيبته، وما أن قطع مسافة حتّى وله قيس إلى ليلاه وأفلت من يده عنان الناقة التي حنّت هي الأُخرى إلى وليدها ومحبوبها، فعادت صوب الحضيرة. وتكررت هذه المحاولة عدّة مرات :

قيس في قصّة نزاعه مع الناقة   كان يله هو تارة وهي تحنّ تارة

وإذا ما غفل عنها لحظة   عادت الناقة على أدراجها

وفي ختام المطاف ألقى قيس نفسه من ظهر الناقة وقال:

أيتها الناقة ما دمنا كلانا عاشقين   فنحن في تعارض ولا نليق لبعضنا

فأنا عاشق وأنت عاشقة؛ أنا عاشق ليلى وينبغي أن أسير في هذا الاتّجاه، وأنت

---

(١) فطرت (الفطرة): ص ٦١.

عاشقة لصغيرك ولابدّ أن تسيري نحو الحضيرة. وانّنا غير قادرين على المسير في طريق واحد.

متى كان عشق المولى أدنى من عشق ليلى والعبودية مقامها رفيع[1]

◙ الأخلاق والعبادة :

إحدى النظريّات المعروضة بشأن السلوك الأخلاقي للإنسان هي نظريّة «العبادة». ويذهب أصحابها إلى القول انّ هذه السلسلة من أعمال الإنسان التي تختلف عن سائر أفعاله الطبيعية، وهي مشهودة عند جميع بني الإنسان، وهم جميعاً يثنون عليها ويقدّسونها، ويصفونها بالشرف والسُموّ على الأعمال الطبيعية الأُخرى إنّما هي من سنخ العبادة.

يرى البعض انّ هذه الأفعال تعكس نوعاً من العاطفة والمحبّة، وبعضها نوع من العقل والعلم والفهم، وبعضها نوع من الارادة القويّة، وبعضها نداء الضمير الإنسان، وبعضها الآخر من مقولة الجمال. وأُشير هنا إلى وجود نظريّة أُخرى بشأن هذه الأعمال المقدسة عند بني الإنسان، وهي انّ هذه الأعمال من سنخ عبادة الله، لكنّها عبادة غير واعية. فالذي يعتبر الأعمال الأخلاقية نوعاً من الجمال يقول بما أن الجمال لا يقتصر على الجمال المحسوس، بل الجمال المعقول هو الآخر جمال أيضاً. والذي يأتي بالعمل الأخلاقي يستشعر الجمال العلقي للعمل الأخلاقي، وهذا الجمال يجتذبه إليه مثلما يستهجن العمل القبيح.

في الأعمال الأخلاقية جاذبية من نوع جاذبية الجمال، وفي الأعمال الأخلاقية قوّة دفع من نوع الدفع المضادّ للجمال.

إلّا انّ العجيب في هذه النظريّة هو انّ من يأتي بالعمل الأخلاقي حتى وإن كان لا يعترف باللّه في شعوره الواعي ولا يقرّ بوجوده، أو انّه يعترف فرضاً

---

(١) فطرت (الفطرة): ص ٧٠.

ولكنّه في شعوره الواعي لا يأتي بهذا العمل لرضا الله، وهو بعمله هذا لا يعبد الله، فعمله الأخلاقي هذا يعدّ نوعاً من العبادة غير الواعية.

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو: هل يا ترى من الممكن أن تكون عبادة الله عن غير وعي؟

والجواب هو: نعم، هناك أيضاً معرفة غير واعية للّه. أي انّ الناس يعترفون باللّه في أعماق فطرتهم ـ أو ما يعبر عنه اليوم بمصطلح اللاوعي ـ لكن التفاوت بين الناس إنّما هو في المعرفة الواعية لله. وإذا كان تصديق هذه القضية صعباً إلى حدٍّ ما بالأمس ـ أي في القرون السالفة ـ فتصديقها اليوم سهل جدّاً.

إذ ثبت اليوم انّ للإنسان شعوران؛ شعور ظاهري، وشعور مغفول عنه. أي الشعور الذي يعيه الإنسان بذاته، وشعور آخر لا ينتبه إليه الإنسان في الظاهر.[1]

وهذا الشعور الواعي، والشعور غير الواعي مثله كمثل الطفل من الناحية الغريزيّة:

كميل الأطفال إلى الأُمّهات وهم لا يعلمون أنّ سرّ الميل في الشفاه

الطفل الذي يولد توّاً، ولا يزال في يوميه الأوّل والثاني غير قادر على فتح عينيه، ولا يعلم عن وعي بوجود أُمّه، وليس في ذهنه صورة عنها، ولا يعلم أنّ له أُمّاً، تراه يميل برأسه ويحرك شفاهه يميناً وشمالاً، وهذه الشفاه تبحث عن ثدي الأم بشكل غير واع. ولو أراد أحد استنطاق هذا الطفل عمَّ يبحث. فلن تكون له قدرة على الجواب؛ لأنّ ذهنه لا زال خالياً من الصور والنقوش، وهو حتّى وان كان قادراً على الكلام فلن تكون له قدرة على بيان هذه القضية. إلّا انّه يبحث في اللاوعي عن شيء موجود ألّا وهو ثدي أمّه.

---

(١) فلسفة أخلاق (فلسفة الأخلاق): ص ١١٦.

لكن هذه الميول ضعيفة جداً لدى الإنسان وهي في الحيوانات أشدّ. هذه الغرائز قوية جدّاً لدى الحيوانات وخاصّة الحشرات. وهذا القدر من الغريزة موجود في الإنسان أيضاً في الكثير من القضايا.(١)

يعتقد علماء التحليل النفسي اليوم انّ القسم الأعظم من شعور الإنسان هو شعور غير واعٍ، والقسم الأقلّ منه هو ذلك الشعور الذي يعيه الإنسان.

أي انّنا لو راجعنا أعماق ذاتنا ونقّبنا محتويات ضمائرنا لوجدنا فيها مجموعة من المشاعر، والمعلومات، والرغبات، ودوافع الكراهية والمحبّة، وما شابه ذلك، ثم نتصوّر أن لا شيء سواها. في حين انّ معلومات، وذكريات، ومشاعر، ورغبات كثيرة قد رسبت في أعماقنا من غير شعور منّا. أي انّ قسماً كبيراً من روحي تبقى خافية عن ذاتي التي تتحدّث معكم، وقسم كبير من روحكم تبقى خافية عن ذاتكم التي تستمع إليَّ الآن. ويضرب لهذا مثل في بطّيخة تلقى في حوض الماء، فكم يعوم منها فوق الماء؟ لعلّ جزءاً صغيراً جداً؛ إذ يغطس تسعة أعشارها تقريباً في الماء فيما يعوم عشرها فقط. أو إذا وضعت قطعة كبيرة من الثلج في حوض ماء، كم يعوم منها فوق الماء، وكم منها يغطس فيه؟ وهكذا شعور الإنسان أيضاً. فالقسم الظاهر منه ازاء القسم الخفي يشكّل مثل هذه النسبة.

هكذا الحال بالنسبة للعالم أيضاً؛ فعالم الطبيعة الذي يعبّر عنه القرآن بعالم الشهادة يشكّل هذه النسبة نفسها ازاء عالم الغيب والحقائق الخفية، إن لم يكن أكثر منه بكثير. عالم الطبيعة بكلّ كواكبه ومجرّاته ، وهذا الكون الذي لا يعلم الإنسان نهايته ولهذا يصفه باللامتناهي ـ ولعلّه غير متناهٍ حقّاً ـ ضئيل جدّاً بالمقارنة مع ما يحيط بهذا العالم، أي ازاء القسم الخفي من العالم. أو بتعبير آخر

---

(١) فلسفة أخلاق (فلسفة الأخلاق): ص ١٢٧.

هو كالحلقة الملقاة في الصحراء. فماذا تمثّل الحلقة ازاء الصحراء؟ لا شيء.

وإذا تحدّثنا الآن عن العبادة اللاشعورية، فلا يكون حديثنا مدعاة للدهشة. فيقول قائل: وهل يمكن أن تكون العبادة غير واعية؟ فالإنسان الحي لا يحتاج إلى الوصي ولا القيّم. وأنا أعلم أنّني لا أعبد الله، بل ولا أعترف بوجوده أساساً، فكيف تقول إنّ عملي الأخلاقي هذا نوع من العبادة اللاشعوريّة؟ وجواب ذلك هو: نعم، إنّك لا تدرك أُموراً كثيرة تفعلها بنفسك، ولا تعلم أنّك لا تدرك ذاتك[1].

ما معنى أنّ الأعمال الأخلاقية من جوهر العبادة؟ يرى الإنسان بفطرته انّ الأعمال الأخلاقية شريفة وكريمة. ومع ما فيها من إيثار وتجاوز للمنطق الطبيعي وحتّى المنطق العقلي والعملي، أي لا ينسجم مع العقل الذي يأمر الإنسان بالحفاظ على ذاته وعلى مصالحه. ومع هذا تجده يؤدّي هذه الأعمال ويرى فيها نوعاً من العزّة والكرامة والرفعة ويشعر انّه يشرف ذاته عبر أداء هذه الأعمال كالايثار والانصاف والتفاني.

فهذا العمق في روح الإنسان، وفطرته، وسعة قلبه، لها نفحة خاصّة لا شعوريّة مثلما يعرف الله ويعرف أحكامه، ورضاه، ويؤدّي عمله فطرياً لوجه الله.[2]

الحقيقة هي أنّ الأخلاق من جوهر العبادة. وبنفس القدر الذي يعبد فيه الإنسان ربّه لا شعورياً، تراه ينقاد أيضاً لا شعورياً لسلسلة من الأحكام الإلهية. وحينما يتحول شعوره اللاواعي إلى شعور واعٍ، وهذا هو السبب الذي من أجله بعث الأنبياء (بعث الأنبياء للسير بنا إلى فطرتنا، لتحويل ذلك الشعور اللاواعي

---

(١) فلسفة أخلاق (فلسفة الأخلاق): ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٧.

وذلك الأمر الفطري إلى شعور واعٍ) وعند ذاك تـغدو جـميع أعـمال الإنسـان أخلاقيّة لا مجرّد مجموعة معيّنة من أفعاله؛ وحـتّى نـومه يـتحول إلى عـمل أخلاقي، وطعامه يصبح عملاً أخلاقياً. أي حينما يسير منهج حياتنا على أساس التكليف ونيل رضا الله، يصبح عندها تناولنا للطعام، ومشينا، وكلامنا، بل وكلّ حياتنا ومماتنا عملاً أخلاقياً واحداً.

﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه ربّ العالمين﴾.[1]

يصبح كلّ شيء للّه، ويتحول كلّ شيء إلى أخلاق[2].

◙ العبادة في الوجود:

هل العـبادة خـاصّة بـالإنسان، والإنسـان فـقط هـو الذي يـعبد الله ـ والمقصود طبعاً بعض النّاس لا أجمعهم ـ؟ طبعاً لا، العبادة التي يؤدّيها بعض الناس ولا يؤدّيها البعض الآخر هي العبادة الشعورية، أمّا العبادة اللاشـعورية فالجميع يؤدّونها، بل هي العبادة الحقيقية الشائعة في جميع موجودات الكون، وليس ثمة موجود لا يعبد الحقّ تعالى.[3]

عرضنا في ما سبق في قضية الحبّ انّه حتّى من يـبحث عـن غـير الله، فالمحفّز الأصلي له هو البحث عن الله، وإنّما الاشتباه في المصداق: «وبعثهم في سبيل محبّته».[4]

كلّ الوجود يسير على طريق محبّة الله. وحتّى النبات ما لديه من شيء سوى حبّه. وحتّى الحجر الذي يتحرك بقوّة الجاذبية هو في الحقيقة ليس بشيء

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٣.

(٢) فلسفة أخلاق (فلسفة الأخلاق): ص ١٣٢.

(٣) فلسفة أخلاق (فلسفة الأخلاق): ص ١٢٣.

(٤) الصحيفة السجادية.

سوى انّه يبحث عن الله، وحب الله في ذاته. وعند هذا تتّخذ آيات من قبيل:

﴿وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.[1]

﴿افَغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض﴾.[2]

﴿ولله يسجد ما في السموات والأرض﴾.[3]

﴿يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض﴾.[4]

﴿سبّح لله ما في السموات وما في الأرض﴾.[5]

معنىً عاماً ويتسع نطاقها. بمعنى انّ القرآن يقدّم لنا نظرة كونية واسعة.

وللشعراء من ذوي الاتّجاه العرفاني أشعاراً في هذا الباب، مثل قول «نظامي».

أتعلم لماذا يدور سائحو الأفلاك حول مركز الأرض؟

◙ تنمية مشاعر العبادة:

تظهر تعاليم الدين الإسلامي انّ هذه الشريعة الالهية المقدّسة تولي اهتماماً فائقاً لجميع أبعاد الإنسان الجسمية والروحية، والماديّة والمعنوية، والفكرية والعاطفية، والفردية والاجتماعية. ولم تهمل أيّاً منها، بل منحت رعاية خاصّة لتربيتها جميعاً وفق أساس معيّن.[6]

اهتمّ الإسلام إلى حدّ بعيد بتنمية العقل والفكر وكسب الاستقلال الفكري وكافح جميع ما يتنافى مع استقلال العقل من قبيل تقليد الأسلاف الأكابر،

---

(١) سورة الاسراء: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران: ٨٣.

(٣) سورة الرعد: ١٥.

(٤) سورة الجمعة: ١، التغابن: ١.

(٥) سورة الحشر: ١، سورة الصف: ١.

(٦) مجموعة الآثار: ج ٢ (الإنسان في القرآن) ص ٢٨٤.

والانقياد لرأي الأكثرية وما شابه ذلك.

وتمثل تربية الارادة، وترويض النفس، والتحرّر المعنوي من سلطان الأهواء بُنية الكثير من العبادات والأحكام الإسلامية. كما ركّز الإسلام على تنمية مشاعر طلب الحقيقة وكسب العلم وتهذيب العواطف الأخلاقية، وتربية حسّ الجمال، وحوافز العبودية.(١)

إذن من جملة الأُمور التي يتعيّن علينا الاهتمام بها حقّاً وترسيخها في ذواتنا ولدى أولادنا هي مشاعر العبودية بمعناها الواقعي. فليست العبادة مجرّد أربع ركعات يؤدّيها الإنسان فينحني ويعتدل أربع مرات باسم الصلاة وهو لا يعي جوهر هذه الممارسة، ولا يفهم أصلاً معنى اللذّة الروحية ولا مغزى المناجاة والدعاء والتضرّع، ولا يدرك معنى الانقطاع إلى الله بما يعنيه من لحظات تمرّ على المرء، ولا يخطر خلالها على ذهنه شيء سوى الله تعالى. وليس العبادة مجرّد أن يصوم فم المرء خلال شهر رمضان من الصباح وحتّى الغروب.

إذن يجب قطعاً تربية هذا الشعور في ذاتنا لنحقّق فيها أحد أركان التربية الإسلامية.(٢)

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٢) تعليم وتربيت در اسلام: ص ٣٤٥.

الباب الثاني

العبادة



العبادة

أحد أُصول التعاليم التي نادى بها الأنبياء هي عبادة الله الواحد الأحد وعدم عبادة أيّ موجود آخر سواه. ولم تكن تعاليم أيّ من الأنبياء خالية من العبادة قطّ.

وكما نعلم فإنّ العبادة ركن أساسي في الشريعة الاسلامية المقدّسة، ولا يوجد في الاسلام شيء باسم العبادة الصرفة التي تتعلّق بالعالم الآخر، بل العبادة الاسلامية مشفوعة بفلسفة الحياة، وهي من جوهر الحياة.

وفضلاً عن انّ بعض العبادات تأخذ طابعاً جماعياً مشتركاً؛ فقد شرع الاسلام العبادات الفردية بشكل جعلها تلبّي بعض متطلّبات الحياة، فالصلاة مثلاً ـ وهي المظهر الكامل للعبوديّة ـ اتّخذت في الاسلام طابعاً خاصّاً، حتى انّ الشخص الذي يريد أداءها في ركن منعزل لابدّ له وأن يؤدّي بعض الواجبات الأخلاقية والاجتماعية، من قبيل النظافة، واحترام حقوق الآخرين، والدقّة في الوقت، ومعرفة الاتّجاه، وضبط المشاعر، والتسليم على عباد الله الصالحين، وغير ذلك.

◘ العبادة حاجة روحية:

من جملة الممارسات العامّة الثابتة التي لا يؤثّر فيها عنصر الزمن مطلقاً، ولا تقبل النسخ والتغيير هي العبادة، التي تعدّ واحدة من حاجات الإنسان. فما

معنى العبادة؟

تطلق كلمة العبادة على تلك الحالة التي يتوجّه فيها الإنسان باطنياً نحو الحقيقة التي أبدعته، ويرى ذاته تحت هيمنتها. وهي تمثّل في واقع الحال سير الإنسان من الخلق نحو الخالق. وبغضّ النظر عن الفوائد المتوخّاة منها، فإنّها بحدّ ذاتها من حاجات الإنسان الروحية، وعدم الاتيان بها ينجم عنها حصول خلل في اتّزانه.

وأسوق -في ما يلي- مثالاً على فقدان الاتّزان بالخرج الذي يوضع على ظهر الحيوان، وما ينبغي أن يكون عليه من الاتّزان دون رجحان طرف على آخر.

ان ثمّة فراغ في وجود الإنسان يستوعب كثيراً من الأشياء، وكلّ فراغ لا يتمّ إشباعه يؤدّي إلى حصول حالة من الاضطراب وفقدان التوازن في جانبه الروحي. وإذا أراد المرء أن يقضي عمره بالعبادة تاركاً المتطلّبات الأُخرى ومعرضاً عن تلبية حاجاته المنوّعة فسيؤدّي هذا إلى حصول الخلل والاضطراب في نفسه، والعكس صحيح أيضاً؛ أي انّه إذا بقي المرء يلهث وراء المادّيات دون الاهتمام بالمعنويات والآفاق الروحية لا يقرّ له قرار، وتبقى روحه في عذاب دائم. وقد التفت إلى هذه الناحية الزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي تغيّرت حالته في أواخر حياته بعدما كان علمانياً في عهد الشباب. يقول هذا الرجل عن ذاته:

أشعر أنّ في روحي وفي هذا العالم فراغ لا يسدّه شيء إلّا القضايا الروحية، وما هذا القلق والاضطراب الذي يلفّ العالم إلّا بسبب ضعف البعد الروحي لدى بني الإنسان والذي أدّى إلى بروز هذه الحالة من فقدان التوازن. ثم يضيف قائلاً: وتلحظ هذه الحالة على أشدّها في الاتّحاد السوفيتي. فعندما

كان الشعب الروسي جائعاً ما كان يفكر إلّا في كيفية سدّ جوعه، لذلك اندفع يخطّط من أجل الحصول على قوته، ولما استتبّ الوضع وعاد إلى مجرى حياته العادية بعد الثورة برزت فيه ظاهرة القلق الروحي وها هو يعاني منها اليوم. ولو عرض للشخص فراغ من بعد فترة العمل فإنّ أول معضلة يواجهها هي كيفية ملء ذلك الفراغ. ثم يقول نهرو: لا أظنّ هؤلاء يستطيعون سدّ الفراغ الذي يعانون منه إلّا بالتوجّه إلى الجانب المعنوي، والتركيز على الآفاق الروحية لإشباع ساعات الفراغ الذي يعانون منه وأُعاني منه أنا أيضاً.

يتّضح إذن انّ العبادة حاجة ماسّة للإنسان ولا مناص له منها. وأمّا الأمراض النفسية المتفشّية في عالم اليوم فهي بسبب إعراض بني الإنسان عن العبادة. وهذا ما لم نحسب حسابه، ولكنه جليّ. والصلاة ـ بغضّ النظر عن كلّ شيء ـ طبيب حاضر على الدوام؛ أي إذا كانت الرياضة مفيدة للصحّة، والماء الصافي ضرورياً لكلّ دار، والهواء النقي، والطعام الصحّي ضروري لكلّ إنسان، فالصلاة ضروريّة أيضاً لصحّة الإنسان كضرورة تلك الأشياء وفائدتها. ولعلّكم لا تعلمون لو أنّ المرء خصّص ساعة من وقته يومياً لمناجاة ربّه لرأى إلى أيّ حدّ تطهر روحه وتصفو، وكم تفيض عليه هذه المناجاة من نقاء وصفاء وسكينة، وتزول من نفسه كلّ السلبيات والخبائث[1].

▣ العبادة سرّ الخلق:

لقد خلق الله الإنسان ليعبده وحده ويمتثل أمره. إذن فواجبه طاعة أمر الله.

﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾[2].

---

(١) اسلام ومقتضيات زمان (الاسلام ومتطلّبات العصر) ص٢٩٢.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

الإنسان لا يجد ذاته إلّا من خلال عبادة الله وذكره، وإذا هو نسي إلهه إنّما في الحقيقة ينسى ذاته ولا يعلم من هو، ولأيّ شيء خلق، وإلى مَ مصيره؟

﴿ولا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[1].

◙ العبادة عهد إلهي :

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انّه لكم عدوّ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[2].

يدور الحديث هنا حول عهد إلهي، ولا يختصّ الكلام هنا برجل أو رجلين، أو أُمّة أو أُمّتين، وإنّما يشمل جميع بني آدم. ولا تعني عبادة الشيطان هنا أن نصنع للشيطان صنماً ونضعه في المحراب، وإنّما بمعنى الانقياد له واتّباعه. وانّ الله قد عهد إلى بني آدم بعدم عبادة الشيطان، بل عبادته هو سبحانه وتعالى الّتي تضمن لهم بلوغ السعادة[3].

◙ العبادة تكليف على الإنسان :

﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة﴾[4].

إنّ الرسول والقرآن وآياته بيّنات للناس. فماذا تريد هذه البيّنة الإلهية من الناس؟ البيّنة الإلهية تارة تكلّف الناس بأمر شاقّ يعكّر عليهم صفو حياتهم بالمرّة، وتوجب عليهم التخلّي عن كلّ شيء لأجل سماع حديث هذا

---

(١) سورة الحشر: ١٩.

(٢) سورة يس: ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) مجموعة الآثار: ج٣. (فطرت): ص٦٠٣.

(٤) سورة البيّنة: ٥.

الرسول مثلاً.

طيّب، إذا كان الأمر على هذه الشاكلة فإنّ المرء يعذر الناس إلى حدّ ما ويقول: إنّ هذا الأمر ليس يسيراً، فهذا الرسول قد جاء يدعو الناس ومن لديهم عوائل، ونساء، وأطفال وأعمال، إلى تركها والاعتزال في سفح أحد الجبال حتّى الموت. كلّا، أبداً فالرسول لم يدع إلى مثل هذه التكاليف الشاقّة، بل وجاءهم بتكاليف فيها صلاحهم.

فماذا أراد منهم إذن؟ أوّلاً بشأن العبادة، أمرهم أن لا يعبدوا إلّا الله. فهل هذا أمر مستقبح؟ ﴿**وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ أي أمرهم أن لا يعبدوا ولا يخضعوا إلّا لله. ثم كيف أمرهم؟ ﴿**مخلصين له الدين حنفاء**﴾.

الحنيف: يعني الذي فيه نزوع إلى الحقّ. وهو على العكس من «الجنيف» الذي يعني الجور والميل إلى الباطل. أي انّ «الحنافة» ـ بتعبير آخر ـ تعني الاعتدال والتوسّط في الأمور. ﴿**وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً**﴾[1] تسمّى بالحنافة، أي الميل إلى الحقّ. أما الميل إلى الافراط أو التفريط فيسمّى «جنافة».

طيّب، فماذا أرادت هذه البيّنة من الناس؟

أرادت منهم أولاً أن لا يعبدوا إلّا الله، وأن يكونوا حنفاء، أي انّها طالبتهم بالاعتدال.

وطلبت منهم ثانياً أن يقيموا الصلاة؛ فهي الصلة التي تربط العبد بالخالق. وذكرنا مراراً انّ إقامة الصلاة شيء آخر غير قراءة الصلاة. إقامة الصلاة بمعنى الاتيان بها بالشكل الذي يوفيها حقّها، أي أن تؤدّى بخشوع وبحضور قلبي وبالتأمّل والتفكّر[2].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) تفسير هفت سوره از قرآن: ص٩٢.

◘ العبادة علامة الايمان :

ذهب رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً بين الطلوعين إلى «أصحاب الصفّة» ـ وكان كثيراً ما يذهب إليهم ـ فوقع بصره على شابّ وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه، وقد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه. فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان ؟

قال: أصبحت ـ يا رسول الله ـ موقناً.

فعجب الرسول من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك ؟

فقال: إنّ يقيني ـ يا رسول الله ـ هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون على الأرائك متكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه. ثمّ قال له: الزم ما أنت عليه.

ثم قال: يا رسول الله، ادع لي بالشهادة[1].

أجل، هذه عبادة هذا الرجل، وهذه أُمنيته، هكذا ليله، وهكذا. هذا هو الإنسان المؤمن، وهذا هو الإنسان الذي يبتغيه الاسلام. إنّه الإنسان الذي يحمل همّين، إلّا انّ همّه الثاني ناتج عن الأول. إنّ التفكّر في الله هو الذي أوجد فيه الهمّ الثاني[2].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٥٣. كنز العمّال: ج١٣، ص٣٥١.

(٢) الإنسان الكامل، ص١٠٢.

◘ العبادة على رأس تعاليم الأنبياء :

كنت في إحدى الجلسات أتحدّث عن العبادة وقلت : لا تقولوا انّ الاسلام دين اجتماعي ، أو انّ الاسلام دين أخلاق فحسب ، بل هو شامل لكلّ هذه الجوانب ، وعرض أسمى الآراء في القيم الاجتماعية ، فقد جاء في الكتاب الكريم : ﴿**ولقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[1].

وجاء بأروع المفاهيم الأخلاقية ، إذ ورد في القرآن العزيز : ﴿**هو الذي بعث في الأُمّيّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة**﴾[2].

ولكن هذا الاسلام الذي رفع قيمة التعاليم الاسلامية إلى هذا الحدّ ، هل قلّل من قيمةالعبادة شيئاً ؟ أبداً ، لم ينقص من العبادة قيد أنملة ، بل حفظ لها قيمتها ومقامها ، وجعل منزلتها فوق كلّ شيء .

العبادة من وجهة نظر الاسلام هي الهيكل العامّ لكلّ تعاليمه ، ولها الصدارة من بين تلك التعاليم ؛ فإن كانت صحيحة ، صحّت على أثرها جميع القضايا الاجتماعية والأخلاقية ، والعكس صحيح أيضاً ، ولا تصدّقوا انّ المرء يكون صالحاً في الجانب الاجتماعي والأخلاقي ، وغير صالح في الجانب العبادي ، ونحن لا نقرّ بإيمان تارك الصلاة .

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ ما مضمونه ـ : لا شيء بمنزلة الصلاة بعد الايمان بالله . وشبّهها رسول الله صلّى الله عليه وآله بالحمة تكون على باب الرجل فيغتسل منها في اليوم خمس مرّات . وورد التأكيد عليها والمحافظة

---

(١) سورة الحديد : ٢٥ .

(٢) سورة الجمعة : ٢ .

عليها والأمر بها في المأثور: «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها»[1]. وقال تعالى لرسوله الكريم: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾**.

وقال أيضاً: **﴿إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الّذين معك﴾**.

وقال أيضاً: **﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾**. إذ انّ التهجّد كان واجباً على الرسول[2].

▣ أبعاد العبادة:

الاسلام يعتبر كلّ عمل مفيد ـ إن كان صادراً بدافع إلهي خالص ـ عبادة لله؛ لذلك فهو يعتبر طلب العلم عبادة، وطلب الحلال عبادة، والأعمال الاجتماعية عبادة[3].

وقد أكّد الفقهاء انّ أيّ عمل يأتي به الإنسان لنيل رضا الله فهو عبادة، طبعاً العمل الذي ظاهره الصلاح، أي انّ كلّ عمل صالح إذا أتى به الإنسان لوجه الله فهو عبادة. وعلى هذا يمكن أن يكون نوم الإنسان عبادة أيضاً.

قيل: إنّ المرء إذا نظّم حياته بشكل بحيث يصبح كلّ عمل في الوقت والمكان المناسب، وتكون الأعمال التي يؤدّيها في سبيل الله حقاً، فإنّه في حالة عبادة مستمرّة ليل نهار؛ فنومه عبادة، ويقظته عبادة، وتناوله الطعام عبادة، ومشيه عبادة، وارتداؤه الثياب عبادة، فيما لو كانت كلّ أعماله في سبيل الله.

وهذا الأمر صحيح لأنّ الإنسان يتعيّن عليه أن يكون في حالة عبادة على الدوام، ولا ينبغي أن تمرّ عليه لحظة وهو ليس في حالة عبادة. ولكن لا يتوهّم

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٧.

(٢) اسلام ومقتضيات زمان (الاسلام ومتطلبات العصر): ص ٢٩٤.

(٣) سيرى در نهج البلاغة (في رحاب نهج البلاغة): ص ٨١.

أحد انّ أي عمل يؤدّيه، انّ أيّ عمل فيه مصلحة إذا أتى به لوجه الله فهو عبادة. فإذا كنتُ في محلّ عملي مثلاً وأُودّي ـ على سبيل الفرض ـ عملاً في سبيل الله، أي انّني في حالة عبادة، فلا حاجة عندئذ للعبادة التي جوهرها ذكر الله، والخلوة به، والاستئناس به، والانقطاع إليه، ونسيان ما سواه. كلّا، فتلك العبادة ضرورية في موضعها على كلّ الأحوال. فلو لم تكن تلك لما كانت هذه. وتلك معناها العمل الذي هو عبادة محضة، ولا مصلحة أُخرى فيه غير العبادة.

نحن في الشرع الاسلامي لدينا نوعان من العمل:

أحدهما يطلق عليه العبادة المحضة، وهو العمل الذي لا مصلحة فيه سوى العبادة، ومثال ذلك هي الصلاة. وهناك أيضاً أعمال أُخرى من قبيل متطلّبات الحياة وبالامكان أن نجعلها بصفة العبادة، بل ويجب أن نعطيها هذه الصفة. إذن فكلّ عمل حينما يكون لله وفي سبيل الله فهو عبادة. ولكن يجب أن لا نقع في الوهم بأنّ هذا يغنينا عن تلك العبادة التي تجعل الإنسان ينقطع إلى ربّه ويستغفره. أبداً، فهذه العبادة لا تغنينا عن تلك. ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله يرى نفسه غنيّاً عنها قطّ، وما كان أمير المؤمنين عليه السلام يرى نفسه في غنى عنها، بل ولا يستغني عنها أيّ إنسان آخر[1].

◘ تقديس العبادة:

للعبادة في قاموس المعارف الاسلامية مفهوم واسع. وكلّ طاعة غير مستمدّة من طاعة الله سواء طاعة النفس الأمّارة، أو طاعة الآخرين تعدّ شركاً. ومن الطبيعي انّ هذا النمط من الشرك يعتبر من المراتب الضعيفة للشرك ولا تستلزم الخروج من دائرة الاسلام.

إلّا انّ الأعمال التي يؤتى بها بقصد «إنشاء العبادة» وإظهار العبودية، أي

---

(١) تعليم وتربيت (التعليم والتربية): ص٣٤٧.

الأعمال التي لا مفهوم لها سوى تقديس المقابل وإظهار العبودية له، من قبيل الركوع والسجود والتزلّف له بالأضاحي وغيرها، فهذه لا تجوز إلّا لله، أي لا تجوز حتّى للرسول والامام والملائكة أو أيّ شيء آخر.

وأمثال هذه الأعمال إذا أتى بها المرء لغير الذات الإلهية المقدّسة فهي شرك، سواء اقترنت بعقيدة التوحيد، أي توحيد الذات والصفات والخالقية، أم لم تقترن.

وهذا الموضوع يستلزم المزيد من التوضيح وهو: انّ أيّ خضوع أو اهتمام بشيء ليس عبادة. أمّا إذا تتّخذ ذلك الخضوع صبغة التقديس فهو عبادة.

وتوضيح ذلك: انّ خضوع الإنسان إذا كان لمجرّد «استصغار الذات» و«إظهار الذات» بشكل أقلّ شأناً فهذا تواضع. ولكن إذا كان الخضوع بقصد تكريم المقابل فهو تعظيم. وكلّ من التواضع والتعظيم لا يعدّ من العبادة. والفارق بين التواضع والتعظيم هو انّ الأول منهما تعبير عن استصغار الذات، بينما يعني التعظيم إظهار عزّة وكرامة الآخر.

أمّا إذا كان خضوع الإنسان أمام الشيء بمعنى تقديسه وتنزيهه عن النقص، فهذه هي العبادة التي لا تجوز لغير الله. لأنّ الموجود الوحيد المنزّه عن النقص ويستحقّ العبادة هو الله تقدّس ذكره.

التسبيح والتقديس على نوعين: لفظي وعملي. التسبيح اللفظي معناه أن يقدّس الإنسان معبوده بجملة لفظية، من أمثال «سبحان الله»، و«الحمد لله» الذي تخصّ الله بكلّ أنواع الحمد، وتعتبره الموجد الحقيقي لجميع النعم والخيرات والبركات والكلمات. وكذلك كلمة «الله أكبر» التي تجعل الله أكبر من كلّ شيء يخطر في البال، بل وأسمى من كلّ وصف. فأمثال هذه الكلمات لا تجوز إلّا لله، ولا تجوز لسواه حتّى وإن كان ملكاً مقرّباً أو نبيّاً مرسلاً. ومثلها أيضاً عبارة «لا حول ولا قوّة إلّا بالله».

أمّا التقديس العملي فهو أن يأتي الإنسان بعمل يُفهم منه إضفاء طابع القداسة على الموجود الذي أدّى ذلك العمل له ، من قبيل الركوع والسجود وتقديم القرابين . ومن الطبيعي انّ العمل لا صراحة فيه كصراحة اللفظ . فهذه الأعمال قد يراد بها التعظيم ، وهي في هذه الحالة ليست عبادة ، والعمل لا يعدّ عملاً مقدّساً ؛ أي انّه مجرّد عمل عادي . إلّا انّ الأعمال التي تؤدّى في مقابل الصنم أو النار أو غيرها تتّخذ صبغة مقدّسة لأنّها إنّما تؤدّى بقصد تقديسها .

الإنسان مجبول بفطرته على التقديس . أي انّ لديه نزوع فطري للوقوف بين موجود منزّه عن النقص ويتّسم بالكمال .وبماأنّ التقديس ينبثق من شعور فطري ، وغريزة الثناء على الكمال المطلق هي التي تدفع الإنسان لممارسة هذا العمل ، فهذا الشعور يأتي مقروناً بقصد أو عن غير قصد بنوع من الاعتقاد باستقلال الشيء الذي يقدّسه بشكل شعوري أو لا شعوري ، ولو على هيئة الخطأ في التطبيق .

وبعبارة اُخرى : بما أنّ العبادة والقدسية نابعة من شعور غريزي ، فلا ضرورة أن يكون الإنسان في مرحلة الشعور الظاهري مؤمناً حقّاً بأهليّة ذلك المعبود واستقلاله الذاتي والفعلي ونزاهته عن النقص .

أجل ، هذا هو معنى التقديس . وهذا هو الفارق بين التقديس والتواضع ، أو بين التقديس والتعظيم العادي ، أو بين التقديس والاهتمام بالشيء وجعله قبلة . فالذي يمارسه الزرادشتيون ازاء النار تقديساً لها ، وليس مجرّد تواضع أو تعظيم بسيط أو جعلها قبلة . انّ مجرّد التقديس أو التنزيه يكفي لاعتبار العمل عبادة ، سواء اقترن بالاعتقاد الصريح بمقام الربوبية المطلقة أم لم يقترن[1].

---

(١) خدمات متقابل اسلام وايران (الخدمات المتبادلة بين الاسلام وايران) : ص ٢٥٠ .

▣ التفكّر عبادة :

القضية الأُخرى التي طالما وردت في التعاليم الاسلامية واتّخذت طابعاً تربوياً هي قضية التفكّر . فكثيراً ما ورد في المأثور انّ التفكّر عبادة :

«تفكّر ساعة خير من عبادة سنة». و«تفكّر ساعة خير من عبادة ستّين سنة». و«تفكّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وهذا التفاوت الموجود بين الروايات ليس دليل اختلاف، بل لوجود التباين والتفاوت في التفكير .

إذن فالتفكّر بحدّ ذاته عبادة. وعلى هذا تكون لدينا ثلاثة أنواع من العبادة: عبادة بدنية ؛ كالصلاة، والصوم. وعبادة مالية، كأداء الخمس والزكاة، أو عموم الانفاق. وعبادة فكرية ؛ وهي عبادة روحية صرفة اسمها التفكّر .

التفكّر أفضل أنواع العبادة. فالحديث : «تفكّر ساعة خير من عبادة سنة أو ستّين سنة أو سبعين سنة» يفيد انّ عبادة التفكّر أكثر قيمة من سائر العبادات الأُخرى. فساعة واحدة من هذه العبادة قد تعادل ستّين سنة من العبادة البدنية الخالية من التفكّر. ولكن لا يقع الوهم هنا بأنّ المراد هنا هو الاستبدال، بمعنى ترك تلك العبادة والتعلّق بهذه. أبداً، ليس هذا هو المراد. فكلّ واحدة منهما ضروريّة في موضعها. والمقصود هنا هو بيان ضرورة هذا الأمر .

▣ ترابط العبادة والولاية :

إنّ جوهر المذهب الشيعي الذي يميّزه عن سائر المذاهب الاسلامية، وما يمنح أتباعه رؤية اسلامية خاصّة، هي النظرة الخاصّة لهذا المذهب حول الإنسان. فهو يرى من جهة انّ مواهب الإنسان على درجة عالية من العمق، وانّ العالم لا يخلو مطلقاً من الإنسان الكامل الذي تجسّدت فيه كلّ المواهب الانسانية، ويرى من جهة أُخرى انّ العبادة هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ المراتب الانسانية الرفيعة. وانّ طيّ طريق العبودية بصورة كاملة لا يتاح إلّا من خلال

الرعاية المعنويّة والولايةالحقّة للإنسان الكامل الذي هو وليّ الله وحجّته.

ولهذا قيل:

«بني الاسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية، ولم يناد بشيء مثلما نودي بالولاية»[١]. [٢]

◘ فلسفة العبادة:

إنّ أحد الأدلّة على حجّية العقل في رأي القرآن هي انّه يذكر للتعاليم والأحكام فلسفة. ويعني هذا الأمر أنّ الحكم الصادر يعزى إلى هذه المصلحة. يقول علماء الأُصول بأن المصالح والمفاسد تقع في مجموعة علل الأحكام؛ مثلاً يقول القرآن في آية **﴿وأقيموا الصلاة﴾**[٣]، وفي آيةٍ أُخرى يذكر فلسفتها قائلاً: **﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**[٤].

يذكر الأثر الروحي للصلاة وانّها كيف ترفع الإنسان، وبسبب هذا الاعتلاء ينزجر الإنسان وينصرف عن الفواحش والآثام.

وعندما يذكر القرآن الصوم ويأمر به، يتبع ذلك بقوله: **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون﴾**[٥].

وهكذا في سائر الأحكام، مثل الزكاة والجهاد و...؛ حيث يوضح في كلّ منها من الناحيتين الفردية والاجتماعية.

وبهذا الترتيب فإنّ القرآن يمنح الأحكام السماوية جانباً دنيوياً وأرضياً بالرغم من كونها أحكاماً غيبية، ويطلب من الإنسان التدبّر فيها ليتّضح له واقع

---

(١) وسائل الشيعة: ج١ ص٤.

(٢) «ولاها وولايتها»: ص١٠٤.

(٣) سورة البقرة: ٤٣ و٨٣ و١١٠، سورة النساء: ٧٧، سورة يونس: ٨٧.

(٤) سورةالعنكبوت: ٤٥.

(٥) سورةالبقرة: ١٨٣.

الأمر، ولا يتصوّر انّ هذه الأحكام مجرّد مجموعة من رموز تفوق فكر الإنسان[1].

▣ توحيد العبادة :

للتوحيد أقسام ومراتب هي :

توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

توحيد الذات معناه أنّ ذات الله واحدة لا شبيه لها ولا نظير. وكلّ ما عداه مخلوق له، وأدنى منه مرتبة في الكمال، بل ولا يمكن قياسه معه. والآية الكريمة: ﴿ليس كمثله شيء﴾ أو الآية الكريمة: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ تبيّن توحيد الذات.

أمّا توحيد الصفات فيعني أنّ صفات الله من قبيل: العلم، والقدرة، والحياة، والارادة، والادراك، والسمع، والبصر، هي ليست حقائق خارج ذاته المقدّسة، بل هي عين ذاته. بمعنى أنّ الذات الإلهية تصدق عليها هذه الصفات أيضاً، أو هي ـ على قول آخر ـ بشكل تترتّب عليها آثار هذه الصفات.

ويعني توحيد الأفعال أنّ جميع الذوات، بل وجميع الأفعال ـ حتى أفعال الإنسان ـ تسير بمشيئة الله وإرادته.

وتوحيد العبادة يراد به انّ أيّ موجود آخر غير ذات الله تبارك وتعالى لا يستحقّ العبادة. وعبادة غير الله شرك وخروج من دائرة التوحيد الاسلامي.

أمّا توحيد العبادة فهو في أحد أبعاده يختلف عن سائر أقسام التوحيد؛ لأنّ تلك الأقسام الثلاثة تتعلّق بالله، وهذا القسم يتعلّق بالعباد. وبعبارة أُخرى: فإنّ وحدانيّة ذاته وعدم وجود نظير له في الصفات، ووحدانيّته في الفاعلية من

(١) آشنائى با قرآن (التعرف على القرآن): ص ٥٢.

شؤونه وصفاته. أمّا توحيد العبادة فهو لزوم عبادته وحده. إذن فتوحيد العبادة من شؤون العباد لا من شؤون الله.

ولكن الحقيقة هي انّ توحيد العبادة من شؤون الله أيضاً؛ لأنّ توحيد العبادة يعني تفرّد الله في استحقاق صفة المعبودية. إذن فهو لوحده المعبود الحقّ، وكلمة «لا إله إلاّ الله» شاملة لكلّ مراتب التوحيد. ولا شكّ أنّ مفهومه الابتدائي يتمثّل في توحيد العبادة.

توحيد الذات وتوحيد العبادة من جملة الأركان الأساسية في العقيدة الاسلامية. أي لو أنّ أحداًكان في اعتقاده بأحد هذين الأصلين خلل لا يحسب في عداد المسلمين. إذ لا أحد من المسلمين يخالف هذين الأصلين.

وفي القرون الأخيرة ادّعت فرقة الوهابية التي تتّبع محمد بن عبدالوهاب الذي سار على منهج ابن تيمية الحنبلي الشامي أنّ بعض معتقدات المسلمين كالشفاعة، وبعض ممارساتهم كالتوسّل بالأنبياء والأولياء تتعارض مع أصل توحيد العبادة، إلاّ انّ سائر المسلمين لا يرون هذا يتنافى مع مبدأ توحيد العبادة.

إذن فاختلاف الوهابية مع سائر المسلمين لا يكمن في أنّ الموجود الوحيد الذي هو أهل للعبادة هو الله أم أحد سواه ـ كأن يكون الأنبياء والأولياء جديرين بالعبادة أيضاً ـ فلا شكّ في أنّ غير الله ليس أهلاً للعبادة. بل الاختلاف هو: هل الاستشفاع والتوسّل عبادة أم لا؟ إذن فالنزاع في الصغرى لا في الكبرى. وقد ردّ علماء الاسلام على آراء الوهابية بشروح مستفيضة ومدعومة بالبراهين[1].

المراتب الثلاثة المذكورة أعلاه توحيد نظري من نوع المعرفة، أمّا توحيد

---

(١) مجموعة الآثار: ج٣ (كلام ص ٧٠): ص٢٦.

العبادة فهو توحيد عملي من نوع «الكينونة» و«الصيرورة» . تلك المراتب الثلاثة من التوحيد تعكس التفكير القويم، وهذه المرحلة من التوحيد إنّما تعكس «الكينونة» و«الصيرورة» الحقّة، التوحيد النظري رؤية للكمال، والتوحيد العملي حركة لبلوغ الكمال. التوحيد النظري إدراك لوحدانية الله، والتوحيد العملي اتّجاه الإنسان نحو معبود واحد. التوحيد النظري «رؤية»، والتوحيد العملي «سير».

التوحيد العملي معناه توحيد العبادة، أو بعبارة أُخرى: التوحّد لأجل عبادة الحقّ.

ونشير لاحقاً إلى أنّ للعبادة في الرؤية الاسلامية مراتب ودرجات، وأبرز مراتبها أداء شعائر التقديس والتنزيه، وفيما لو أدّاها المرء لغير الله استلزمت خروجه من ربقة أهل التوحيد، ومن دائرة الاسلام. إلّا انّ الاسلام يرى أنّ العبادة لا تنحصر في هذه المرتبة، بل كلّ نوع من التوجّه باتّجاه معيّن، واتّخاذه مثالاً، وقبلة معنويّة، هو نوع من العبادة. فالذي يتّخذ هوى نفسه اتّجاهاً لمسيره، ومثالاً، وقبلة معنوية، إنّما يعبده:

﴿أرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾[1].

فمن يطيع شخصاً لم يأمر الله بطاعته، ويستسلم له كلّياً، يكون قد عبده:

﴿اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[2].

﴿ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[3].

وعلى هذا فالتوحيد العملي أو التوحيد في العبادة يعني طاعة الله وحده،

---

(١) سورة الفرقان: ٤٣.

(٢) سورة التوبة: ٣١.

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

والاتّجاه إليه في حركتنا . واتّخاذه قبلة ومثالاً لأرواحنا ، والاعراض عن كلّ مطاع آخر ، وعن أيّ اتّجاه آخر ، وقبلة أُخرى ، ومثال آخر . وهذا يعني أن تكون كلّ انحناءة واستقامة لله ، وكلّ خدمة من أجله .

فكلّ حياتنا ، ومماتنا لله تعالى ، مثلما قال إبراهيم عليه السلام .

﴿إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[1].

﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أوّل المسلمين﴾[2].

إنّ توحيد إبراهيم عليه السلام هذا توحيد عملي .

والكلمة الطيّبة : «لا إله إلّا الله» تعني التوحيد العملي قبل كلّ شيء ، وتعني أنّ غير الله ليس أهلاً للعبادة[3].

◻ الشرك :

النقطة الجديرة بالذكر هنا هي انّ التوحيد يقع في النقطة المقابلة للشرك . وكلمة الشرك مشتقّة من المشاركة . مثلما ورد في القرآن على لسان موسى عليه السلام : **﴿وأشركه في أمري﴾**[4]. أي أن يجعل هارون شريكاً له في تبليغ الرسالة .

لنرى الآن هل يعني الشرك بالضرورة أن يشرك الإنسان غير الله مع الله ، أي أن يكون له معبودان في آن واحد ؟ وإذا لم يعبد الإنسان الله ، وعبد موجوداً غيره ، ألا يعدّ ذلك شركاً ؟

---

(١) سورة الأنعام : ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٣) مجموعة الآثار : ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤) سورة طه : ٣٢ .

مثلاً جاء في قصّة قوم سبأ في القرآن الكريم انّ الهدهد قال لسليمان عليه السلام:

﴿ وجئتك من سبأ بنبإٍ يقين انّي وجدت امرأة تملكهم وأُوتيت من كلّ شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس... ﴾[1].

فهل هؤلاء القوم الذين كانوا يعبدون الشمس، ولا يعبدون شيئاً غيرها، بما انّهم يعبدون معبوداً واحداً ليسوا مشركين ؟

لا تطلق كلمة الشرك في المصطلح القرآني على الثنوية في الاعتقاد فقط، بل يعني اتّخاذ شيء آخر غير الله بدلاً عنه. وبما انّ القرآن يرى ان جميع الموجودات تعبد الله، فإذا وضع أحد غير الله بدلاً عن الله، فقد جعل لله شريكاً في العبادة، حتى وإن لم يعبد شيئاً آخر مع ذلك المعبود الباطل. ومعنى هذا أنّ الذين يعبدون الشمس لوحدها هم مشركون أيضاً[2].

◙ الشرك في العبادة:

كانت بعض الأُمم تعبد الأحجار أو الخشب أو المعدن، وبعضها الآخر كان يعبد الشمس أو الشجر أو البحر. وكان هذا النمط من الشرك متفشّياً بين الشعوب في ما مضى. ولا نعدم بعض ألوانه في أرجاء مختلفة من عالمنا المعاصر.

كلّ ما مر من ألوان الشرك ينتمي إلى الشرك النظري، وهو لون من المعرفة الكاذبة. أمّا هذا اللون من الشرك فهو شرك عملي، وهو لون من «الكينونة» و«الصيرورة» الكاذبة.

للشرك العملي درجات أيضاً. وأعلى مراتبه هو ما ذكرناه قبل قليل،

---

(١) سورة النمل: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) التعرف على القرآن: ص ١٣٢.

ويسمّى الشرك الجلي، وهو كاف لإخراج الشخص من دائرة الاسلام. وهنالك ألوان من الشرك الخفي، وقد حاربها القرآن في منهاج توحيده العملي. وبعضها الآخر على درجة من الخفاء بحيث لا يرى إلّا بمجهر قويّ. وجاء في الحديث انّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«الشرك أخفى من دبيب الذرّ على الصفا في الليلة الظلماء» وأدناه يحبّ على شيء من الجور ويبغض على شيء من العدل. وهل الدين إلّا الحبّ والبغض في الله. قال الله: ﴿إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحبِبكم الله﴾[1].

ويعتبر الاسلام عبادة الهوى والجاه والمقام الاجتماعي والمال والأشخاص لوناً من ألوان الشرك. ويعبّر القرآن الكريم في قصّة موسى مع فرعون عن فرض أمر فرعون على بني إسرائيل بكلمة التعبيد، وينقل عن لسان موسى في جوابه لفرعون انّه قال:

﴿وتلك نعمة تمنّها عليَّ ان عبدت بني إسرائيل﴾[2]. أي أتمنّ عليَّ انّي قد نشأت في منزلك مع انّك اتّخذت بني إسرائيل عباداً لك؟

ومن الواضح انّ بني إسرائيل لم يكونوا عباداً لفرعون، وإنّما كانوا تحت هيمنته الجائرة.

وقد نقل القرآن في موضع آخر عن لسان فرعون قوله:

﴿وانا فوقهم قاهرون﴾[3].

فهم مقهورون أمامه.

وينقل عن لسان فرعون في موضع آخر قوله: ﴿وقومهما لنا عابدون﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: ٣٢.

(٢) سورة الشعراء: ٢٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٢٧.

(٤) سورة المؤمنون: ٤٧.

فكلمة «لنا» قرينة على عدم قصد العبادة. فلو فرضنا انّ بني إسرائيل أُجبروا على العبادة فهم يعبدون فرعون وحده وليس كلّ الفراعنة. أمّا ما فرض على بني إسرائيل من قبل الفراعنة جميعاً فهو الطاعة الاجبارية.

جاء في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام تسمّى بالخطبة القاصعة انّه بيّن فيها تبعية بني إسرائيل لفرعون وخضوعهم لسلطته الجائرة، واستعمل فيها كلمة «العبيد»، فقال:

«اتّخذتهم الفراعنة عبيداً؛ فساموهم العذاب وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم من ذلّ الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع»[1].

▣ عبادة الجبابرة:

﴿وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾[2].

تشير الجملة الأخيرة من هذه الآية إلى استقرار الخلافة الإلهيّة والحكومة الحقّة. فأهل الايمان حينئذ أحرار من كلّ جبّار، فهم يعبدون الله ولا يشركون به أحداً.

ويفهم من هذا انّ القرآن يطلق على طاعة الأمر كلمة «العبادة»، فإذا كانت الطاعة لله فهي عبادة لله. وإن كانت الطاعة لغير الله فهي شرك.

وهذه الجملة مثار للدهشة لأنّ طاعة الأمر بشكل إلزامي لا تعدّ أخلاقيّاً عبادة ولكنّها تعدّ من وجهة النظر الاجتماعية عبادة. قال رسول الله صلّى الله

---

(١) مجموعة الآثار: ج ٢ (مقدّمة على النظرة الكونية): ص ١٢٤.

(٢) سورةالنور: ٥٥.

عليه وآله :

«إذا بلغ بنو العاص ثلاثين اتّخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دخلاً»[1].

وهذه إشارة إلى ظلم الأمويّين. ومن البديهي أنّ الأمويّين لم يدعوا الناس إلى عبادتهم، ولم يعتبروهم مملوكين لهم، وإنّما فرضوا عليهم أنفسهم واستبدّوا بهم. والرسول الكريم يرى بنظرته المستقبلية هذا العمل لوناً من ألوان الشرك[2].

▣ الشرك في الخالقية، والشرك في العبادة :

خلط البعض الشرك في العبادة مع الشرك في الخالقية، وتوهّموا انّ الشرك في العبادة يستلزم أن يكون للمعبود دور في نظام الخلقة من حيث الخلقة والايجاد. وبما انّ الزرادشتيّين لم يعتقدوا بمثل هذا الرأي بالنسبة للنار، إذن فهم لم يكونوا مشركين. فإذاكان الأمر كذلك إذن فعرب الجاهلية لم يكونوا مشركين ايضاً، لأنّهم لم يكونوا يمارسون عملاً، ولا يؤدّون للأصنام سوى ما ينبغي أداؤه لله من صلاة وقرابين، وهم لم يعتقدوا بالعزى وهبل كأرباباً مستقلّين.

الوهم الآخر هو انّ الشيء إذاكان وجوده ضرورياً جدّاً فلا مانع من أن يعبده الإنسان.

إنّ القياس بين تقديس النار، والتوجّه إلى الكعبة حين الصلاة قياس مغلوط، لأنّ المسلم وإن كان من العامّة لا يخطر في ذهنه حين التوجّه إلى الكعبة حين الصلاة بأنّه يريد تقديس الكعبة وتعظيمها. والاسلام حين جعل الكعبة قبلة ماكان مراده أن يقدّسها الناس حين الصلاة، ولهذا لا يخطر في بال

---

(١) شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة : الخطبة ١٢٨.

(٢) مجموعة الآثار : ج ٢ : (مقدّمة على النظرة الكونية)، ص ١٢٤.

أيّ مسلم تقديسها.

وهذا شبيه قولهم أن يتّجه المسلمون أثناء الصلاة إلى نقطة الجنوب مثلاً، والّذي لا يعني سوى أن يكون للجميع وضع واحد أثناء الصلاة. ولم ترد في الدين الاسلامي أيّة إشارة توحي إلى وجود علاقة بين الله وبين الكعبة والمسجد الحرام، بل ورد في القرآن الكريم تصريح على العكس من هذا حيث قال تعالى: ﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾[1].

وإذا قيل انّ الكعبة بيت الله؛ فلأنّ كلّ معبد يقال له بيت الله. إذن فالتوجّه إلى الكعبة قائم على حكمة وفلسفة اجتماعية، وتلك الحكمة أولاً: هي أن يكون للمسلمين رأي واحد في اختيار الجهة التي يتّجهون إليها أثناء العبادة، ولكيلا تعتريه الفرقة والتشتّت.

ثانياً: أن يكون الموضع الذي يتوجّهون إليه سويّة هو أوّل موضع بني لعبادة الله. وهذا بحدّ ذاته نوع من الاحترام لعبادة الله[2].

▣ الحدّ الفاصل بين الشرك والتوحيد في العبادة:

إنّ الحدّ الفاصل بين التوحيد والشرك في التوحيد العملي هو «إنّا إليه راجعون». فالاتّجاه إلى أيّ موجود معنويّ أو مادّي إذا كان باعتباره سبيلاً يؤدّي إلى الحقّ لا باعتباره هدفاً بحدّ ذاته، فهو توجّه إلى الله. وفي كلّ حركة أو مسير إذا كان الاهتمام بالطريق من جهة كونه طريقاً، والالتفات إلى العلامات والدلالات المنصوبة فيه حذراً من الضلال وتجنّباً للخروج عن سواء السبيل، فالمسير هنا يكون نحو الهدف ونحوالمقصد.

والأنبياء والأولياء هم الطرق المؤدّية لله:

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

(٢) الخدمات المتبادلة بين الاسلام وإيران: ص ٣٢٤.

«أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم»[1].

و«أعلاماً لعباده، ومناراً في بلاده، وأدلّاء على صراطه».

و«الدعاة إلى الله، والأدلّاء على مرضاة الله»[2].

فالتوسّل بالأولياء وزيارتهم وتوقّع الكرامات منهم ليس شركاً، وليس في هذا شكّ. وإنّما الكلام في مواضيع ثلاثة:

أوّلاً: معرفة هل الأنبياء قد ارتقوا مراتب القرب الإلهي هذه بحيث بلغوا هذه المرحلة من التأييد الإلهي، أم لا؟ يستفاد من القرآن الكريم انّ الله تعالى تفضّل على بعض عباده بمثل هذه الدرجات والمقامات الرفيعة.

ثانياً: هل الناس الذين يزورون الأولياء ويتوسّلون بهم، لديهم إدراك صحيح من حيث الرؤية التوحيديّة، أم لا؟ أهم حقّاً يزورون متّجهين إليه سبحانه؟ أم ينسونه ويحلّون محلّهُ الشخص الذي يزورونه؟

لا شكّ أنّ أكثر الناس يذهبون إلى الزيارة حاملين مثل هذا التوجّه الغريزي، ويحتمل أن يكون البعض ينقصه مثل هذا الادراك التوحيدي ـ ولو على المستوى الغريزي ـ. ومثل هؤلاء يجب تعليمهم عقيدة التوحيد لا أن نعتبر الزيارة شركاً.

ثالثاً: كلّ قول أو فعل ينم عن تسبيح الله وتكبيره وحمده والثناء عليه، إذا قصد به غير ذات الله فهو شرك. لأنّه هو وحده السبّوح المطلق والمنزّه المطلق عن كلّ نقص أو عيب. وهو وحده الكبير المطلق، وإليه تعود كلّ ألوان الثناء، وله كلّ الحول والقوّة. وهذه الصفات ـ ما كان منها قولاً أو فعلاً ـ إذا نسبت لغير الله عُدّت شركاً[3].

---

(١) فقرات من الزيارة الجامعة الكبيرة: (مفاتيح الجنان).

(٢) راجع رسالة «ولاءها وولايتها» للمؤلّف.

(٣) مجموعة الآثار: ج ٢، (مقدّمة على النظرة الكونية): ص ١٣٢.

◙ حرمان غير المسلمين :

وضعت الشريعة الاسلامية بعض التعاليم، لو اعتبرت العمل بها شرطاً للتكامل الروحي والمعنوي. ومن البديهي انّ أيّ إنسان مهما كان متفوّقاً ومتحرّراً من عوامل التعصّب والعناد يبقى محروماً من مزايا المنهج الإنساني الكامل بسبب عدم انتمائه إليه. ومن الطبيعي أنّ شخصاً كهذا يحرم من عبادات عظيمة: كالصلوات اليومية الخمسة، وصيام شهر رمضان، وحجّ بيت الله، ويكون مثله كمثل من يبذر البذور للزراعة بدون معرفة أو برنامج. ومهما كان المحصول الذي يجنيه فهو لا يضاهي المحصول الذي يجنيه الشخص الذي يتبع طريقة صحيحة وشاملة فيحرث الأرض ويبذر فيها البذور في الوقت المناسب، وخلاصة القول انّه يتّبع كلّ الخطوات الفنّية والعلمية اللازمة [1].

إنّ غير المسلمين ممّن يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعملون الخيرات قربة لله تعالى، بما انّهم محرومون من نعمة الاسلام فهم لا ينتفعون من خصائص هذا المنهج الإلهي، ولا يقبل من أعمالهم الخيّرة سوى ما يتطابق مع الشريعة الاسلامية من قبيل أعمال الخير والاحسان لعباد الله. أمّا العبادات الموضوعة التي لا أساس لها فهي غير مقبولة طبعاً [2].

◙ العبادة في كتب الفقه :

ذكر المحقّق (رحمه الله) عشر كتب فقهية على الترتيب التالي:

١ ـ كتاب الطهارة: الطهارة على قسمين: الطهارة من الخبث أو النجاسات الجسمية والظاهرية والعارضة، والطهارة من الحدث، بمعنى النجاسة

---

(١) العدل الإلهي: ص ٣١١.

(٢) العدل الإلهي: ص ٣٤١.

المعنوية .

الطهارة من الخبث : عبارة عن تطهير البدن أو الثياب أو الأشياء الأخرى من النجاسات العشرة من قبيل : البول ، والغائط ، والدم ، والمني ، والميتة ، وغير ذلك .

والطهارة من الحدث : هي عبارة عن الوضوء ، والغسل ، والتيمّم ، والتي تعتبر شرطاً في عبادات من قبيل الصلاة ، والطواف ، وتبطل بأعمال طبيعية ، مثل : النوم ، والتبوّل ، والجنابة ، وما شابه ذلك . ويجب تجديدها .

٢ ـ كتاب الصلاة : يبحث في هذا الكتاب حول الصلوات الواجبة ، كالصلوات اليومية ، وصلاة العيدين ، وصلاة الميّت ، وصلاة الآيات ، وصلاةالطواف . وكذلك عن الصلوات النوافل أي الصلوات المستحبّة ، كالنوافل اليومية ، وغيرها . كما ويبحث في شروط وأركان ومقدّمات وموانع وقواطع وخلل الصلاة ، وكذلك حول أنواع الصلاة : كصلاة المسافر ، وصلاة الحاضر ، أو صلاةالفرادى ، وصلاة الجماعة ، أو الصلاة أداءً ، والصلاة قضاءً .

٣ ـ كتاب الزكاة : الزكاة عبارةعن دفع أموال بشكل يشبه الضريبة ، ويتعلّق بتسعة أشياء هي : الذهب ، والفضّة ، والحنطة ، والشعير ، والتمر ، والكشمش ، والأبقار ، والأغنام ، والجمال . يبحث الفقه في شروط أخذ الزكاة على هذه الأشياء التسعة ، وفي مقدار تلك الزكاة ، وموارد إنفاقها . غالباً ما يأتي القرآن على ذكر الزكاة إلى جانب الصلاة ، وأشار إلى موارد إنفاقها فقط ، في قوله :

﴿إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾[1].

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

٤ ـ كتاب الخمس: الخمس يشبه الزكاة من حيث كونه نوعاً من المال يدفع كالضريبة. يرى أبناء السنّة أنّ غنائم الحرب فقط هي التي يجب أن يدفع خمسها لبيت المال وينفق في المصالح العامّة. إلّا انّ الشيعة يرون انّ غنائم واحدة من الأشياء التي يجب فيها الخمس. وبالاضافة إليها هنالك: المعادن، والكنوز، والمال المختلط بالحرام الذي لا يمكن تحديده ولا معرفة مالكه، والأرض التي يشتريها الكافر الذمّي من المسلم، وما يصاد بالغوص، والفاضل من عائد السنة يجب تخميسها أيضاً.

يشكّل الخمس في المذهب الشيعي ميزانية ضخمة بإمكانها ضمان جانب مهمّ من إنفاق البلد.

٥ ـ كتاب الصوم: نحن نعلم أنّ الصائم يجب عليه الامتناع عن الطعام، والشراب، والجماع، والارتماس في الماء، وإدخال الغبار الغليظ إلى الفم، وغيرها من الأُمور الأُخرى. ويجب على كلّ مكلف بالغ صيام شهر واحد ـ أي شهر رمضان ـ من كلّ سنة قمرية إذا لم يكن له عذر. والصوم عموماً مستحبّ في غير شهر رمضان. ويحرم صيام يومين في السنة، وهما: عيد الفطر وعيد الأضحى. وبعض الأيّام صيامها مكروه، مثل يوم عاشوراء.

٦ ـ كتاب الاعتكاف: الاعتكاف لغة معناه الاقامة في موضع معين، وهو في الاصطلاح الفقهي عبارة عن نوع من العبادة التي يقيم خلالها الانسان في المسجد ثلاثة أيّام أو أكثر ولا يخرج منه، ويصوم هذه الأيّام الثلاثة.

لهذه الشعيرة شروط وأحكام ورد تفصيلها في كتب الفقه. والاعتكاف بحدّ ذاته مستحبّ وليس واجباً، ولكن إذا بدأه الانسان ومرّ عليه يومان يصبح في اليوم الثالث واجباً. ولابدّ أن يكون الاعتكاف في المسجد الحرام، أو في مسجد النبيّ صلّى الله عليه وآله، أو مسجد الكوفة، أو مسجد البصرة، أو على

أدنى الاحتمالات في المسجد الجامع لأيّة مدينة، وهو لا يجوز في المساجد الصغيرة. وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعتكف العشرة الأخيرة من شهر رمضان.

٧ـكتاب الحجّ: الحجّ هو الشعائر المعروفة التي يؤدّيها الحجّاج في مكّة وما جاورها، وترافقها عادة شعائر العمرة.

وأعمال الحج هي عبارة عن: الاحرام بمكّة، والوقوف بعرفات، والوقوف ليلاً بالمشعر، ورمي جمرة العقبة، والتضحية، والحلق أو التقصير، والطواف، وصلاة الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، وطواف النساء، وصلاة طواف النساء، ورمي الجمرات، والمبيت في منى.

٨ـكتاب العمرة: العُمرة نوع من الحجّ المصغّر. ولكن يجب على الحجّاج عادة أداء العمرة أوّلاً ثم الحجّ.

وأعمال العمرة عبارة عن: الاحرام في أحد المواقيت، وطواف بيت الله، وصلاة الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، والتقصير [١].

٩ ـكتاب الجهاد: يتناول هذا الكتاب قضية الحروب الاسلامية. فالاسلام دين اجتماعي ويحدّد المسؤوليات الاجتماعية. ولهذا فالجهاد ينبثق من صميم تعاليمه. والجهاد على نوعين: ابتدائي ودفاعي.

والجهاد الابتدائي في منظار الفقه الشيعي لا يكون إلّا بإشراف الرسول أو الامام المعصوم، ويجب على الرجال فقط.

أمّا الجهاد الدفاعي فيجب في جميع الأزمنة على جميع الناس رجالاً ونساءً.

والجهاد إمّا داخلي، أو خارجي، فإذا خرجت فئة على إمام المسلمين

---

(١) الفقه: ص٩٢.

المفترض الطاعة كما فعل الخوارج أو أصحاب الجمل أو أصحاب صفّين، يجب جهادهم، يتناول الفقه بالتفصيل أحكام الجهاد، وأحكام الذمّة، أي شروط قبول غير المسلمين كأتباع للدولة الاسلامية، وأيضاً حول الصلح بين الدولة الاسلامية والدولة غير الاسلامية.

١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بما انّ الاسلام دين اجتماعي، ويهتمّ بالمسؤوليات الاجتماعية، ويعتبر الأجواء المناسبة شرطاً أساسياً لتطبيق منهجه السماوي الذي يحمل السعادة لأبناء البشرية، لذلك فرض مسؤولية عامّة على جميع المسلمين، إذ فرض عليهم حراسة الفضائل ومحاربة المنكرات. وتُسمّى حراسة الفضائل «الأمر بالمعروف»، وتسمّى محاربة المنكرات «النهي عن المنكر». لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفقه الاسلامي شروطه وموجباته الخاصّة، وهي مسطورة في كتب الفقه[1].

▣ العبادة والعناوين الأوّلية والثانوية:

للفقهاء وعلماء الأُصول مصطلحات منها: العناوين الأوّلية والعناوين الثانوية، أي ما يذكرونه أحياناً بعنوانه الأصلي، مثل الصلاة، وهو العنوان الذي يطلق على هذا العمل، أو الاحسان إلى الناس، وهواسم لهذا العمل. ونقول: الزكاة اسماً لهذا العمل، وكذا الصوم، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والانفاق، والصدقة، والاخلاص و... إلخ.

ولكن الأعمال ـ كما تعلمون ـ تختلف باختلاف المواضع، وباختلاف الظروف الزمانية، وأحوال الشخص. فكيف يكون أمر ما واجباً عليك تارة، ومستحبّاً تارة أُخرى، ويكون المستحبّ نفسه متفاوتاً في ظروف أُخرى.

---

(١) الفقه: ص٩٦.

لنفترض مثلاً انّك مدين بمبلغ من المال لشخص آخر، وجاءك الدائن يريد استيفاء دينه، ويصر انّه محتاج ولابدّ من تسديد المبلغ حالاً. فتقول له: انتظر حتى أُصلّي ثم أدفع لك المبلغ، لكنّه يرفض ويقول: لا أنتظر، اعطني حقّي ثم صلّ.

أو لنفرض انّك وقفت للصلاة، وإذا بمريض في دارك في حالة خطيرة. فماذا تفعل إذا لم يكن وقت الصلاة قد فات؟ هل الصلاة في مثل هذين الموقفين عمل صالح؟ لا، بل تكون الصلاة عملاً صالحاً حينما تسدّد دينك أولاً ثم تقيمها.

ولكن إذا أخذت تجادله وتقول له: هل أنت أكبر أم الله؟ إنّ الله أكبر منك، فهل تريد منّي تأجيل دين الله وتسديد دينك؟ بل إنّي أُريد أن أُصلّي أوّلاً. هذا خطأ، وصلاتك هذه ليست عملاً صالحاً؛ لأنّ وقتها لم يكن قد فات بعد. سدّ دينك أوّلاً ثمّ صلّ. وكذلك الأمر في ما يتعلّق بالمريض، إذ عليك أوّلاً نقله إلى الطبيب، ثم تؤدّي صلاتك بعد ذلك.

هذا يطلق عليه اسم العنوان الثانوي، وهو متغيّر بتغيّر أحوال الأفراد، وبتبدّل الظروف الاجتماعية. فأنا مثلاً بدأت لظروف خاصّة بدراسة العلوم الدينية ـ سواء كنت مصيباً أم مخطئاً في انتهاجي لهذا السبيل ـ وتعلّمت هذه المعلومات البسيطة في الشؤون الدينية، وأنت مثلاً سلكت في منهج دراسة العلوم الطبية، ولم يعد أمامنا كلينا ـ ونحن في هذه السنّ ـ مجال للعودة إلى البداية لأبدأ أنا بدراسة الطب، وأنت بدراسة العلوم الدينية.

إنّ مهنة الطبّ ضروريّة للمجتمع، ومهمّة الارشاد الديني لها أهميتها

للمجتمع أيضاً. ولكن ما دو واجبي اليوم؟ واجبي هو أداء ما أستطيع أداءه بشكل جيّد. وواجبك أنت أداء ما تستطيع أداءه على أكمل وجه[1].

▣ العبادة والتكليف:

إنّ من جملة قابليات الانسان ـ كما أُشير من قبل ـ هي استعداده لتحمّل التكليف. فالانسان قادر على العيش في إطار القوانين التي وضعت له. وليس باستطاعة أيّ حيوان آخر ـ سوى الانسان ـ من الانقياد لقوانين غير القوانين الطبيعية الجبرية. إذ لا يمكن وضع قوانين للأحجار والأخشاب والأشجار والزهور، أو للفرس والبقر والغنم، وإبلاغها وتكليفها بالسير في إطار القوانين والمقررات التي وضعت لمصلحتها. وانّ هذه الموجودات حتّى وإن افترضنا انّ قانوناً يسنّ لمصلحتها فلابدّ وأن يطبق عليها بالاكراه والاجبار.

لكن الانسان هو الموجود الوحيد الذي يتّصف بهذه «الامكانية» و«القدرة» المدهشة، بحيث يسير في إطار سلسلة من القوانين التعاقدية. وبما أنّ هذه القوانين التعاقدية موضوعة من قبل شخص مفوّض الصلاحية وتفرض على الناس فرضاً، ولما كان تحمّل القانون لا يخلو من الصعوبة والمشقّة، لذلك سمّيت «تكليفاً».

فالمشرّع إذا أراد أن يضع على الانسان تكليفاً لابدّ له من مراعاة عدد من الشروط. وبعبارة أُخرى: يجب أن يتحلّى الانسان بعدد من الشروط ليتسنّى له إنجاز التكاليف الملقاة عليه.

أمّا الشروط الواجب توفّرها في جميع حالات التكليف فهي كما يلي:

---

(١) دروس من القرآن: ص٧٨.

١ ـ البلوغ :

حينما يبلغ الانسان مرحلة معيّنة من العمر تحصل تغييرات فجائية في بدنه ومشاعره أشبه ما تكون بالطفرة، وتسمّى بالبلوغ. واكلّ شخص في الحقيقة بلوغ طبيعي.

لا يمكن تجديد زمن معين بصورة دقيقة واعتباره أواناً لبلوغ جميع الأفراد. فبعض الأشخاص قد يصل مرحلة البلوغ قبل غيره. والصفات الفردية للأشخاص، وكذلك الظروف البيئية والمكانية، لها دور فاعل في تعجيل البلوغ أو تأخيره. أمّا الحدّ المتيقّن فهو انّ المرأة تصل إلى مرحلة البلوغ الطبيعي قبل الرجل. من الناحية القانونية يجب تحديد عمر معيّن واعتباره متوسّط سنّ البلوغ، أو الحدّ الأدنى لسنّ البلوغ ـ بالاضافة إلى شرط الرشد في الفقه الاسلامي ـ ليكون شاملاً لجميع الأفراد.

وبناءً على هذا، قد يصل البعض إلى مرحلة البلوغ الطبيعي، ولكنّهم لم يصلوا بعد إلى سنّ البلوغ القانوني. وبلوغ الرجل في الاسلام وفقاً لرأي أكثرية علماء الشيعة قد تحدّد من حيث السنّ عند إتمام السنة الخامسة عشر من عمره ـ بالسنة القمريّة ـ ودخول السادسة عشر. وبلوغ المرأة تحدّد عند إتمام السنة التاسعة والدخول في العاشرة. والبلوغ القانوني أحد شروط التكليف، أي انّ الشخص الذي لم يبلغ المرحلة القانونية غير مكلّف إلّا أن يثبت بالدليل انّه قد وصل مرحلة البلوغ الطبيعي قبل مرحلة البلوغ القانوني.

٢ ـ العقل :

الشرط الآخر في التكليف كون الشخص عاقلاً. فالمجنون غير مكلّف، وتسقط عنه جميع التكاليف. كما ان غير البالغ لا يكلّف قبل البلوغ. ولا يجب عليه بعد البلوغ قضاء ما فاته قبل البلوغ. فالبالغ مثلاً لا يكلّف بقضاء الصلوات

التي لم يؤدّها قبل البلوغ ؛ لأنّه لم يكن مكلّفاً حينها .

والمجنون أيضاً غير مكلّف حال الجنون ، وإذا عقل بعد مدّة لا يكلف بقضاء ما فاته في أيّام جنونه ؛ فلا يجب عليه مثلاً قضاء ما فاته من صلاة وصيام حينذاك .

نعم ، بعض التكاليف تتعلّق بأموال الصغير أو المجنون ، إلّا انّهما غير مكلّفين بأدائها . ولكن إذا بلغ الصغير أو عقل المجنون وجب عليهما أداء ما على تلك الأموال كالزكاة أو الخمس في مالهما . فإذا لم يكن وليّهما الشرعي قد أدّاه ، وجب عليهما أداؤه بعد الوصول إلى مرحلة التكليف .

٣ ـ الاطلاع والوعي :

من البديهي انّ الانسان يكون قادراً على أداء التكليف عندما يعلم بوجوده ، أي عندما يبلّغ به .

وإذا فرضنا انّ المشرّع سنَّ قانوناً ولم يبلّغ المكلّف به ، فالمكلّف غير ملزم بتطبيقه ، بل وهو غير قادر على تطبيقه . وإذا قام بما يخالف ذلك لا يحقّ للمشرّع معاقبته .

وعلماء الأُصول يقولون بقبح من لا يعلم بالتكليف ، ولم يقصّر في كسب الاطّلاع ، وسمّوا هذا الأصل : «قبح العقاب بلا بيان» .

وقد أكّد القرآن مراراً على هذه الحقيقة ، وهي انّنا لا نعذّب قوماً على مخالفة القانون إلّا بعد إتمام الحجّة عليهم . أي انّنا لا نعاقبهم بلا بيان .

وبالطبع فإنّ شرط العلم والاطّلاع من أجل التكليف بالنحو المذكور لا يستلزم أن يبقي الإنسان نفسه في حالة من الجهل ويتصوّره عذراً لنفسه . فالإنسان مكلّف بكسب العلم والاطلاع ، ثم ممارسة عمله ونشاطه وفقاً لمعرفته .

وجاء في الحديث انّ بعض المذنبين يؤتى بهم يوم القيامة إلى محكمة العدل الإلهية، ويحاسبون على تقصيرهم في أداء واجباتهم.

فيقال للمذنب: مامنعك من اداء واجبك؟ فيقول: ما كنت أعلم.

فيقال له: ولِمَ لم تعلم، ولم تكسب المعرفة؟

إذن فالمراد من قولنا انّ العلم والاطّلاع شرط في التكليف إنّما يصدق فيما إذا لم يبلّغ المكلّف بتكليفه، ولم يكن له تقصير في هذا الجانب. أي انّه بذل الجهود اللازمة لكسب العلم ولكنّه لم يفلح في نيله. فالمكلّف في مثل هذه الحالة معذور أمام الله.

٤ـ القدرة والتمكّن:

يكلّف الإنسان عادة بالعمل الذي يتمكّن من إنجازه. ومن غير الممكن تكليفه بما لا يطيق. لا شكّ أنّ طاقات الإنسان محدودة. ولما كانت الطاقات محدودة، لابدّ وأن تكون التكاليف في حدود الطاقات.

فالإنسان ـ مثلاً ـ قادراً على كسب العلم والمعرفة، ولكن في حدود معيّنة، من حيث المدّة الزمنية، وسعة المعلومات. ومهما كان الشخص عبقريّاً فهو ملزم بطيّ مدارج العلم والمعرفة على مرور الزمن.

ولو أرغموا شخصاً على تعلّم المعلومات التي تستلزم سنوات متمادية من الدراسة في ليلة واحدة، فهو إنّما يكلّف بما لا يطاق. أي يكلّف بما فوق طاقته وقدرته.

وإذا أُرغم إنسان على تعلّم كلّ علوم الكون فهذا أيضاً تكليف بما لا يطاق، وهو غير صحيح. ومثل هذا الحكم لا يصدر عن حكيم عادل أبداً. قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها﴾[1].

فإذا كان شخص يصارع الموت غرقاً، وكانت لدينا القدرة على إنقاذه يجب علينا إنقاذه. ولكن لو كانت طائرة في حالة سقوط، وليس باستطاعتنا الحيلولة دون سقوطها بأيّ وجه كان، يسقط عنّا التكليف. أي لا يؤاخذنا الله على عدم سعينا في إنقاذها.

وهنا ثمة نقطة جديرة بالملاحظة وهي كما ذكرنا في باب الاطّلاع والوعي انّ اشتراط التكليف بالعلم والاطّلاع لا يستلزم التنصّل عن كسب العلم والاطّلاع، فكذا اشتراط التكليف بالقدرة لا يبيح للمرء عدم السعي لكسب القدرة .ففي بعض الحالات يحرم التفريط بأسباب القدرة، ويكون اكتسابها واجباً.

نفرض انّنا أصبحنا في مواجهة عدوّ قويّ يبغي العدوان علينا أو على حياض الاسلام، ولا نملك حالياً مقوّمات القدرة على مجابهته، وأيّة مجابهة قد تؤدّي إلى هدر الطاقات دون الحصول على طائل من ورائها لا حالياً ولا مستقبلياً. فمن البديهي انّنا غير مكلّفين بالمجابهة في مثل هذه الحالة. لكنّنا مكلّفون على الدوام بنيل أسباب القوّة لكي لا يكون موقفنا في مثل هذه الحالات موقف المتفرّج.

جاء في القرآن الكريم:

﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾[2].

وكما انّ الفرد أو المجتمع غيرالمطّلع أو المتهاون في الحصول على

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

الاطّلاع يؤاخذه الله تعالى، ولا يعذره على عدم اطّلاعه، فكذلك الفرد أو المجتمع العاجز أو المتهاون في كسب أسباب القوّة يؤاخذه الله على عدم سعيه للحصول على مقوّمات القوّة، ولا يعتبر عجزه عذراً له.

٥ـ الحرّية والاختيار:

الحرّيّة والاختيار شرط آخر من شروط التكليف، أي انّ الإنسان عندما يكون مكلّفاً بإنجاز واجب ينبغي أن لا يكون هناك أيّ إجبار أو إكراه. وإذا كان هناك اضطرار أو إكراه في الأمر يسقط التكليف.

والاكراه معناه أن تكون هناك قوّة قاهرة تفرض على المرء أن يبطل صومه ـ مثلاً ـ، وإذا لم يفطر تتعرّض حياته للخطر. ومن البديهي أنّ تكليف الصوم يسقط في مثل هذه الحالة.

أو إذا كان شخص مستطيعاً وأراد الذهاب إلى الحجّ، إلّا انّ جبّاراً هدّده بأنّه إذا ذهب إلى الحجّ فسيتعرّض هو أو أحد ذويه للخطر.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«رفع ما استكرهوا عليه»[1].

أمّا الاضطرار فليس معناه أن يتعرّض الانسان للتهديد من قبل شخص آخر، بل انّه هو الذي يختار بذاته، إلّا انّ هذا الاختيار جاء نتيجة لظروف عسيرة، كمن بقي في الصحراء جائعاً لا يجد ما يسدّ به رمقه سوى الميتة؛ ففي مثل هذه الحالة يسقط عنه تكليف حرمة أكل الميتة...

إذن الفرق بين الاكراه والاضطرار هو انّ الإنسان في حالة الاكراه يتعرّض للتهديد من قبل قوّة مستلّطة تفرض عليه القيام بعمل معيّن؛ وإذا امتنع يلحقه أذىً فاحش. فيجد نفسه مجبراً على العمل خلافاً للتكليف من أجل دفع

---

(١) الجامع الصغير: ج ٢، ص١٦.

الضرر عن نفسه.

أمّا في حالة الاضطرار فلا وجود للتهديد، بل الظروف هي التي تفرض عليه وضعاً غير مرغوب فيه، فيضطرّ حينها للتصرّف خلافاً لتكليفه الأساسي، بغية التخلّص من تلك الحالة، أو من ذلك الوضع.

إذن فالفارق بين الاكراه والاضطرار يقع في جهتين، هما:

١ ـ في حالة الاكراه يكون هناك تهديد للانسان، بعكس الاضطرار.

٢ ـ في حالة الاكراه يبحث الإنسان عن حلّ للتخلّص من ذلك الوضع المحرج، وفي حالة الاضطرار يبحث عن حلّ لذلك الوضع[١].

◘ عبادة الطفل:

هنالك بحثان في باب عمل الطفل: أحدهما في عباداته، والآخر في معاملاته. فعبادة الطفل المميّز غير البالغ صحيحة حتى وإن لم يكن مكلّفاً. وكما تعلمون أنه تعرض في صلاة الجماعة هل الصلاة التي يؤدّيها الطفل صلاة صورية وظاهرية ولأجل تربيته وتأديبه وإعداده للمستقبل، أم هي صلاة حقيقيّة وصحيحة؟

إذا قلنا: إنّ صلاة الطفل تمرين فقط، ولا حقيقة لها، وبما انه يجب أن تكون صفوف صلاة الجماعةمتواصلة، فإذا كان هناك طفل بين بالغين أو بين الامام والمأموم، فالصلاة باطلة؛ لأنّ صلاته صورية غير حقيقية.

أمّا إذا قلنا: إنّ صلاة الطفل صلاة حقيقية، فبإمكان الطفل أن يكون صفّاً أو جزءاً من الصفّ. ولا توجد في باب العبادات أية شبهة تقريباً في انّ عمل الطفل صحيح.[٢]

---

(١) [illegible] لّفات الكاملة: ج٢ (مقدّمة على النظرة الكونية): ص١٩٢.

(٢) [illegible] ربا وبانك وبيمه: ص٢٩٤.

دافع العبادة

ثمّة قضية في باب العبادة يتحتّم علينا ذكرها هنا، وهي قد يقول القائل: إنّ الأديان ـ أو على أدنى الاحتمالات الدين الاسلامي الذي نتحدّث عنه، ومع كونه ديناً يُعنى بآفاق المناجاة ـ لو تول أي اهتمام لهذا الشعور. والعبادة التي جاءت في الأديان لا شأن لها بهذا الجانب؛ فهي إمّا جاءت طمعاً، وهو ما تنبغي محاربته، أو جاءت خوفاً، وهو ما يستوجب القضاء عليه.

العبادة في الأديان ليست سوى معاملة؛ لأنّها تحثّ الناس على العبادة إمّا لأجل الجنّة أو للهرب من النار.

فإذا فرضنا أنّ شخصاً صلّى لأجل الجنّة، فما هي الجنّة؟ الجنّة هي المكان الذي تتوفّر فيه أنواع الملذّات، وفيها الحور والقصور، هي **﴿جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾**، وفيها مختلف الفواكه، وأنماط الطعام، وشراب لا يثمل الشاربين، وغيرها من النعم والملذّات الأُخرى التي لا يستطيع الإنسان تصوّرها.

إذن فمن يترك لذائذ الدنيا لنيل لذائذ الأُخرى ليس عابداً لله، ولا تتعمّق في ذاته مشاعر الاتّصال بالله، وليس هذا فحسب، بل وانّه أكثر جشعاً من عبيد الدنيا؛ لأنّ عابد الدنيا يقنع بهذه اللذائذ المادّيّة المحدودة، أمّا هو فلديه حسابات دقيقة مفادها أن يتغاضى عن لذّة السنوات الثلاثين أو الأربعين التي

يقضيها في هذه الدنيا لأنّها ليست ذات شأن، وستنقضي بشكل أو آخر، ولابدّ من الصبر عليها بأيّ نحو كان لننال هناك تلك اللـذّات إلى أبـد الآبـدين. إذن فالمحفّز له في عمله هذا هو الطمع لا شيء غيره.

وكذلك الحال أيضاً بالنسبة لمن لا يعصي الله هرباً من النار؛ فهو يعبد الله أو يترك اللذّة لكي لا يعاقب. وهذا أيضاً أمر لا يتعدّى حدود النفعية. وهذا يعني أنّ الأديان لم تعط الاهتمام المطلوب للعبادة. وهذا ما دفع المسيحيّين خاصّة لانتقاد الديانة الاسلامية بسبب ما توليه من اهتمام وفير للنعم المادّية. وربّما يُستشف من تعابيرهم انّهم يقولون إنّ القرآن يركز على النعم الماديّة لهذه الدنيا فقط. وعلى هذا فهو لم يلتفت لمشاعر العبادة التي يعتبرها علم النفس مشاعر سامية، وركّز على العكس من ذلك على دوافع الطمع عند الانسان.

وهذا الانتقاد غير وارد قطعاً؛ لأنّنا نعلم أنّ للعبادة في الاسلام درجات ومراتب، وإحدى درجاتها الطمع بالجنّة، وإحدى درجاتها أيضاً الخوف من النار. وثمة أيضاً مراتب أعلى في العبادة ليس هدفها نيل الجـنّة ولا اجـتناب النار. وهذا ما أكّد عليه القرآن نفسه، وأشارت إليه كلمات الرسـول والأئـمة الأطهار بكثرة. وأكثرها شهرة الجملة الواردة في نهج البلاغة، وفـي كـلمات الرسول صلّى الله عليه وآله وفي الأقوال المنقولة عن الامـام الصـادق عـليه السلام.

وعلى كلّ حال فهذه الجملة ليست جديدة. فقد قالها أمير المؤمنين عليه السلام ونقلها السيّد الرضي في نهج البلاغة الذي مرّ على تأليفه ألف سنة، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ قوماً عبدوا الله طمعاً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله خوفاً

فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً (حبّاً) فتلك عبادة الأحرار».[1]

فالأول عبد طمعه، والثاني عبد خوفه، والثالث متحرّر من قيود الخوف والطمع؛ فهو عبدالله وحده.

وجاء أيضاً حديث بهذا المضمون ولابدّ انّه طرق أسماعكم، وهو انّ الرسول كان ينهض للعبادة ليلاً، فهو أحياناً كان يتهجّد ثلثي الليل، وأحياناً نصفه، وأحياناً ثلثه[2].

ولمّا رأت عائشة أنّه يكثر من قيام الليل ويطيل الوقوف حتى تورّمت قدماه، قالت له يوماً: لماذا تكثر من العبادة، ألم يقل عنك الله: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر**﴾[3]؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟

ومن جملة كلمات الرسول في باب القيمة المعنوية للعبادة هي قوله:

«أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها»[4].

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٢٩ مع اختلاف ضئيل.

(٢) لابدّ وأن الحالات كانت تختلف؛ فحينما تكون لديه مشاغل كثيرة كان يقوم قسماً أقلّ من الليل، ولكن في كلّ الأحوال لم يكن قيامه ينقص عن ثلث الليل، وحينما يكون لديه مزيداً من الوقت والفراغ كان قيامه يمتدّ إلى ثلثي الليل.

(٣) سورةالفتح: ٢.

(٤) نادراً ما وردت كلمة «العشق» في النصوص الاسلامية. ولهذا السبب قال البعض بوجوب عدم استعمال هذه الكلمة ويؤاخذون الشعراء للاكثار من استعمالها، ويحبّذون استعمال كلمة الحبّ بدلاً منها. وردّ عليهم آخرون بالقول انّ هذه الكلمة وردت في النصوص الدينية بندرة ولا يمكن القول انّها لم تستخدم قطّ. ومن جملةموارد استخدامها هوالمورد الذي أشرت إليه أعلاه. والمورد الآخر هي الجملة المنقولة عن أمير المؤمنين عندما مرّ على أرض الطفّ عند ذهابه إلى صفّين أو عند عودته منها وهذا التردّد منّي أنا أخذ حفنة من ترابها بقبضته وشمّه ثم قال:

«واهاً لك أيّتها التربة؛ هاهنا مناخ ركاب ومصارع عشّاق». =

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً: «**طوبى لمن عشق العبادة وأحبّاً بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها**». وكلمة «تفرّغ» مأخوذة من الفراغ أي الخلوة، أي يخلي نفسه من كلّ شي إلّا العبادة، وحينما يقوم للعبادة يخلو قلبه من كلّ فكرة، ولا يبقى إلّا هو وربّه. وهذا هو جوهر العبادة.

جوهر العبادة هو الذكر، والانقطاع إلى الله؛ حيث ينقطع الانسان حين العبادة عن كلّ ما سوى الله، وكأنّ العالم ليس فيه إلّا هو والله. وهذه هي الحالة التي يعبّر عنها الشعراء العرفانيون باسم «الحضور»؛ قال الشاعر الايراني حافظ في هذا المضمار:

نه حافظ را حضور درس خلوت   نه دانشمند را علم اليقيني

لا حافظ حظي بدرس الخلوة   ولا العالم نال علم اليقين

وإنّما يقصد حافظ من الحضور والخلوة هنا هو حضور القلب. وإذا لاحظتم انّ البعض يولي اهتماماً للخلوة الظاهرية فلأجل التمهيد لخلوة القلب. وبعد تحقّق خلوة القلب ينزل إلى ميدان المجتمع ليمارس نشاطه الاجتماعي مع الاحتفاظ بخلوة القلب.

قيل: إنّ نابليون قال مرّة: «إنّ عقلي مثل صناديق العطّار أفتح منها ما أشاء، وأُغلق ما أشاء». ويجب أن يكون الانسان على هذه الشاكلة أيضاً بحيث يستطيع وقت العبادة الخلوة مع ربّه.

(القلب لا مجال فيه لحديث الأضداد، فما أن يخرج الشيطان حتى يرد الملاك)

= ثم قال جملة يُستفاد منها انّه كان يقصد واقعة كربلاء.

ثم يشكو ـ ولعلّه في الحقيقة يشكو من ذاته ـ من زيارة حكّام زمانه بين الفينة والأُخرى ويقول:

صحبت حكام ظـلمت شب يـلدا   نور ز خورشيد جوى بو كه بر آيد
بـــر در اربـاب بـي مـروت دنـيا   چند نشينى كه خواجه كى بدر آيد

(مرافقة الحكّام كليل طالت ظلمته، فمتى تطلّ علينا الشمس بنورها؟)
(فحتى متى تجلس على أبواب ملوك الدنيا القساة إلى أن يخرج الملك؟)

وهم كثيراً ما يستخدمون كلمة «المتسوّل» ومرادهم بها الفقر ازاء المرشد الكامل، أي أنّه فقير إليه، فقير إلى الله. ولكن بما انّـهم يـعتقدون انّ المـرء لا يتسنّى له قطع أيّ شوط بدون وجود المرشد، إنّما يقصدون من كلمة «المتسوّل» أي الفقر أمام الإنسان الكامل. فيقول:

ترك گدائى مكـن كـه گـنج بـيابي   از نظر رهـروى كـه در گـذر آيـد
صالح وطالح متاع خويش نمودند   تا كه قبول افتد وكـه در نـظر آيـد
بلبل عاشق تو عمر خواه كه آخـر   باغ شود سبز وشاخ گل به برآيـد

(لا تترك المتسوّل عسى أن تنال كنزاً من عابر سبيل).

هنيئاً لمن يخلي قلبه للعبادة، ويتفرّغ لها.

ثمّ يواصل الرسول صلّى الله عليه وآله القول: «**فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عُسر أم على يُسر**»[1]. أي انّ الانسان إذا بلغ هذه المرحلة من اللذّة لا يأبه بعدها لهموم ومصاعب الدنـيا، حـتى وإن لقـي أشـدّ أنـواع التعذيب، ولا يبالي حتّى وإن قطّعوه.

إنّ شدائد الدنيا عصيبة على الناس الذين لم يذوقوا لذّة العـبادة. ومـن يتذوّق لذّة العبادة لا يبالي لأمثال هذه الأُمور.

---

(١) التعليم والتربية في الاسلام: ص٣٢٧.

إنّ مما يثير الدهشة فينا كيف كان علي بن أبي طالب يعيش في الدنيا على تلك الشاكلة، لكنّه بلغ في عبادته مرحلة لا يبالي معها لمصاعب الدنيا[1].

لنأت الآن إلى العبادة التي تؤدّى طمعاً في الجنّة أو خوفاً من النار؛ أهي عبادة عديمة القيمة حقّاً؟ أهي كما يقال جشع وبطنة؟ وعبادة للذّات؟ وأسوأ من عبادة الدنيا مائة مرّة؟ أبداً، ولا تجوز الاساءة إليها إلى هذا الحدّ.

لاريب في أنّ العبادة التي يأتي بها المرء طمعاً بالجنّة وخوفاً من النار لا تضاهي أنواع العبادة التي ذكرناها. ولكنّها لا تخلو من قيمة، وتمثّل بالنسبة لبعض الناس درجة رفيعة. لأنّ ثمة فارق بين أن يؤدّي الإنسان عملاً بدافع الطمع مباشرة [وبين أن يجعل الله واسطة في ذلك العمل]؟ كأن يلهث المرء تارة وراء النقود مباشرة؛ فهذا يسمّى عبادة المال مائة بالمائة، أو أنّه يطلب المال تارة أُخرى، ولكن يطلبه من الله. فالفرق شاسع بين أن يقطع الإنسان صلته بالله ويسعى وراء المال مباشرة، وبين إنسان آخر يعمل بما أمره الله ويطلب منه المال. فهذه بحدّ ذاتها درجة من درجات عبادة الله.

فالمثول بين يدي الله ـ ولو من أجل المال ـ يختلف عن عدم المثول بين يديه. المثول بين يدي الله له قيمة بالغة الأهميّة. والمثول بين يديه لأجل غاية أو غرض، مثول أيضاً على كلّ الأحوال، ويؤدّي إلى إنارة قلب الإنسان إلى حدّ ما؛ فتصفو نفسه، ويتوجّه إلى الله، وينسى ما سواه. وهذه طبعاً درجة من العبادة وإن كانت درجة ضعيفة.

وانطلاقاً من هذا البيان لا يمكن رفض هذه العبادات كلّياً، بل بما أنّ أكثرية الناس ليسوا بدرجة عالية، وإذا أردنا تربيتهم بشكل يصلح نظام حياتهم الدنيوية ويقرّبهم إلى الله يتعيّن علينا الدخول من هذا المدخل، أو إدخال الناس

---

(١) المصدر السابق.

عبر هذا الطريق على أدنى الاحتمالات، ثم الارتفاع بهم إلى درجات أعلى. وهذا هو سبب اهتمام القرآن بالشؤون المادّية. والقرآن طبعاً يتضمّن أيضاً ﴿رضوان من الله أكبر﴾[1]. عندما يذكر ﴿جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ يقول بعدها: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾.

أي انّ من يعبد الله لنيل رضاه له شأن آخر. ولكن ليس كلّ الناس يبحثون عن ﴿رضوان من الله أكبر﴾، بل أقلّية قليلة من الناس البارعين.

والطريق العملي لأكثرية الناس هو الحديث عن الجنّات الحافلة باللذائذ الجسديّة. والقرآن حينما عرض هذا لم يستهدف تربية الناس وكفى، بل أكّد من جانب آخر انّه لا يأتيه الباطل حتى وإن كانت في ذلك الباطل مصلحة، لكي لا يتوهّم أحد ـ والعياذ بالله ـ أنّ القرآن عرض هذا في سبيل دفع الناس لعمل الخير؛ فغايته نبيلة، وما دامت الغاية نبيلة فلا بأس عليه أن يقول ما يشاء ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾.

من المحال أن يكون في كلام الله لغو أو باطل، حتّى وإن توهّم أحد انّ هذا الكذب والباطل من أجل مصلحة اجتماعية. أبداً، فحديث القرآن عن اللذّات الجسدية في الجنّة حقيقي. انّ أكثر الناس أساساً لا يرتقون أعلى من حدّ اللذّات الجسديّة. وهذا هو سبب نشأتهم بمثل هذه النشأة. أمّا الذين يرتقون أكثر من هذا فيرتقون في نشأة أعلى من الجنّة الجسدية[2].

▣ روح العبادة:

أعطى الاسلام أهميّة كبرى لروح العبادة بما تعنيه من علاقة بين العبد وربّه، ومحبّة الله، والانقطاع إليه ـ وهي أكمل أنواع العبادة ـ ولا شكّ أننا جميعاً

---

(١) سورة التوبة: ٧٢.

(٢) التعليم والتربية في الاسلام: ص٣٣٨.

بالجملة المشهورة المنقولة عن أمير المؤمنين عليه السلام وهي قوله: **«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»**[1].

ودعاء كميل ينم من أوّله إلى آخره عن روح عالية من المناجاة والخشوع، من غير أن تلاحظ فيه طمعاً بالجنّة ولا خوفاً من النار، وحتّى ان جاء ذكره فقد جاء استطراداً ضمن السياق العام لبحوث أُخرى. تتضمّن الأدعية الاسلامية مضامين في غاية السموّ من جملتها الدعاء المنقول في مفاتيح الجنان باسم «المناجاة الشعبانية».

وجاء في الروايات انّ أمير المؤمنين وأبناءه عليهم السلام كانوا يقرأون هذا الدعاء. ومن المؤكّد انّ الدعاء الذي يقرأه الأئمة دعاء في منتهى السموّ والعظمة. والانسان حينما يقرأ هذا الدعاء يدرك حقيقة جوهر المناجاة في الاسلام، إذ لا تجد فيها سوى التبتّل ومحبّة الله والانقطاع إليه؛ أي انّها زاخرة بالمعنويات التي يصعب علينا حتّى تصوّر معانيها:

«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ نورك الأبهج فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً».

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة لدعاء «أبو حمزة الثمالي»، ومناجاة الامام السجّاد عليه السلام المسمّاة بالمناجاة الخمسة عشر والّتي وردت في كتاب مفاتيح الجنان أيضاً وهي: مناجاة الخائفين، ومناجاة الذاكرين، ومناجاة الطالبين و... إلخ. وهي على درجة عالية من الرقّة والشفّافية بحيث تدهش

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٤، الباب ١٠١ مع اختلاف ضئيل.

المرء. ونهج البلاغة يتضمّن الكثير من هذه المواضيع أيضاً[1].

والعبادة في نهج البلاغة ليست سلسلة من الأعمال الجافّة الجامدة فقط، بل انّ العمل البدني هو صورة العبادة وجسمها، وجوهرها شيء آخر. والعمل البدني إنّما يتلبّس بالروح ويستحقّ اسم العبادة فيما لوحظي بذلك الجوهر المعنويّ لها. والعبادة الحقّة هي نوع من الانتقال من هذا العالم ذي الأبعاد الثلاثة إلى عالم آخر مليء بالحركة والنشاط والخواطر القلبية واللذّات الروحية الخاصّة.[2]

كان علي عليه السلام عندما ينتهي من شؤون الناس يبقى هو وربّه، ومناجاته، وتضرّعه، وتبتّله. يقول عليه السلام في «نهج البلاغة»: «**اللّهمّ إنّك آنس الآنسين لأوليائك، واحضرهم بالكفاية للمتوكّلين عليك، تشاهدهم في سرائرهم، وتطّلع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم؛ فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة**»[3].

اقرأوا دعاء كميل، وهو دعاء علي عليه السلام في ليالي الجمعة؛ فهو من حيث المضمون من أسمى مراتب الدعاء. فإذا قرأتموه من أوّله إلى آخره لا تجدون فيه أيّ ذكر للدنيا ولا للآخرة ـ أعني بالآخرة الجنّة والنار ـ. فماذا تجدون فيه إذن؟ تجدون فيه أُموراً فوق الدنيا وفوق الآخرة، وعلاقة بين الله وبين عبد مخلص، واله، منقطع إلى الذات الإلهية، اي حقيقة العبادة، وهو نفسه يقول: إنّ هذه هي العبادة الحقّة.

لاحظوا كيف يناجي علي ربّه في دعاء كميل. ولاحظوا كيف يناجي زين العابدين ربّه في أسحار شهر رمضان بدعائه المعروف بدعاء «أبو حمزة

---

(١) العليم والتربية في الاسلام: ص ٣٣٤.

(٢) في رحاب نهج البلاغة: ص ٩١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٥.

الثمالي». هذه هي الخطوة الأُولى في الاسلام؛ الخطوة الأُولى تعني التقرّب إلى الله، ومن خلال التقرّب إلى الله يتسنّى لنا أداء سائر مسؤولياتنا ومنها مسؤوليّاتنا الاجتماعية. ولنحاول التخلّي عن الميول ذات البُعد الواحد فلطالما أُصيب الاسلام بآلام هي النزعات ذات البعد الواحد ـ لكي لا يتعرّض الدين لأمراض النزعات ذات البعد الواحد[1].

◙ شكل العبادة:

لحياة الانسان جانب عام ثابت له حكم مدار الحركة، ولها جانب متغيّر له حكم مراحل الحركة ـ مثلما انّ كلّ كوكب ثابت ومتحرك. والمراد بالمتحرّك انّه لا يبقى خلال لحظتين في نقطة واحدة. والمراد بالثابت انّه مداره أو مسيره ثابت، فهو لا يتخلّف عن مداره ملّيماً واحداً، بل يدور في نطاق مساره ـ فالظروف التي تحدّد المدار في حياة الانسان ـ أي تحدّد له مسار حركته ـ لابدّ وأن تبقى ثابتة. أمّا المتعلّق منها بمرحلة الحياة، فلا مناص من تغيّرها.

وهنا ينبغي لنا النظر هل اهتمّ الاسلام بمسار حياة الانسان ومدارها وبالقطب الثابت من الحياة والحركة، أم بالجانب المتحرك منهما؟

اُلاحظ انّ سلسلة من قوانيننا المتعارفة هي قوانين مدارية لا قوانين مرحلية. وكنّا قد ذكرنا انّ أحكام الاسلام اما انّها تعالج علاقة الانسان مع ربّه، أو هي تعالج علاقته مع ذاته، أو علاقته مع الطبيعة، أومع بقية أفراد المجتمع.

علاقات الانسان بربّه ما دامت ذات صلة بالله فهي غير خاضعة للتغيّر، وما يرتبط بعلاقة الانسان مع ذاته، فان ما يمثل الجوهر فيه غير خاضع للتغيّر أيضاً، بل قد تطرأ تغييرات على شكلها الظاهري وهذا خاضع للظروف. ونحن

---

(١) الانسان الكامل: ص١١٢.

نلاحظ انّ الاسلام قد أقرّ هذه التغييرات، كالصلاة مثلاً، فهو يقول: صلّوا؛ ثم يقول: صلّوا من قيام، فإذا لم تستطيعوا فصلّوا من جلوس، وإذا لم تستطيعوا فصلّوا على الجنب الأيمن، وإذا لم تستطيعوا صلّوا على الجنب الأيسر، وإذا لم تستطيعوا فصلّوا مستلقين، وإذا لم تستطيعوا فصلّوا بالاشارة. فكلّما تغيّرت الظروف يتغيّر هيكل العبادة.

يعتقد الفقهاء انّ صلاة الغرقى صلاة حقيقية لا انّها شيء آخر بدل الصلاة؛ أي انّ الانسان الذي يحاول النجاة من الغرق ويؤدّي صلاته وهو في تلك الحالة بالاشارة فقط ـ أي لا ركوع فيها ولا سجود ولا قراءة ولا أيّ شيء آخر ـ تعتبر صلاته صلاة حقيقية.

إنّ ماهية الصلاة هو جوهرها الذي لا يتغيّر مهما تغيّرت صورتها؛ أي انّ الركوع والسجود وغيرهما يمثّلان شكل الصلاة لا جوهرها. والصلاة التي تتألّف من ركعتين صلاة حقيقية وليست بديلة عن الصلاة الرباعية، مثلما انّ الصلاة الرباعية صلاة حقيقية. أي قد تكون صلاة الشخص رباعية، وصلاة شخص آخر ثنائية، وصلاة شخص آخر من جلوس، وصلاة غيره من قيام، وصلاة غيره بالوضوء، وصلاة غيره بالتيمّم.

لدى الفقهاء مسألة تسمّى «الاجزاء» وهي هل صلاة الاضطرار تجزي عن الصلاة التي يجب أن نؤدّيها اختياراً، أم لا؟ وإذا صلّيناها هل تجب علينا الاعادة أم لا؟ ويقولون: إنّ الصلاة التي تؤدّى بالتيمّم هي صلاة حقيقية، ولا يحكمون بأنّها ليست صلاة أو انّها باقية في ذمّة الانسان. فقد تكون صلاة هذا الانسان بالوضوء، وصلاة ذلك بالتيمّم؛ فإذا أدّاها بالوضوء لا تقبل منه. وكلّما تغيّرت الظروف ـ كما ذكرنا ـ تتغيّر بعض الجوانب المتعلّقة بالانسان في مجال صلته بربّه. وضربنا لها مثلاً بقضيّة الصلاة.

المثال الآخر هو السفر. في القديم كانوا يقولون: «السفر ما تعدّى الأربعة فراسخ». ولكن بعدما تغيّرت الظروف اليوم عرضت شبهة وهي: لماذا السفر أربعة فراسخ؟ طبعاً لا يقطع أحد مائة بالمائة انّ المسافة التي يقطعها الصائم ويفطر أو يصلّي قصراً هي أربعة فراسخ؛ وهذا مجرّد مسألة اجتهادية وتناولها الفقه الشيعي (أحاديث الشيعة)، بثلاث صور: سألوا: كم المسافة التي يقطعها المسافر ويصلّي قصراً؟ فكان الجواب تارة: مسير بريد؛ أي المسافة التي يقطعها البريد في يوم واحد. وجاء في الروايات تارة أُخرى «مسيرة يوم»، بمعنى المسافة التي تستغرق يوماً. والصورة الأُخرى هي أربعة فراسخ.

قال الفقهاء: أحد هذه الحالات الثلاثة ملاك؛ أي إمّا يكون أربعة فراسخ، أو مسير بريد، أو مسيرة يوم. احتمال مسير البريد ضعيف جدّاً. والملاك هو امّا مسيرة يوم، أو أربعة فراسخ ذهاباً وإياباً. وكانت الثمانية فراسخ تساوي مسيرة يوم.

ولكن لو تغيّر الوضع، وغدت مسيرة اليوم الواحد ليست ثمانية فراسخ، بل مائة فرسخ أو مائتي فرسخ، يحتمل بقاء الملاك الأصلي في السفر «مسيرة يوم». لقد قالوا يومذاك ثمانية فراسخ، لأنّ هذه المسافة كانت مصداقاً لمسيرة اليوم الواحد. أمّا إذا تغيّرت وسائط السفر وبلغت المسافة التي تطوى في مسيرة يوم واحد ثمانين فرسخاً أو ثمانمائة فرسخ، أو ثمانية آلاف فرسخ يجب أن نتقيّد نحن بـ«مسيرة اليوم الواحد». وإذا عرض أحد مثل هذا الرأي فلا يعني أنّه مناهض للاسلام، بل هو رأي اجتهاديّ.

أجل، هنا ثمة قضية لا يصرّ عليها الفقهاء كثيراً، وهي أنّ المسائل التي أقامها الاسلام على السهولة والتسامح يحتمل أن يعمّم حكمها على عامّة الناس في كلّ زمان، حتى وإن كانت في يوم ما ملاكاً لعدد من الناس. لأنّ البناء لا

يقوم على التشدّد، ولو كان البناء قائماً على التشدّد لقلنا به.

ولكن حينما يكون البناء قائماً عل التسامح يحتمل أن يقرّ الاسلام المسافة نفسها التي كان الناس يقطعونها سيراً على الأقدام «مسيرة يوم واحد» ويجعلها ملاكاً للناس الذين يسافرون على دوابّ سريعة ويقطعون بواسطتها خمسين فرسخاً في اليوم الواحد، أو الذين كانوا يسافرون بواسطة السفن ويقطعون مسافة تفوق طبعاً المسافة التي يقطعها المسافر مشياً، أو الذين كانوا يسافرون على خيول سريعة يبدّلونها أثناء المنازل ويقطعون بها مسافة تربو على المسافة الآنف ذكرها بكثير، أو الناس الذين يسافرون اليوم بالطائرة أو بالسيّارة[1].

◙ العبادة والعادة:

يرى علماء النفس انّ الانسان إذا اعتاد أمراً ما تتكوّن لديه خاصّيّتين متعاكستين تجاهه. فهو كلّما ازدادت مدّة تعاطيه مع تلك العادة وكثرت مزاولته لها، يصبح أداؤها بالنسبة له أكثر سهولة ويسراً. كاتب الطابعة مثلاً كلّما كثرت مزاولته لمهنة الضرب على الآلة الكاتبة يتّخذ عمله طابعاً أكثر سهولة وسرعة. ولكنّه كلّما اعتادها أكثر يتناقص انتباهه لها. أي تنخفض نسبة انتباهه إلى انّه يؤدّي عملاً إرادياً أو عن وعي، وقترب من صفة العمل اللاإرادي. هذه هي خاصّية العادة.

وما تأكيد الاسلام على موضوع النية إلى هذا الحدّ إلّا لأجل أن لا تتحول العبادة إلى عادة تتحول بمرور الزمن إلى عمل طبيعي لا إرادي، وخال من التفكير والهدفية. ومن الطبيعي انّ العمل الذي يؤدّى بدون انتباه لا يعتني

---

(١) اسلام ومقتضيات زمان: (٢): ص ١١٢.

بالهدف، ويقتصر التركيز فيه على صورة العمل.

هذه أشياء لا يتيسر لنا نيلها إلّا عبر الصلاة، وندرك انّ الكثير من التعاليم التربويّة تطبق بواسطة هذه العبادة وفي صورتها. ناهيك عن أنّ هذا العمل يربّي الانسان على محبّة الله والأبعاد المعنوية، وهذا هو جوهر العبادة.

العبادة والزهد والعرفان

قال ابن سينا في فصل مقامات العارفين من كتاب الاشارات:

«المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخصّ باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخصّ باسم العابد، والمتصرّف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحقّ في سرّه يخصّ باسم العارف. وقد يتركّب بعض هذه مع بعض».

إذن يستنتج من هذا انّ الزهد: عبارة عن الاعراض عن المشتهيات الدنيوية، والعبادة: عبارة عن أداء أعمال خاصّة كالصلاة والصوم وقراءة القرآن وما شابه ذلك، والعرفان: هو عبارة عن صرف الذهن عمّا سوى الله والتوجّه إليه لينعكس نوره في القلب.

أشارت الجملة الأخيرة إلى نقطة مهمة وهي انّ بعض هذه الخصال قد تمتزج مع بعضها أحياناً. إذن من الممكن أن يكون الشخص زاهداً ويكون عابداً في الوقت نفسه، أو قد يكون عابداً وعارفاً أو زاهداً وعارفاً وعابداً، إلّا انّ ابن سينا لم يوضح ذلك.

ومن الطبيعي انّه يقصد انّ الشخص الزاهد أو العابد قد لا يكون عارفاً، ولكن من غير الممكن أن يكون عارفاً ولا يكون عابداً وزاهداً.

ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع نشير إلى أنّ بين الزاهد

والعابد عموم وخصوص من وجه. فمن الممكن أن يكون الشخص زاهداً ولا يكون عابداً، أو قد يكون عابداً ولا يكون زاهداً، أو ربّما يكون عابداً وزاهداً في الوقت نفسه. وهذه كلّها واضحة. ولكن بين كل من الزاهد والعابد، والعارف عموم وخصوص مطلق؛ أي ان كلّ عارف يكون زاهداً وعابداً. ولكن ما كلّ زاهد وعابد يكون عارفاً.

ويُشير في الفصل اللاحق ان لزهد العارف وزهد غير العارف حكمتين؛ فحكمة زهد الزاهد غير العارف شيء، وحكمة زهد الزاهد العارف شيء آخر. كما انّ حكمة عبادة العارف شيء، وحكمة عبادة غير العارف شيء آخر. بل انّ جوهر وماهية زهد العارف وعبادة العارف تختلف عن جوهر وماهية زهد وعبادة غير العارف.

«الزهد عند غير العارف معاملة كأنّه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة. وعند العارف تنزّه عمّا يشغل سرّه عن الحقّ وتكبّر على كل شيء غير الحقّ. والعبادة عند غير العارف معاملة كأنّه يعمل في الدنيا لأُجرة يأخذها في الآخرة هي الأجر والثواب. وعند العارف رياضة لهممه وقوى نفسه المتوهّمة والمتخيّلة ليجرّها بالتعويد عن جناب الغرور إلى جناب الحقّ...»[1].

◙ هدف العارف من العبادة:

«العارف يريد الحقّ الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه وتعبّده له فقط، لأنّه مستحقّ للعبادة، ولأنّها نسبة شريفة إليه لا لرغبة أو رهبة».

المراد من هذا الكلام انّ العارف «موحّد» من حيث الغاية؛ هدفه الله وحده، لا يطلب الله لأجل نعمه الدنيوية أو الأُخروية؛ لأنّه لو كانت القضية على

(١) الشفاء: النمط التاسع من مقامات العارفين.

هذه الشاكلة لكانت غايته هذه النعم بذاتها ، ولا يكـون الله حـينها إلاّ وسـيلة ومقدّمة ، وإنّما معبوده ومطلوبه الحقيقي هو تلك النعم ، أو بكلمة أدقّ يكـون معبوده ومطلوبه هو نفسه ، لأنّه يريد هذه النعم لأجل إشباع رغباته .

أمّا العارف فكلّ ما يطلبه إنّما يطلبه لله ، وهو إذا أراد النعم الإلهية فلأنّها من فضله ولطفه . إذن غير العارف يطلب الله لنعمه ، والعارف يطلب نعم الله لله .

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال ، وهو انّ العارف إذا لم يطلب الله لغاية ، فلماذا يعبده إذن ؟ أليست كلّ عبادة لغاية ؟

وهنا يجيب ابن سينا بالقول : إنّ للعارف غايتان من العبادة ، هما :

أوّلاً : المعبود أهل للعبادة ؛ نظير أن يرى الانسان كمالاً في شيء أو في شخص فيطري عليه . فإذا سألته : ما الدافع لهذا الاطـراء ؟ ومـا فـائدته لك ؟ فيقول : إنّني لم أطر عليه طمعاً في نفع ، وإنّما وجدته خليقاً بالاطراء فأطريت عليه . وكلّ ثناء على أصحاب البطولات يصبّ في هذا السياق .

ثانياً : شرف العبادة وحسنها الذاتي . فالعبادة بما انّها علاقة بين العبد وربّه فهي لجديرة أن يؤدّيها العبد لذاتها ، لا لطمع أو خوف .

هناك جملة مشهورة نقلت عن علي عليه السلام قال فيها :

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنّتك ؛ بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» .

يؤكّد العرفاء كثيراً على أنّ حياة الانسان ، والعبادات على الخصوص إذا كانت غايتها شيء آخر غير الله تعالى تعتبر شركاً . والعرفان يقف على طـرف نقيض مع هذا الشرك مائة بالمائة .

◘ التصوّر العرفاني للعبادة :

في هذا التصوّر لا يوجد عامل وصاحب عمل وأُجرة ،كما هو بين العامل

وربّ العمل. بل انّ العبادة عند العارفين قربان الانسان ومعراجه وتعاليمه وصعوده إلى مشارق أنوار الوجود. وهي تربية روحية ورياضية للقوى الانسانية، وهي ساحة انتصار الروح على البدن. وأسمى مظاهر شكر الانسان لمبدع الخلق. وهي مظهر حبّ الانسان للكامل المطلق والجميل على الاطلاق. وهي مسيرة الانسانية إلى الكمال اللامتناهي.

في هذا التصوّر للعبادة نجد لها جسماً وروحاً، وقلباً وقالباً. فما يتحقّق منها باللسان وسائر الجوارح هو ظاهر العبادة وجسمها، وأمّا جوهر العبادة وروحها فهو شيء آخر، يرتبط بما يفهمه العابد من عبادته وبنوعية تصوّره عن العبادة وبالباعث له عليها، وبما يؤدّيه منها إلى ربّه ويتقرّب بها إليه[1].

ولأجل أن تتّضح لنا صورة العبادة في «نهج البلاغة» نأتي في ما يلي على ذكر نماذج من كلمات الامام عليه السلام. ونبدأ كلامنا بكلمة نقلت عنه عليه السلام في اختلاف تصوّرات الناس عن العبادة:

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار».[2]

«لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب أن لا يعصى شكراً لنعمته».[3]

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

هذه الكلمة «أهلاً للعبادة» ذات معنى عميق. بما انّك أنت أنت. وأنا أنا. يبدو من الطبيعي جدّاً أن أجعلك معبوداً لي، وأنا عابد لك.

---

(١) في رحاب نهج البلاغة: ص ٧٣.

(٢) قصار الحكم: الحكمة ٢٣٧ (صبحي الصالح).

(٣) قصار الحكم: الحكمة ٢٩٠ (صبحي الصالح).

لا أدري هل أنتم ملتفتين إلى المضامين السامية التي يشتمل عليها دعاء كميل ؟ تأمّلوا بدقّة مضامين هذا الدعاء من أوله : اللّهمّ إنّي أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء ، وحتّى آخره : وسلّم تسليماً كثيراً ، لتتعرّفوا على ما يقوله علي عليه السلام في معنى عبادة الشاكر المحبّ ، وفي معنى الذوبان بالمحبوب . وبما أنّ منطق علي عليه السلام بعيد كلّ البعد عن المبالغة ، سيما حيث يناجي ربّه ، تعرض أمامنا جمل لا يتاح لنا تصوّرها أصلاً ؛ فهو يقول عن نار جهنّم : «وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض ». أي أنّ نار جهنّم ليست من نوع نار الدنيا ، بل هي نار لا تتحملها السموات والأرض . ويقول في الوقت نفسه :

«هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك»؟ علي عليه السلام لا يصبر أبداً على فراق محبوبه وحرمان النظر إليه ، هذه هي العبادة الحقّة . وهذه الخاصّية لا يتّصف بها علي عليه السلام وحده . انّ منزلة الانسان أسمى من هذا بكثير .

◘ الزهد شرط أساسي للمعرفة :

هذا الكلام موجّه لمن نالوا رشفة من ينبوع المعنوية ، فالذي نال قدراً من الحالة المعنوية يدرك انّ الانسان ما لم يتحرّر من قيد الأهواء النفسية ، وما لم يفطم طفل النفس عن ثدي الطبيعة ، وطالما بقيت المادّة هدفاً ولم تتّخذ كوسيلة ، لا يتاح لحياض القلب أن تكون مؤهّلة لنضوج وتنامي المشاعر النقية ، والأفكار المنيرة والعواطف الملكوتية . وهذا هو معنى قولهم : إنّ الزهد شرط أساسي للمعرفة الافاضية ، وتربطه وإياها عرىً وثيقة لا انفصام لها .

◘ تنافر العبادة ودوافع اللذّة :

إنّ العبادة تعني في حقيقتها حبّ الله ، والاندفاع إليه ، والأُنس به ، والتلذّذ

بعبادته، وذكره على الدوام، وهذا ما يتنافر مع نوازع عبادة الذات واللـذائـذ المادّية والانقياد لها. وليس عبادة الله وحدها هي التي تستلزم نوعاً من الزهد، بل: انّ أيّ نوع من الحبّ سواءً بخصوص الوطن، أم المهنة، أم المذهب تستلزم نوعاً من الزهد وعدم المبالاة للشؤون المادّية.

تختلف المحبّة والعبادة عن العلم والفلسفة في انّها لا تتقبّل وجود منافس لها؛ لأنّها تتعاطى مع القلب والمشاعر. لا مانع من أن يكون العالم أو الفيلسوف عابداً للدينار والدرهم، ويعمل فكره في ظرف آخر في مسائل الفلسفة والمنطق والطبيعة والرياضيات. ولكن لا يمكن أن يكون قلب شخص كهذا موئلاً للمحبّة سيّما بمعناها الرفيع، فما بالك به إذا أراده أن يكون معقلاً لمحبّة الله، أو موضعاً تسطع عليه أنوار الاشراق والالهام الربّاني.

◘ الكمال المعنوي في ظلّ الانعتاق من النوازع المادّية:

إذن لابدّ من تحرير القلب من ربقة القيود المادّية، وإفراغه من أصنام الذهب والفضّة كشرط لنيل الكمال المعنوي ونضوج الشخصية الحقيقية للانسان.

جاء في إحدى رسائل علي عليه السلام:

«وأيمَ الله ـ يميناً استثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، ويقنع بالملح مأدوماً، ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها. أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الربيضة من عشبها فتربض؟ ويأكل عليّ من زاده فيهجع؟! قرّت إذن عينه إذ اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية!»

ثمّ يضيف قائلاً:

«طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في

الليل غمضها، حتّى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسّدت كفّها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم، وتقشّعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أُولئك حزب الله ألا انّ حزب الله هم المفلحون﴾[1].

وعلى كلّ الأحوال فلابدّ من اختيار واحد من طريقين: فإمّا الطعام والشراب والغضب والشهوة، وهذا الطريق لا ابتهال فيه ولا مناجاة ولا توجّه ولا دموع ولا أُنس ولا إطلالة نور، ولا خطوة فيه خارج إطار الحياة الحيوانية. وإمّا السير في وادي الانسانية واستثمار النعم الإلهية التي خصَّ بها القلوب الطاهرة والأنفس الطيّبة.[2]

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٤٥.

(٢) سيري در نهج البلاغة: ص ٢٤٥.



الوعي في العبادة:

◘ الجاهل المتنسّك :

كان الخوارج معروفين بكثرة العبادة، وكانوا يقضون ليلهم بالذكر والمناجاة، ولا رغبة لهم في الدنيا وزخارفها. ولما أرسل إليهم أمير المؤمنين عليه السلام عبدالله بن العبّاس لينصحهم، وصفهم حين عودته منهم بالقول: «لهم جباه قرحة لطول السجود، وأيد كثفنات الإبل، عليهم قمص مرحّضة وهم مشمّرون».

كان الخوارج متزمّتين بالتمسّك بالاسلام وظواهر الأحكام الشرعية، لا يأتون ما يعتبرونه ذنباً. وكانت لهم معايير من عند أنفسهم لا يخالفونها، ويسوؤهم إذا رأوا أحداً يقترف ذنباً.

قتل عبيدالله بن زياد أحدهم، ثم أرسل إلى غلامه يسأله عن خبره، فقال: «ما أخذت له طعاماً في نهار، ولا سويت له فراشاً في ليل. كان يقضي نهاره بالصوم، وليله بالعبادة»[1].[2]

ووصفهم علي عليه السلام بالقول:

«جفاة طغام وعبيد أقزام، جمعوا من كلّ أوب، وتلقّطوا من كلّ شوب،

---

(١) الكامل للمبرّد: ج٢، ص١١٦.

(٢) جاذبة ودافعة علي: ص١٥٢.

ممّن ينبغي أن يفقّه ويؤدّب ويعلّم ويدرّب ويُوَلّى عليه ويؤخذ على يديه ليسوا من المهاجرين والأنصار الذين تبوّؤا الدار والايمان».

إنّ ظهور طائفة جاهلة متنسّكة والخوارج جزء منها ـ قد ألحق بالاسلام ضرراً فادحاً. وفضلاً عن الخوارج الذين كانوا رغم كلّ عيوبهم يتّصفون بخصلتي الشجاعة والتضحية، ظهرت فئة أُخرى من المتنسّكين لا تحمل أيّاً من هذه الخصال، وقادت الإسلام نحو الرهبنة والانعزال، وازدهر على أثر ذلك سوق الرياء والتظاهر.

وبما أنّ هذه الطائفة كانت عاجزة عن إشهار السلاح بوجه السلاطين، فقد سلّت سيوف ألسنتها ضدّ أهل الفضيلة، وأشاعت ظاهرة التكفير والتفسيق والخروج عن الدين بحقّ كلّ صاحب فضيلة.

وعلى كلّ حال، كانت أبرز ميزات الخوارج هي الجهل، ومن مصاديق جهلهم عدم الفصل بين الظاهر أي خطّ القرآن وجلده وبين معنى القرآن. ولهذا وقعوا في الأحابيل الساذجة التي نصبها لهم معاوية وعمرو بن العاص.

اقترنت صفة الجهل عند هؤلاء القوم مع صفة العبادة. وكان علي عليه السلام يستهدف محاربة جهلهم، ولكن كيف يتسنى له الفصل بين زهدهم وعبادتهم وتقواهم عن جهلهم. لأنّ عبادتهم كانت عين جهلهم. والعبادة المقرونة بالجهل لا قيمة لها عند علي وهو أكثر الناس معرفة بالاسلام. ولهذا قمعهم، ولم تكن عبادتهم وتقواهم وزهدهم لتحول بينهم وبينه[1].

كان عبدالرحمن بن ملجم أحد الزهّاد المتنسّكين التسعة الذين اجتمعوا بمكّة وعقدوا ذلك الحلف المعروف، ونسبوا الفتن الناشبة في العالم الاسلامي آنذاك إلى ثلاثة أشخاص، هم: علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص. وانتدبوا

---

(١) جاذبة ودافعة علي عليه السلام: ص ١٦٠.

عبدالرحمن بن ملجم لقتل الامام علي عليه السلام ومتى كان موعدهم؟ ليلة التاسع عشر من رمضان ولكن لماذا اختاروا هذه الليلة ؟

يقول ابن أبي الحديد : انظر إلى جهلهم! جعلوا ليلة التاسع عشر من شهر رمضان موعداً لهم ؛ لأنّ هذا العمل في رأيهم عبادة كبرى ، وإذا تمّ في ليلة القدر يكون ثوابه أكثر[1].

وقتل عبدالرحمن بن ملجم علياً عليه السلام ، فلقي الكثير من الثناء والاطراء. حتّى ان أحد الخوارج نظم بحقّه أبياتاً من الشعر يقول في أحدها :

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البريّة عند الله ميزانا

هكذا يفعل الجهل بالاسلام والمسلمين.

---

(١) سيرى در سيره أئمة أطهار : ص ٤٩.

العبادة والمعرفة

قد يقول البعض: ما معنى الصلاة؟ وما معنى العبادة؟ إنّها من ممارسات العجائز؛ ينبغي أن يكون الإنسان اجتماعياً. إنّ مثل هذا الكلام يعتبر نوعاً من المعرفة، ولكنّها «معرفة عُمرية».

تعلمون أنّ عمر حذف «حيّ على خير العمل» من الأذان. لماذا؟ لأنّه اجتهد من عند نفسه، ولكن ارتكب في الحقيقة خطأً فظيعاً. في عهد عمر بلغت الفتوحات الاسلامية ذروتها، وكان المسلمون يسيرون سراعاً لمقاتلة أعدائهم. ويتغلّبون على أقوى الجيوش بأعداد قليلة. ولم يكن عدد المسلمين حينذاك أكثر من خمسين أو ستّين ألفاً، ولكنّهم حاربوا في وقت واحد امبراطوريّتين جهّزت كلّ واحدة منهما جيشاً يبلغ عداده مئات الآلاف لقتالهم، وألحقوا بهما هزائم منكرة.

ويثبت الجهاد قيمته مرّة أُخرى، وتتّضح عند ذاك ماهية المجاهد الذي يربّيه الاسلام. قال عمر: إنّ المؤذّن عندما يكبّر ويأتي بالشهادتين، وينادي بعدهما: «حيّ على الصلاة»، و«حيّ على الفلاح» لا ضير في كلّ هذا. ولكن حينما ينادي «حيّ على خير العمل» فإنّه يضعف روحية القتال عند المجاهدين؛ لأنّ المجاهد يتصوّر في نفسه انّ الصلاة إذا كانت خير الأعمال، فنحن بدلاً من الجهاد في ساحة الحرب، نبقى في مسجد المدينة ونصلّي إلى جوار قبر الرسول

صلّى الله عليه وآله وهذه الصلاة هي خير الأعمال. دع الآخرين يذهبون إلى سوح القتال فيقتلون أو يجرحون، أو تصاب عيونهم فيعمون، أو تقطع أيديهم، أو أرجلهم، أو تُبقر بطونهم. أمّا نحن فنبقى هنا في راحة وأمان قرب نسائنا وأطفالنا، ونصلّي أربع ركعات، ونكون بذلك أفضل منهم.

توهم عمر ان لهذا النداء انعكاسات سلبية ومن الأفضل حذفه من الاذان واستعمال جملة «الصلاة خير من النوم» بدلاً عنها.

ولم يفكّر هذا الرجل في السبب الذي يجعل هذا الجيش المؤلّف من عشرات الآلاف من المقاتلين ـ ولم يكن عوده قد بلغ المائة ألف قطعاً ـ يقاتل جيوشاً يبلغ عدادها مئات الآلاف، وينتصر عليها. فما السر في تلك الانتصارات؟ هل تعزى أسباب تلك الانتصارات الى تفوق السلاح العربي على السلاح الفارسي والرومي؟ أبداً.

كانت بلاد فارس وبلاد الروم دولتين متحضرتين ولديهما أفضل الأسلحة في ذلك العصر، في حين ان سيوف العرب لم تكن تمثّل في مقابل سيوف الفرس والروم سوى هشيم. هل كان العصر العربي أقوى وأشد شكيمة من العنصر الرومي أو الفارسي؟ كلا ألا تعلمون ماذا فعل شابور ذو الاكتاف بالعرب قبل الاسلام؟ ألم يأسر الآلاف منهم؟ الم يسوّد ويثقب اكتافهم وقيّدهم بالسلاسل؟ أين كانت قوّة العرب آنذاك؟ ألم يهزم الفرس العرب بعد ذلك التاريخ بمائة سنة. اذن ما هي القوّة التي يقاتل بها العربُ الفرسَ والرومَ وينتصرون عليهما؟ كانت قوّتهم في إيمانهم، وهو ذلك الايمان المستقى من نداء «حيّ على خير العمل»، ومستقى من الصلاة، ومستقى من الدعاء والمناجاة.

وهو بتعبير القرآن حينما يقف ويناجي ربّه ليلاً، ويدعوه ويبتهل إليه انّما يستمد منه قوّته، ويتزوّد منه بمعنويات، وهي تلك المعنويات التي هزم بها العرب الفرس والروم. أي أن تلك القوّة مستوحاة من قوّة الايمان.

ولكن ما هي الصلاة؟ الصلاة هي عبارةعن تجديد للايمان، وهذه المعنويات مستقاة من نداء «الله اكبر». وحينما يقول المسلم في صلاته «الله اكبر» عدّة مرّات، فمعنى ذلك انّه لا يقيم وزناً لكل ما سواه. وحينما يرىْ في مقابله عشرات الآلاف من الجنود ويقول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله»، و «الله أكبر» فمعنى ذلك ان الانسان يعوّل على ربّه ويستمد منه العون والقوّة. فلو لم تكن تلك الصلاة لما كان ذلك المجاهد مجاهداً.

وحينما قال الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله: «الصلاة عمود الدين»، او ان مثل الصلاة بالنسبة للدين كمثل خيمة لها هيكلها واوتادها وحبالها ولكن قوامها العمود. والدين أيضاً عموده الصلاة. ومعنى هذا ان الرسول صلّى الله عليه وآله كان واعياً لأهمية الصلاة مدركاً لحميّة معطياتها، وكان يعلم علم اليقين ان الصلاة من أكبر العوامل المؤثرة في معنويات المقاتلين، ولولاها لما كانت للمسلمين تلك المعنويات العالية والخصال السامية.

اذا كان هناك من يتوهم ان المقاتلين يتركون الجهاد ظناً ان الصلاة افضل من جهادهم، فعليه ان يوضّح لهم حقيقة الصلاة والجهاد وتلازمهما ليقتلع هذا التفكير الخاطىء من مخيّلتهم وليبيّن لهم عدم امكانية استعاضة أحدهما بالآخر او الاستغناء عن أحدهما؛ فلا الصلاة تسقط الجهاد ولا الجهاد يلغيها. الصلاة يجب اقامتها من أجل شحذ الهمم وشد العزائم ولتحقيق الجهاد الحقيقي انطلاقاً من قوله تبارك وتعالى﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾[1]. فلماذا هذه الاستهانة بالصلاة بتقديم الجهاد وتفضيله عليها؟ ولماذا يبلغ الاستخفاف بها حدّاً يجعل القائل يقول فيها هي خير من النوم فحسب؟ وانّما يجب ان يقال للمقاتل أقم الصلاة، واذهب إلى الجهاد. لأن الاسلام لم يخير المسلم بأحدهما دون

---

(١) سورة البقرة: ٤٥.

الآخر.[1]

يجب تصحيح الخطأ العالق في ذهن المسلم. اليس الاسلام يقول ان هذه الأحكام مترابطة في ما بينها. فمن وجب عليه الجهاد عليه ان يذهب ويجاهد، وبقاؤه للصلاة في مسجد المدينة حرام. والجهاد شرط في قبول الصلاة، والصلاة أيضاً شرط لقبول الجهاد. ومن تنطبق عليه شروط الجهاد فهو ملزم بالجهاد، ولابد أن يُقال له ان الاسلام لا تُقبل فيه صلاة بلا جهاد، وهي هنا لا تُعد خير العمل فحسب وانّما هي شر العمل أيضاً، وماهي بالصلاة التي فرضها الاسلام. صلاة الاسلام هي حي على خير. ولا معنى لأن يأتي أحد ويحذف جملة «حي على خير العمل» من الأذان ظناً بوجود انعكاسات سلبية لها، وتدفع المسلمين إلى التعلّق بالصلاة بدل الجهاد. ويفترض في مثل هذه الحالة تصحيح الاخطاء العالقة في الأذهان بدلاً من اتخاذ مثل هذا الاجراء[2].

وهنا كقول بعض الاثرياء انهم يدفعون من اموالهم ولا يصلون، أي أن يحلّ المال محل الصلاة. أوَيجوز مثل هذا؟ ولا شك ان أمثال هؤلاء لا يعلمون ما الصلاة. ولا يفهمون ان الاسلام ـ مبدئياً ـ يرفض الانفاق بمعزلٍ عن الصلاة رفضاً باتاً. كما انّه يرفض الصلاة المجرّدة عن الانفاق اذ لو ان ثرياً يصلّي الفرائض مع النوافل ويصلّي اضعافها ويقضي الصلوات ولا ينفق من ماله شيئاً ظناً منه أن الصلاة وكثرتها تعوّض عن الانفاق. فهل عمله هذا صحيح ومقبول؟ طبعاً لا.

اذن يتحتم علينا تنبيه الناس إلى ان التعاليم والاحكام الاسلامية وحدة واحدة لا تقبل التجزئة، وهي كأعضاء الجسد الواحد؛ فالصلاة في موضعها ولها

---

(١) الاسلام ومتطلبات العصر: ص ٥٢.

(٢) الانسان الكامل: ص ١٠٧.

دورها وأهميتها، وكذلك الحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل في محلّه وله دوره وأهميته. ولهذا ينبغي التعرف على موقع كـل واحد من هذه الأحكام.

ماذا عسانا ان نسمي مثل هذا الوعي لمتطلبات العصر، تطرّفاً أو بعبارة أُخرى نسمّيه جهلاً لأنّه نابع عن جهل، أو عن تفكير مبتور ومشوّه[1].

(١) الاسلام ومتطلبات العصر: ص٥٣.

الاعتدال في العبادة

احدى القيم الانسانية التي يقرّها الاسلام هي العبادة. والمراد من العبادة هنا هي العبادة بالمعنى الخاص[1]؛ أي التوجّه لله، والصلاة، والدعاء، والابتهال، والتهجّد وصلاة الليل وما شابه ذلك، والتي تعتبر من جملة مباني الاسلام ولا يمكن فصلها عنه.

العبادة قيمة حقيقية ولكن اذا لم توضع لها قيود فسوف ينساق المجتمع إلى الافراط في ممارستها. فالاسلام لا يُعني فقط بالعبادة، وارتياد المساجد، والصلوات المستحبة، والدعاء، والتعقيبات، والاغسال المستحبّة، وتلاوة القرآن. ولو انفلت زمام المجتمع على هذا الطريق لضاعت جميع القيم، كما نلاحظ ان مدّاً كهذا حصل عبر تاريخ الاسلام في المجتمع الاسلامي أو حتّى لدى بعض الأشخاص فهنالك أشخاص مخلصون مائة بالمائة ـ ولا يمكن مد اصابع الاتهام اليهم ـ قد سقطوا في هذا الوادي. والشخص الذي يسلك هذا المسار لا يمكنه من بعد ذلك الحفاظ على اتّزانه. من البديهي ان الله تعالى قد خلق هذا الشخص بطبائع بشرية وليس على هيئة ملاك. نعم لو انّه كان ملاكاً لوجب عليه السير على هذا الطريق. أما الانسان فتجب عليه تنمية القيم

---

(١) طبعاً الاسلام يعتبر كل عمل يؤدّيه الانسان تعالى لوجه الله، عبادة. فهو عندما يمارس نشاطه اليومي في العمل والكد ويقصد من وراء ذلك خدمة ذاته ومجتمعه وادارة شؤون عائلته، فهو في حالة عبادة.

المختلفة في ذاته بشكل متوازن.

اخبروا رسول الله صلّى الله عليه وآله ان جماعةمن الصحابة مستغرقون في العبادة فغضب وجاء إلى المسجد وصاح: ما بال اقوام كأنهم ... وانا النبي لا افعل ذلك ولا اقضي ليلي كلّه حتّى الصباح بالعبادة؛ بل اجعل بعض ليلي للنوم والراحة واهتم بشؤون عيالي وزوجاتي. وانا لا أصوم كل الايام بل اصوم بعضها ولا اصوم البعض الآخر. ومن ينتهجون هذا المسلك فهم خارجون عن سنّتي.

حينما يشعر الرسول صلّى الله عليه وآله ان إحدى القيم الاسلامية تكاد ان تستحوذ على سائر القيم، أي انّها تجعل المجتمع الاسلامي يميل إلى اتجاه معيّن يحاربها بشدّة.

كان لعمرو بن العاص ابنان؛ أحدهما اسمه محمد وكان يسير على خُطا أبيه، أي أنّه كان شديد التعلق بالدنيا وزخارفها. والآخر اسمه عبدالله وكان نجيباً إلى حدٍّ ما. وكان هذا كثيراً ما يدعو اباه إلى الوقوف إلى جانب علي عليه السلام، اما الآخر فكان يقول له: انّك لا تجد عند علي خيراً من الأفضل لك الذهاب إلى معاوية. وفي أحد الأيام رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله عبدالله فقال له: بلغني انّك تقضي ليلك بالعبادة ونهارك بالصيام. قال: نعم يا رسول الله. فقال له: ولكني لست هكذا، ولا اريد لك أن تكون هكذا، وهذا المسلك غير صحيح، واوصيك بالكف عنه.

أحياناً يُقاد المجتمع نحو الزهد الذي يعدُّ بذاته حقيقة لا يمكن انكارها، وهي فضيلة ذات فوائد وتأثيرات جمّة، ومن المستحيل ان يذوق المجتمع طعم السعادة، أو لا يمكن على الاقل اعتبار ذلك المجتمع اسلامياً فيما لو افتقد هذا العنصر وهذه الفضيلة. ولكن يلاحظ أحياناً ان هذه الفضيلة تجتذب المجتمع

اليها أحياناً حتّى يصبح كل شيء فيه زهد، ولا موضع فيه لشيء آخر سوى الزهد[1].

▣ المحافظة على نشاط الروح :

الروح الانسانية ذات شفافية عالية وتبدي ردود الفعل بسرعة. واذا ما ضغط عليها الانسان في عملٍ ما ـ فما بالك بارواح الناس الآخرين ـ يتمثل رد فعلها في الفرار والتملّص. مثلاً من جملة التوصيات التي أكّد عليها الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله في مجال العبادة هي ان يعبد المرء ما دامت لديه رغبة واندفاع. أي أن يصلي ويعبد ويؤدي المستحبّات والنوافل، ويقرأ القرآن ويحيي الليل طالما كانت لديه القدرة والشوق. ولكن حينما يشعر بالتعب والتثاقل؛ أي انّه يفرض العبادة على نفسه فرضاً عليه ان يتوقّف ولا يرغم نفسه على شيء منها. فما دام يُرغم نفسه على العبادة فانه يدفعها تلقائياً إلى الملل والتهرّب. ويصبح الأمر وكأنه قدّم لها الدواء المُرَّ فيترك فيها ذكرىً سيئة عن العبادة. وهذا ما يوجب عليه ان يجعل العبادة مقرونة بالنشاط والبهجة، وان يترك في نفسه ذكرىً طيّبة عنها[2].

▣ النهج الصحيح في العبادة :

المثال الذي يمكن الإتيان به هي الادارة الفردية المتناسبة مع البُعد الديني لمجتمعنا يتمثل في موضوع العبادة. يجب علينا الاعتراف اننا نجهل الاسلوب الصحيح للعبادة؛ أي أننا من الوجهة العبادة غير قادرين على السير وفق النهج السليم في العبادة. وبما ان الناس يتصورون العبادة أمر محمود فهم

---

(١) الانسان الكامل: ص ٤٤.

(٢) في رحاب السيرةالنبوية: ص٢١٢.

يظنون انّه كلما أكثر منها المرء كان ذلك أفضل، من غير أن يدركوا انّها تـؤتي ثمارها حيثما نجحت في إجتذاب الروح وتغذيتها بالشكل السليم. وكـما ان معنى استثمار الغذاء الجيّد لا يعني ان الافضلية في الإكـثار، فكـذا لا تـعني الاستفادة من العبادة.

العبادة ينبغي أن تكون مقرونة بالنشاط الروحي. ولا أعني بذلك ضرورة وجود النشاط الروحي المسبِق؛ فالكثير من الاشخاص لا يـتوفر لديـهم أي نشاط روحي على الاطلاق. وانّما يأتي النشاط الروحي تدريجياً مع ممارسة العبادة والأنس بذكر الله. واذا مارس الانسان العبادة وفقاً لأسسها الصـحيحة تتكون لديه الرغبة والاندفاع بمرور الزمن.

المراد من هذا ان استيعاب الانسان للعبادة محدود، فاذا فرضنا انّه ابتدأ عبادته وهو في غاية الرغبة والاندفاع، فانّ ذلك الاندفاع يضمحل تدريجياً في أعقاب تعب البدن، وتتخذ العبادة حينها طابع الفرض والارغام وتصبح وكأنها تناول طعام يثير الاشمئزاز ويسبب التهوّع فـيجد البـدن نـفسه مـرغماً عـلى التخلّص منه عن طريق الاستفراغ أو أي طريق آخر.

وهو بذلك يكون على العكس من الطعام الطيب الذي يجتذبه البدن.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لجابر بن عبدالله الأنصاري:

«يا جابر ان هذا الدين لمتين فاوغل فيه برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله».

أي عليك ان لا تسلك مسلكاً تجعل نفسك تكره العبادة، بل افـعل مـا يجعلك تميل اليها، ثم اضاف قائلاً:

«فانّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

الراكب الذي لا يراعي مدى قدرة المـركوب، ولا يـعامله الا بـالسوط

ويسير به حثيثاً، لا يرى بعد منزلين أو ثلاثة الّا وحيوانه قد برك على الأرض وقد اخذت منه السياط مأخذها، لا يستطيع حركة ولا نهوضاً.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث له: «**طوبى لمن عشق العبادة وعانقها**» يريد الرسول أن يؤكّد في هذا الحديث أنّ الذين ينتفعون من الانعكاسات الطيبةللعبادة هم فقط أولئك الذين يؤدونها عن رغبة واندفاع.

العبادة الحسنة التي ينتفع من بركتها لها حسابها وقاعدتها وآليتها الخاصة، وهي تعزى إلى حسن الادارة الذاتية، أي ادارة المرء لعواطفه ومشاعره وأحاسيسه وغرائزه وقلبه بشكل حسن. فالقلب والمشاعر والعواطف بحاجة إلى الادارة الصحيحة أكثر من أي شيء آخر[1].

▣ الافراط في العبادة:

نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام القصّة التالية:

كان لأحد المسلمين جار مسيحي له معه صلة صداقة، وبدأ المسيحي يظهر رغبته في الإسلام تدريجياً إلى أن أسلم على يده. ثم ان هذا الرجل أراد أن يجعل من هذا الوافد الجديد مسلماً في غاية الاخلاص والورع لينال على عمله هذا أجزل الثواب.

سمع المسلم الجديد في اليوم الأول الذي أعلن فيه اسلامه ان طارقاً يطرق بابه عند الفجر، فصاح: من الطارق؟ قال له: أنا جارك المسلم.

ـ ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

ـ جئتك لنذهب سوية إلى المسجد للعبادة.

نهض المسكين وتوضّأ وذهب إلى المسجد وبعد صلاة النوافل، قال

---

(١) الامداد الغيبي: ص ١٠٥.

لصاحبه : هل انتهت الصلاة ؟ قال : لا ، يجب ان نصلي صلاة الفجر . فصلى صلاة الفجر . ولما انتهى منها ، سأله صاحبه : هل انتهت الصلاة ؟ قال : لا ، دعنا نصلي النوافل فهي مستحبّة ، ويجب أن نبقى نصلّي بين الطلوعين إلى بزوغ الشمس .

ولما أشرقت الشمس ، قال له : لنعبد قليلاً بعد شروق الشمس .

وعند الظهر أبقاه لأجل العبادة حتّى حان وقت العصر ، وبعد صلاة العصر قال له : ما دمت لم تتناول طعاماً ، من الأفضل ان تنوي صيام هذا اليوم وخلاصة القول انّه لم يتركه الا بعد مرور ساعتين من الليل .

وفي صباح اليوم التالي ذهب وطرق بابه ، فصاح الرجل من الطـارق ؟ قال : انا اخوك المسلم . قال : ما الذي جاء بك ؟ جئتك لنذهب للعبادة . قال : هذا الدين ينفع البطالين ، اما أنا فلا شأن لي به ، وقررت الرجوع إلى ديني الاول .

ثم قال الصادق عليه السلام : «لا تكونوا كهذا الرجل الذي هدى شخصاً للاسلام ثم انّه اخرجه بنفسه منه واعاده إلى الكفر»[1].

(١) في رحاب السيرة النبوية : ص٢١٣ .

العبادة والتوبة:

من شروط التوبة اداء حقّ الله. ولكن ما هو حقّ الله ؟ حقّ الله هو الصوم مثلاً؛ فالصوم لله. والأيام التي أفطرت فيها يجب صيامها، والصلوات التي تركتها يجب عليك أداؤها، واذا كنت مستطيعاً ولم تحج يجب عليك الذهاب إلى الحج، وهذه الأمور ليست أمراً سهلاً.

من المعروف في قضيّة الحج ان الشخص اذا استطاع ولم يحج بلا عذر شرعي، أي كان مستطيعاً من حيث الوضع المالي والبدني؛ فلا يعاني من مرض، ولديه القدرة على المسير، ولم يكن هناك عائق آخر يعيقه عن الذهاب إلى الحج، ولم يحجّ إلى آخر حياته، ثم مات، فانّه لا يموت على الاسلام، ويأتيه الملائكة ويقولون له: «مت ان شئت يهودياً وإن شئت نصرانياً». فكيف يمكن ان يكون الإنسان مسلماً ولا يصلّي؟[1].

◙ ألم الطاعة:

يقول علي عليه السلام: ان أحد شروط التوبة هو أن تذيق بدنك ألم الطاعة كما اذقته حلاوة المعصية. بمعنى أن يخرج الانسان من حالة الميوعة. حالة الميوعة لا تؤدي بالمرء لأن يكون عبداً لله، بل وان المتميّع ليس انساناً.

---

(١) مقالات اسلامية: ص ٦٤.

اذا أردت أن تصوم ووجدت الصيام صعباً، لابدّ لك من الصوم. واذا اردت احياء الليل ولم تتمكن، يجب عليك مغالبة نفسك. وعليك اداء هذا العمل لأنّه عمل صعب، يجب أن تتعب نفسك وتؤيها وتؤدبها[١].

من سمات العمل الصالح انّه يزوّد الانسان بالطاقة. والانسان حينما يؤدي عملاً صالحاً يكون كأنما تناول طعاماً مقوياً، أو احتقن بحقنة مقوية. أما حينما يذنب فيبدو وكأنه فقد القدرة على السير الصحيح[٢].

من جملة افرازات الذنب انّه يصيب الانسان بالتثاقل، ويسلبه قوّته. فيشعر وكأن ثقلاً اضافياً قد اصبح على ظهره. على العكس من الطاعة التي يشعر الانسان خلالها بالاندفاع والقوّة:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وانّها لكبيرة الاّ على الخاشعين﴾[٣].

◘ حلاوة العبادة بعد الاستغفار:

﴿قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله انّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[٤].

انظر كيف يصف هذا الحديث القدسي التوبة:

«أنين المذنبين أحبّ اليّ من تسبيح المسبحين».

توجهوا في ليالي القدر هذه إلى بارئكم وتضرعوا اليه، في هذه الليلة وفي الليلة المقبلة، وفي كل وقت، واستذكروا ذنوبكم، وإياكم والإقرار بها أمام الآخرين لأن في هذا العمل اثم. ولكن حاسبوا انفسكم في ما بينكم وبين

---

(١) مقالات اسلامية: ص٦٧.

(٢) تفسير ثلاث سور: ص٥٨.

(٣) سورة البقرة: ٤٥.

(٤) سورة الزمر: ٥٣.

ذاتكم. وانتم اعلم بما في نفوسكم ضعوا ذنوبكم نصب اعينكم، ثم اعرضوها بين يدي ربّكم وتوسلوا اليه ان يمحوها، واستغفروه عسى ان يغفرها لكم. فانه تعالى يرحمكم، ويطهركم ويعفو عنكم، ويصقل نفوسكم، ويرأف بكم. ومن بعد هذا تستشعرون لذّة وانشراحاً وبهجة حينها تحسون حلاوة العبادة، وعندها تستصغرون الذنوب وكل لذّة تأتي من المعاصي[1].

---

(١) مقالات اسلامية: ص ١٢٣.

العبادة والمجتمع

لابدّ لي من ذكر نقطة وهي أنّ المعاني العرفانية الرفيعة شاعت بيننا بشكل مغلوط، واعتبرت ـ كما يطلق عليها المصطلح الحديث ـ كهروب من الخارج، بل وحتّى جذورها فُسّرت على انّها هروب من الخارج. وعرضت في هذا المجال طبعاً آراء شَتّى مفادها ان الاشخاص الذين يواجهون الاحباط في الخارج يلتجئون إلى أعماقهم، اي إلى عالم خيالهم الذاتي.

الّا انّ القضيّة ليست على هذه الشاكلة (والأمثلة الاسلامية مناقضة لهذا الرأي تماماً). ونحن نعترف بطبيعة الحال ان اشخاصاً كثيرين سلكوا سبلاً منحرفة في هذا المجال، ولعلّهم اتخذوا هذا المسلك كذريعة للتهرب من المسؤوليات الاجتماعية. لكن الانسان الذي ينشده الاسلام، إنسان شامل. ونحن يجب ان نتخذ من عليٍّ عليه السلام قدوة لنا. فهو عليه السلام حتّى في خلواته العرفانية كان يستشعر المسؤوليات الاجتماعية إلى حد بعيد. وهكذا يكون الانسان الذي يطمح اليه الاسلام.

الاسلام يبني انساناً شاملاً. ونحن نبيّن هنا أحد أبعاد وجود الانسان، ولا نتحدث عن إنسان ذي بعد واحد لا أكثر، وحتّى هذا البعد ـ كما يقول العرفاء أنفسهم ـ ليس الّا إنساناً ناقصاً، لم يبلغ عرفانه إلى الآن حدّ الكمال. الانسان الكامل حينما يصل إلى هناك ويمتلىء بالمعرفة يكون حينذاك مهيئاً للعودة،

وحينما يعود يؤدي مهامّه ومسؤولياته. والا فالذي يذهب ولا يعود فذلك انّه لا زال فجّاً لم يبلغ الكمال[1].

◘ الصلة بين العبادة والمجتمع:

نلاحظ أحياناً في تعابيرنا الاسلامية أشياءً تثير لدى البعض تساؤلات في مجال العبادة؛ ففي موضوع الصلاة يقال ان رسول الله صلّى الله عليه وآله أو الأئمّة الأطهار عليهم السلام (لأن هذا المعنى ورد في احاديث الرسول، وفي أحاديث الأئمّة أيضاً) قالوا: «الصلاة عمود الدين». أي أننا إذا افترضنا هذا الدين بمثابة الخيمة المنصوبة التي فيها قماش، وفيها حبال، وفيها حلقات، وفيها اوتاد ثبتت في الأرض، وفيها أيضاً عمود يرفعها ويقيمها، فان الصلاة تكون بمنزلة ذلك العمود في الخيمة المنصوبة. خاصّة وان الرسول بيّن ذلك المعنى كما ورد في الحديث بالصورة التالية:

«فإن قُبلت قُبل ما سواها، وإن ردّت رُدَّ ما سواها». أي أنّ قبول سائر أعمال الانسان يتوقف على قبول الصلاة. وهذا يعني إن الانسان اذا كان يفعل الخيرات ولا يصلي، أو كان يصلي ولكن صلاته غير صحيحة وتُرفض، تُرفض معها سائر أعماله. إذن فقبول سائر الأعمال مرهون بقبول الصلاة.

وجاء في حديث آخر ان: **«الصلاة قربان كل تقي»**. وهناك حديث آخر يشير إلى ان الشيطان ممتعض من الانسان ما دام مواظباً على صلاته، وما شابه ذلك من الأحاديث الكثيرة عندنا. وحتّى من الممكن استنباط هذا الموضوع الفائق الأهميّة ـ أي موضوع الصلاة ـ من القرآن الكريم.

السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا الصدد هو ما يسمع من البعض

---

(١) التعليم والتربية في الاسلام: ص٣٣٧.

أحياناً ومفاده هل هذه الأحاديث الواردة بشأن أهمية الصلاة صحيحة كلها ؟ أم لا بد وان يكون البعض منها كاذباً أو من الموضوعات ، ولا يمكن نسبته إلى الأئمة وإلى النبي ؟ أو لعلّها وضعت في الظروف التي كثر فيها العباد والزهاد ، أي حينما ازدهر سوق الزهد والعبادة ، وخاصة في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، حيث كثر الزهاد الذين انتهجوا مسلكاً متطرفاً في الزهد والعبادة ووصل بهم الأمر تدريجياً إلى ما يشبه الرهبنة . ومنذ ذلك الوقت ظهر التصوف في العالم الاسلامي . كما نلاحظ ظهور أشخاص في تلك الفترة رموا بكل ثقلهم على العبادة والصلاة ونسوا سائر تكاليفهم الدينية . على سبيل المثال كان هناك رجل من اصحاب أمير المؤمنين اسمه «الربيع بن خثيم» ، وهو الخواجة ربيع الذي يُنسب إليه الضريح المعروف الموجود في مشهد بخراسان ، ولكني غير متأكد هل القبر له أم لا ، وليس لدي معلومات كافية في هذا الصدد ، ولكن لا شك انّه يُعتبر أحد الزهاد الثمانية في العالم الاسلامي .

الربيع بن خثيم بلغت به العبادة والزهد حدّاً دعاه في أواخر عمره[1] إلى حفر قبره ، وكان يذهب وينام فيه أحياناً وينصح نفسه ، ويقول : لا تنسَ انّك في ختام المطاف ستأتي إلى هنا . والجملة الوحيدة التي سمعت منه في غير الدعاء هي قوله عندما بلغه استشهاد الامام الحسين بن علي عليهما السلام : «ويل لأمّة قتلت ابن بنت نبيّها» .

ويقال انّه كان يستغفر في ما بعد على قوله هذه الكلمة في غير الدعاء .

هذا الرجل نفسه كان يقاتل في جيش الامام علي عليه السلام ، وجاءه في أحد الأيام وقال له : «يا أمير المؤمنين ، إنا شككنا في هذا القتال» وحينما

---

(١) عاش هذا الرجل عشرين سنة من بعد شهادة أمير المؤمنين إلى شهادة الامام الحسين ، ولم ينطق خلال هذه المدّة بكلمة غير الذكر .

يقول «أنا» يتضح انّه يمثل جماعة آخرين شكوا في القتال لأنهم يحاربون أهل قبلة مثلهم يشهدون بالشهادتين ويصلون.

وهو في الوقت ذاته كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكن راغباً في الاعتزال عن المعركة، لهذا جاءه ورجاه ان يكلفه بمهمّة لا يشك فيها. فقال له أمير المؤمنين: اذا كان في قلبك شك فاني أُرسلك إلى مكان آخر.

ولا أدري ان كان هو طلب ذلك، أم أنّ أمير المؤمنين بادر بارساله إلى أحد الثغور ليخدم الاسلام هناك، وفي الثغور والمناطق الحدودية اذا حدث هناك قتال فانَّ الطرف الآخر أمّا أن يكون من الكفار أو من عبدة الاوثان، ولا يكون ثمة شك في وجوب قتالهم.

كان هذا مثالاً للزهاد والعُبّاد في ذلك العصر. فكم لهذا الزهد ولهذه العبادة من قيمة؟ في الحقيقة انّها فارغة من أية قيمة؛ فلا معنى لأن يكون المرء في جيش رجل كعلي ولكنه يشك في الوجهة التي يأمره بها، هل هي صحيحة أم لا؟ فيحاول العمل بالاحتياط. كالذي يقول: لماذا اصوم صوم الشك. وهذا يقول: لماذا اقاتل في موضع أشك فيه؟

الاسلام يريد من المرء ان يكون ذا بصيرة. يريد منه عملاً وبصيرة. هذا الرجل (الخواجة ربيع) لا بصيرة له، لأنّه اختار الانطواء والعزلة في عهد شخص ظالم كمعاوية، وشخص أكثر ظلماً منه مثل ابنه يزيد. فمعاوية كان يعبث بدين الله فساداً، ويزيد ارتكب افضع جريمة في تاريخ الاسلام، وافنى كل ما تحمله الرسول من مشاق. اختار هذا الرجل العزلة وانكب على الصلاة ولا يجري على لسانه شيء غير ذكر الله. ولم ينطق سوى ذلك كلمة واحدة في شهادة الامام الحسين ثم انّه ندم عليها لاحقاً لأنّها كانت في شؤون الدنيا.

وتأسف لأنه لم يقل بدلها «سبحان الله» أو «الحمد لله»، أو لماذا لم ينطق

بدلها بكلمات «يا حي يا قيّوم»، «الله أكبر» أو «لا حول ولا قوّة الا بالله».

هذا السلوك لا يتسق مع تعاليم الاسلام، وان «الجاهل اما مفرِط أو مفرّط».

يزعم البعض ان هذه الكلمة: «الصلاة عمود الدين» لا تنطبق وتعاليم الاسلام؛ فالاسلام يمنح أهمية للقضايا الاجتماعية أكثر من أي شيء آخر، وهو دين **﴿انّ الله يأمر بالعدل والاحسان»﴾**[1]، ودين **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط﴾**[2]، ودين **﴿كنتم خير امّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾**[3]. الاسلام دين العمل والنشاط والجد، وهو دين عظيم يولي أهمية لمثل هذه القضايا. فكيف يتسنى له أن يمنح العبادة أهمية كهذه؟

هذا لا يمكن. اذن فالعبادة ليست ذات أهمية كبيرة في الشريعة الاسلامية، وانّما المهم فيها هي التعاليم الاخلاقية، والشؤون الاجتماعية. وقضية العبادة من شأن البطالين. الذين ليس لديهم عمل مهم يجب عليهم الانشغال بالصلاة والعبادة. أما الذين يؤدون أعمالاً مهمة فلا داعي لأن يهتموا بالعبادة.

وهذا النمط من التفكير مغلوط أيضاً وينطوي على خطورة بالغة. فالاسلام لابد وأن يعرف كما هو. وأنا اقول هذا الكلام لأنني اشعر بوجود هذا المرض في مجتمعنا. ومن المؤسف أن المتحمسين للاسلام (ولا أقصد الجميع طبعاً) في مجتمعنا ينقسمون إلى فئتين:

فئة تفكر على شاكلة الربيع بن خثيمي؛ ولا يعني الاسلام عندهم سوى

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران: ١١٠.

الذكر والدعاء والنوافل وزيارة عاشوراء والذهاب للـزيارة ومـا شـابه ذلك ، ويتلخص عندهم كل الاسلام في كتاب «مفاتيح الجنان» ولا شيء آخر سواه. وهم لا شأن لهم بهذا العالم ، ولا بهذه الحياة ، ولا بالشؤون الاجتماعية للاسلام ، ولا بأركانه واصوله ، ولا بتعاليمه التربوية . بل ولا شأن لهم أساساً بأي شـيء آخر .

ونتيجة للموقف المتميّع لهذه الفئة ، ظهرت فئة ذات موقف متصلّب تولي القضايا الاجتماعية أهميتها ، وتتميز بالحساسية ازاء هذه القـضايا . ويـبدو ان افراد هذه الفئة أكثر قيمة مـن اولئك. ولكـني لاحـظت ان بـعضهم تـتوفر له الاستطاعة لكنه لا يذهب إلى الحج .

هذه الفئة أيضاً متمسكة بالاسلام وحريصة عليه ، لكن البعض منهم لا يعير أهمية للحج ، ولا للصلاة ، ولا يبالي لوجوب التقليد . مع أن التـقليد أمـر معقول . وماذا يعني التقليد ؟ التقليد يعني أما ان يستنبط المرء الأحكـام بشأن مواضيع كالصوم والصلاة ، اي أن يتعمق في دراستها إلى الحـد الذي يُـتيح له استنباط الأحكام بنفسه . وأماأن تعمل بالاحتياط وعندها تكون مهمتك فـي غاية الصعوبة ، وأما ان تقلّد متخصصاً عالماً عادلاً جامعاً للشرائط ، كمراجعتك للطبيب المتخصص ، فتتصرف وفقاً لرأيه .

لا يمكن أن يبقى الانسان بلا تقليد ، وهو اذا لم يقلد ، تـتضاعف عـليه المشقّة . أو قد تجد البعض لا يعير أهمية لصومه . فاذا سافر ، وافطر لا يقضي ما في ذمّته من صوم . هذه الفئة أيضاً يعتبرون أنفسهم مسلمين كـاملين ، والفـئة الأُولى كذلك يعتبرون أنفسهم مسلمين كاملين . في حين لا هـؤلاء مسـلمون كاملون ولا اولئك . الاسلام لا يجوز فيه «نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض» . لا يجوز للمرء أن يتمسك بجانب العبادة في الاسلام ويُهمل الجانب الاخـلاقي

والجانب الاجتماعي، أو يهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا يجوز له التمسّك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واهمال الجانب العبادي.

لاحظوا أن القرآن حيثما يقول «اقيموا الصلاة» يقول بعدها «وآتوا الزكاة»؛ فاذا قال «اقام الصلاة» يقول بعدها «وآتى الزكاة». واذا قال «يقيمون الصلاة» يقول بعدها «ويؤتون الزكاة». اقامة الصلاة تختص بالعلاقة بين المرء وربّه، وايتاء الزكاة يختص بالعلاقة بين العبد وسائر العبادة.

المسلم لابدّ له وأن يحتفظ بعلاقة ثابتة بينه وبين ربّه، كما لابد له من علاقة ثابتة بينه وبين المجتمع. لا يمكن بناء المجتمع الاسلامي بدون العبادة وبدون ذكر الله وبدون المناجاة، وبدون حضور القلب، وبدون الصلاة، وبدون الصوم. وحتى الانسان نفسه لا يكون سالماً في مجتمع كهذا. ومن جهة اخرى لا يمكن للمرء ان يكون عابداً بمعنى الكلمة اذا انعدم المجتمع السليم، والبيئة السليمة، أو اذا غاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واذا انعدم التعاطف والتواصل والتراحم بين افراد المجتمع.

◙ علي عليه السلام رجل العبادة والمجتمع:

حين النظر إلى حياة علي بن ابي طالب عليه السلام نجد فيه عابداً من الدرجة الأولى حتّى انّه صار مثلاً في العبادة، ولم تكن عبادته مجرّد ركوع وسجود، بل كانت زاخرة بالاخلاص وحضور القلب والصدق والشوق والبكاء والدموع.

بعدما رحل علي عليه السلام من الدنيا، لقي معاوية رجلاً اسمه «ضرار» كان من أصحاب علي، فطلب منه معاوية أن يصف له علياً، معاوية نفسه كان اعرف الناس بعلي، الاّ انّه كان يحب أن يسمع ذلك من الآخرين لأنّه كان في أعماق قلبه يكنّ له الولاء مع انّه كان يقاتله.

هذه هي طبيعة البشر. كان يعتقد بعلي مثلما كان الشيطان يعتقد بـآدم. ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتورع عن ارتكاب اية جريمة ضد علي. ضرار هذا نقل لمعاوية أحد المواقف التي شاهدها عن علي وقال: شاهدته ليلة في محرابه «يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين .. الخ» حتّى بكى معاوية[1].

هذا عن عبادة علي. ولكن هل كان رجل محراب فحسب، ولا تجد له أثراً في مكان آخر؟

لا، فهذا الانسان أكثر الناس اندكاكاً في المجتمع من جميع الجوانب؛ كان أعرف الناس بأحوال الفقراء والمساكين وأصحاب المظالم مع أنّه كان خليفة. كان في النهار يلقي درّته على كتفه ويطوف بين الناس ويتفقد أحوالهم، وحينما يبلغ التجار كان يرفع صوته «الفقه ثم المتجر». واذا رأى شخصاً جاء إلى عمله متأخّراً كان يحثه على العجلة وينادي: «اغدوا إلى عزّكم».

هذا الحديث سمعته في مواطن متعددة ولكن لا أدري اين. ولكني سمعته لاوّل مرّة على لسان المرحوم آية الله العظمى البروجردي، حينما جاءه سائل، فنظر اليه فوجده رجلاً قوياً قادراً على العمل والكسب ولكن يبدو انّه اتخذ السؤال مهنة، فنصحه المرحوم وقال له ضمن نصيحته ان أمير المؤمنين عليه السلام كان ينادي بالناس: «اغدوا إلى عزّكم». أي بكّروا بالذهاب إلى العمل والكد والكسب الذي فيه رزقكم وعزكم وكرامتكم. فعندما يكون للانسان مصدر للعيش ويدير حياته بنفسه يغدو عزيزاً وكريماً، ويمكن ان يقال عنه انّه مسلم حقيقي.

كان علي عليه السلام عابداً من الدرجة الأُولى. وحينما كان يجلس في

---

(١) مقالات اسلامية: ص٤٩ ـ ٥٧.

مسند القضاء كان قاضياً عادلاً لا يحيد عن الحق قيد شعرة. وفي ساحة الحرب كان جندياً شجاعاً وقائداً من الطراز الأول حتّى انّه قال عن نفسه: لقد قاتلت منذ أول شبابي ولديَّ تجربة في الحروب. وعلى منصّة الخطابة كان خطيباً بارعاً، وفي التدريس كان معلماً ماهراً. وهذا شأنه في كل فضيلة. هذا مثال للانسان الكامل في الاسلام.

الاسلام لا يؤمن مطلقاً بـ«نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض» ليقول قائل هذا اقبله من الاسلام وهذا لا اقبله، أو أعتقد بهذا الجانب ولا اعتقد بذاك. الانحرافات التي وقعت في العالم الاسلامي كان هذا مصدرها حيث تمسك البعض بركن من اركان الاسلام وترك الأركان الأُخرى. فهذا النمط من السلوك يؤدى تلقائياً إلى فساد جميع الاجزاء. مثلما كان مسلك الكثير من الزهاد مغلوطاً في ما مضى.

اسلوب الذين يبحثون عن الاسلام كله في مفاتيح الجنان أو في الدعاء اسلوب مغلوط. وكذلك المنهج الذي انتهجه البعض فترك النافلة والفريضة والدعاء وصار يفكر في الجانب الاجتماعي فقط، هو منهج مغلوط أيضاً[1].

(١) مقالات اسلامية: ص٥٨ ـ ٦٠.

صفات أصحاب الرسول «ص»

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿محمّد رسول الله والّذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1].

هنا تتضح معالم المجتمع الاسلامي، والقضية الأُولى المذكورة هي صحبة الرسول والايمان به. والقضيّة الثانية هي الشدّة على الكفار، أي القوّة أمام الاجنبي. اذن هؤلاء المتنسكين الثاوين في المساجد ويكفي جندي واحد ليسوق الفاً منهم بلا أن ينبس أحد منهم ببنت شفة، هؤلاء ليسوا مسلمين.

◘ الشدّة على العدوّ:

احدى الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم، وهي الصفة الأولى التي يذكرها له القرآن هي الشدّة والقوّة والصلابة مع العدو. الاسلام لا يحب المؤمن الضعيف.

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[2].

الاسلام دين لا ضعف فيه. يذكر ويل ديورانت في كتابه، «قصّة الحضارة».

«لم يدع دين اتباعه إلى القوّة كالاسلام». المسكنة، وثني الرقبة، واسالة

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩.

اللعاب من جانب الفم، وانهدال الثوب، والثياب القذرة، وخط الارجل بالارض، واذيال العباءة تكنس الارض هذه مظاهر معادية للاسلام. والتأوّهُ والتوجع منافٍ للاسلام: ﴿وأما بنعمة ربّك فحدّث﴾[1]. ان الله منحك القوّة والقدرة والصحة والسلامة، وجعلك قادراً على أن تمشي منتصب القامة، لماذا تحني ظهرك بلا سبب؟ وما دمت قادراً على رفع رأسك لماذا تلوي رقبتك؟ ولماذا تتأوه؟ التأوه يعني انك تعاني من ألم، وما دام الله قد عافاك من الألم، لماذا تتأوه؟ هذا كفر بالنعمة هل كان علي يمشي كما نمشي انا وأنت؟ هل كان يجر أذيال عباءته وراءه ويترنّح في مشيته؟ هذه الأفعال ليست من الاسلام في شيء. المسلمون يجب أن يكونوا أشداء على الكفار كالحديد وكسَدٍّ الاسكندر.

▣ المودّة في ما بينهم:

ولكن كيف تكون علاقتهم في ما بينهم وبين اخوانهم المسلمين؟ «رحماء بينهم». ولكن حينما ننظر إلى هؤلاء المتنسكين لا نجد فيهم شيئاً من هذه الصفة؛ فلا مودّة ولا رحمة تجاه الآخرين. ودائماً عابسة وجوههم لا يتفاعلون مع أحد، ولا يخالطون أحداً، ولا يضحكون مع أحد، ولا يبتسمون مع أحد، وكأن لهم المنّة على كل البشر. هؤلاء ليسوا مسلمين. هؤلاء لصقوا أنفسهم بالاسلام.

هذه هي الصفة الثانية. الا تكفي هذه الشدّة على الكفار والرحمة مع المسلمين؟ الا تكفي هذه ليكون المرء مسلماً؟ كلا.

▣ الركوع والسجود لله:

﴿تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾[2]

---

(١) سورة الضحى: ١١.

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

وفي نفس الوقت الذي يكون فيه هذا الشخص شديداً على الكفار ورحيماً مع المسلمين، تراه في محراب الصلاة راكعاً ساجداً **﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾**. يدعو ربّه لينال رضاه. نحن طبعاً لا نريد القول بوجود فرق بين الدعاء والعبادة: فالدعاء عبادة، والعبادة دعاء. ولكن أحياناً يكون العمل دعاءً صرفاً. أي أن العبادة تكون دعاءً فقط. وأحياناً اخرى يمتزج في العبادة الدعاء وغيره. وهناك عبادة أخرى ليست دعاء أساساً كالصلاة مثلاً.

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السّجود﴾، أي أن المرء يعبد الله حتّى تتضح آثار العبادة وآثار التقوى على وجناته وعلى وجهه، وكل من ينظر إليه يستشعر فيه في وجهه معرفة الله وذكر الله، ومن يقع بصره عليه، يذكر الله. جاء في حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الحواريين سألوا عيسى بن مريم: «يا روح الله من نجالس؟» قال: «من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الخير عمله».

ثم جاءت تتمة الآية:

﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفّار﴾[1].

ورد ذكر هذه الصفة لهم في التوراة؛ فقالت عنهم انّه ستأتي مثل هذه الأمّة. وفي الانجيل مثل لهم بهذه الصفات. هذه الأمة تنمو بهذه الصورة التي ادهشت المتخصصين في دراسة الانسان؛ يا لها من امة سامية، ويا لها من أمّة تسير نحو المجد والرفعة. أمّة أبناؤها أشداء على الكفار ورحماء بينهم، وركّعاً وسجّداً. ويبتغون فضلاً من الله ورضواناً،من الطبيعي جداً أن تكون امّة سامية.

ولكن لماذا يا ترى نعيش نحن المسلمون في هذه الحالة من الانحطاط؟

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

ولماذا نعاني من هذه الرزايا والمصائب ؟ وأي من هذه الصفات متوفّرة فينا ؟ وما هي الغاية المنشودة منّا؟[1]

◘ العبادة والتحرّر :

جاء في نص القرآن الكريم ان أحد الأهداف التي بعث من أجلها الأنبياء هو تحرير بني الانسان اجتماعياً ، هي استنقاذهم من العبودية لأحدهم الآخر[2].

وإحدى الملاحم التي ينفرد بها القرآن الكريم هي قضيّة الحرية الاجتماعية .

لا أتصوّر امكان جملة اخرى ذات عمق ونبضة بالفاعلية أكثر من الجملة الواردة في القرآن الكريم في هذا الصدد. لا يمكن العثور لا في القرن الثامن عشر ولا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين ، أي القرون التي رفع فيها الفلاسفة شعار تحرير الانسان ، وصارت هذه الكلمة متداولة على الألسن أكثر من اللازم ، وغدت شعاراً يتغنى به الجميع ، لا يمكن العثور على جملة أكثر بلاغة مما ورد في القرآن ، وهو قوله :

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[3].

وفي ظل هذه الدعوة تنعدم جميع الفوارق وتزول اسباب التفاضل ، ويُلغى نظام السادة والعبيد. ولا يحق لأحد استغلال الآخر ولا استعباده[4].

---

(١) مقالات اسلامية : ص ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) مقالات اسلامية : ص ١٢.

(٣) آل عمران : ٦٤.

(٤) مقالات اسلامية : ص ١٣.

◘ العبادة نزوع إلى الداخل وإلى الخارج :

الانسان الكامل الذي يطمح اليه الاسلام؛ انسان ذو طبيعة شمولية . لديه نزوع إلى داخل ذاته من جهة ، وهو في الوقت ذاته ذو نزعة اجتماعية من جهة اخرى ، أي أنّه لا يتصف بالانطوائية على الذات . واذا كان يغور في ذاته ليلاً وينسى الدنيا وما فيها ، فهو يعيش نهاراً في خضم المجتمع ، كما ورد الوصف بشأن اصحاب الامام الحجة عجل الله فرجه الذين هم مثال للانسان الكامل ، فقيل فيهم انهم «رهبان بالليل ، ليوث بالنهار» .

والقرآن الكريم أيضاً ينطق بوصف ينطبق عليهم وعلى غيرهم وهو قوله : **﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون﴾** وهذه كلها صفات للجانب الداخلي فيهم . ثم يقول بعد ذلك مباشرة **﴿الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾**[1] أي دخل في الحال إلى الجانب الاجتماعي فيهم ؛ أي أنّهم المصلحون في مجتمعهم[2].

القرآن يتحدث بشكل شمولي . في وقت ما كان مجتمعنا مصاباً بمرض وهو انه كان يرى التديّن ينحصر في العبادة . ولكن أية عبادة ؟!كان ملاك التدين فيه كثرة الذهاب إلى المسجد وكثرة الدعاء . لقد تحولت هذه الظاهرة إلى مرض . ولكن ظهرت إلى جانبها أيضاً وبشكل تدريجي أعراض مرض آخر . وهو ان البعض اصبح لديه اهتمام بالجانب الاجتماعي للاسلام ، مع اهمال تدريجي للجانب المعنوي فيه . وهذا أيضاً مرض آخر .

ولو أن مجتمعنا ركّز على هذا الجانب ونسي الجانب الآخر فهو أيضاً مجتمع منحرف بنفس القدر الذي كان فيه المجتمع السابق منحرفاً .كان المجتمع

---

(١) سورة التوبة : ١١٢ .

(٢) الانسان الكامل : ص١٨٧ .

الذي بناه رسول الله مجتمعاً متّزناً. وحينما يطالع المرء التاريخ يجد أن افـراد ذلك المجتمع لا نظير لهم في كل العالم؛ وأولئك الذين قدموا لمحاربة الفرس والروم، كان أحدهم «قائم بالليل وصائم بالنهار»، وفي الوقت ذاته «ضـارب بالسيف». ولو كان أحدهم يكتفي بالقيام ليلاً والصيام نهاراً، لماكان مسلماً. أو اذاكان يضرب بالسيف بلا اية مزايا اخرى فهو انسان يسير وراء اطماعه، شأنه في ذلك شأن الغزاةالآخرين في العالم الذين يركضون وراء اطـماعهم. وانّـما قيمة مثل هذا الانسان في شموليته. ونحن يجب أن لا ننسى ان هذه الخاصية الشمولية التي يتميز بها الاسلام، تعزى إلى انّه ـ أي الاسلام ـ مـثله مـثل أي مركّب آخر، اذا فقدت اجزاؤه اتزانها يتلاشى وجوده. أنتم تلاحظون في بناء جسم الانسان مثلاً حيث يحتاج لعناصر كثيرة لاجل ديمومته، وإذا مـا ازداد بعضها أو نقص عن الحدّ الطبيعي، يفقد سلامته[1].

▣ العبادة والعزلة:

ذكر الشاعر سعدي الشيرازي في كتابه «روضةالورد» قصّة مفادها:

رأيت شـيخاً عـاكـفاً فـي غـارِ نـاءٍ بـه عـن صـحبة الاشـرارِ
فـقلت قُـم واذهب لبـعض المُـدْنِ تُـلقِ عـن القـلب هـموم الحُـزنِ[2]

ان عابداً لاذ بغار في جبل يعبد فيه ربّه، فلقيه سعدي فقال له: لماذا لا تأتي إلى المدينة لمخالطة الناس؟ فتذرع بعذر، ويبدو ان سكوت سعدي عنه دليل على اقتناعه بذلك العذر. يقول:

فقال كم حوراء فـيها ذات دَلْ تزلق رجل الفيل منها بالوحَلْ

أي أن الوجوه الجميلة في المدينة كثيرة واذا وقع بصري عليها لا استطيع

---

(١) التعليم والتربية: ص ٣٤٤.

(٢) روضةالورد: الباب الرابع، الحكاية ١٨ (الترجمة العربية).

ضبط نفسي ولهذا لجأت إلى هذا الغار لصيانة نفسي. يا له من كمال مدهش! يحبس الانسان نفسه في غار ليبلغ مرحلة الكمال! هذا ليس كمال يا شيخ سعدي! لقد نقل لك القرآن أحسن القصص؛ وهي قصّة يوسف التي ذكر فيها «انّه من يتّق ويصبر». أي أن القرآن يأمرك أنت أيضاً بأن تكون كيوسف. لقد توفرت له جميع المستلزمات والظروف لارتكاب المعصية وحتّى ان سبل الفرار اغلقت أمامه. لكنه في الوقت ذاته حفظ عفّته، وفتح الابواب التي اغلقت عليه.[1]

▣ العبادة والمتصدّون لزمام الحكم:

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿ولينصرنَّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز﴾[2].

يصف القرآن الناس الذين يساعدهم الله للدفاع عن أنفسهم، ويصف الناس الذين يتسنّى لهم اقامة الحكومة بالوصف التالي: **﴿الذين انْ مكّناهم في الأرض﴾** وجعلنا بيدهم السلطة، ماذا يفعلون: **﴿أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾**.

فالصلاة رمز للعلاقة السليمة مع الله، والزكاة ترمز للتعاون والتكافل الصحيح بين العباد، والذين يعبدون الله باخلاص ويساعدون بعضهم الآخر **﴿وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**[3].[4]

▣ العبادة والزواج:

للزواج قدسية في الاسلام من عدّة اوجه عملية (خلافاً للديانة المسحية التي تقدّس الأعراض عن الزواج، بينما الاسلام يقدس الزواج). ولكن لماذا

---

(١) الانسان الكامل: ص١٣٣.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

(٣) سورة الحج: ٤١.

(٤) كتاب الجهاد: ص٢١.

يقدّس الاسلام الزواج ؟ أحد أسباب هذه القدسية يعود إلى ما ينطوي عليه الزواج من ابعاد تربوية لروح الانسان. فهناك نضوج ونوعه من الكمال يتحقق للانسان إلّا بالزواج.

فلو ان رجلاً لم يتزوج حتّى آخر حياته، أو امرأة لم تتزوج حتّى آخر حياتها تبقى روحه، أو روحها ذات طبيعة فجّة حتّى وان بقي يرتاض طوال حياته، وحتّى اذا أنهى عمره بالصلاة، وحتّى وان صام كل دهره، وحتّى اذا افنى عمره بالمراقبة وبمجاهدة النفس. وسبب ذلك يعود إلى عدم الزواج. وقد سن الاسلام الزواج لكل من الرجل والمرأة انطلاقاً من تأثيره في تربية وصقل الروح الانسانية. والعوامل المؤثرة في تربية الانسان كل واحد منها له تأثيره في موضعه ولا يمكنه ان يحل محل العوامل الأخرى[1].

◙ العبادة والعمل :

أحد اصحاب الامام الصادق عليه السلام، ممن كان يحضر دروسه بشكل منتظم ويشارك في مجالس الصحابة غاب فترة عن الانظار، ففقده الامام وسأل عنه اصدقاءه، فقيل له :

ـ أصبح يا ابن رسول الله في الفترة الأخيرة في فقر وضيق شديد.

ـ وماذا يفعل الآن ؟

ـ جليس داره، ولا عمل له الا العبادة.

ـ ومن أين يحصل على نفقة عائلته ؟

ـ أحد اصدقائه تبرع بها.

ـ والله أن صديقه أعبد منه[2].

---

(١) مقالات اسلامية، ص ٢٣٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢، ص ٥٢٩.

◘ العبادة والعلم:

دخل رسول الله صلّى الله عليه وآله مسجد المدينة فرأى حلقتين في كل واحدة منهما جماعة؛ الأُولى منهمكة بالعبادة، والاخرى بالتعلّم. فابتهج لرؤية هذا المشهد، والتفت إلى اصحابه وقال لهم: «هاتين الجماعتين على خير وصلاح». ثم انّه أضاف قائلاً: «الا أنني بُعثت لتعليم الناس». ثم انّه قصد الجماعة التي كانت مشغولة بالتعلّم وجلس معهم.[1]

◘ العبادة وتجسيد الوحدة:

تلك الحقيقة التي هي ملك للجميع، ولا تختص بأحد دون غيره هي الله تعالى الذي خلق الخلق واليه معاده. تعالوا لنمضي إليه جميعاً **﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الّا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً﴾**.

ثم يقول: **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**[2] أي أن لا يكون بعضنا خادماً والآخر سيداً، وان تزول أسباب التسلط والعبودية من بيننا، ولا تبقى هناك موجبات للعالي وللداني. ولكن بشرط أن تبدأ المسيرة من هناك؛ من قوله تعالى: **﴿تعالوا إلى كلمة سواء...﴾**. ها هو القرآن ينادي بشعار «نحن» ويتحدث على الدوام بصيغة الجماعة.

في الصلاة بعد ان نحمد الله ونثني عليه **﴿الحمد لله رب العالمين﴾**. فانا حتى وان كنت اصلي مفرداً واريد القول: اللهم اني اعبدك واستعين بك، اقولها بصيغة جماعة المتكلمين وبهذه الصورة: **﴿ايّاك نعبد وايّاك نستعين﴾** ولا أقولها بصيغة المفرد. وفي ختام الصلاة أيضاً نقول: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[3].

---

(١) قصص الابرار، القصة الأُولى.

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

(٣) الانسان الكامل: ص ٣٢١.

◙ العبادة والتعاون :

احدى الفضائل المؤكّدة التي يقرّها الاسلام ويعتبرها فضيلة انسانية هي خدمة خلق الله. وهذا الجانب أوصى به الرسول كثيراً، وحثَّ عليه القرآن الكريم بالقول:

﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾(١).

ولكن تجد انساناً مثل سعدي ـ طبعاً سعدي لم يكن عملياً على هذه الشاكلة وانّما هذا لسان الشعراء ـ ينطلق مرّة واحدة قائلاً: «ليست العبادة الا خدمة الخلق» ولا شيء آخر سواها.

الذين يتفوهون بهذا الكلام يستهدفون سلب فضيلة العبادة، ونفي فضيلة الزهد، وانكار فضيلة العلم، وفضيلة الجهاد وكل الفضائل السامية الاخرى التي اقرها الاسلام للانسان. فيقولون: اتعلمون ماذا تعني الانسانية ؟ تعني خدمة عباد الله. خاصة وان بعض المثقفين اليوم يتصورون انهم بهذا المنطق حققوا انجازاً رائعاً، وصاروا يسمّون هذا المنطق السامي نزعة انسانية.

ولكن ماذا تعني النزعة الانسانية ؟ يقال انّها تعني خدمة خلق الله. ونحن نخدم خلق الله، ونقول بوجوب خدمتهم. ولكن ماذا عن خلق الله ذاتهم ؟ اذا افترضنا اننا أشبعنا بطون خلق الله وكسونا اجسادهم. فنحن انّما نكون قد خدمنا حيواناً. فاذا نحن لم نعترف لهم بقيمة اسمى من هذه، وجعلنا القيم كلها محصورة في اطار خدمة خلق الله، وليس في ذاتنا قيمة اعلى منها، ولا في ذات الاخرين قيمة اسمى منها؛ حينها يكون خلق الله مجموعة من الاغنام أو الخيل،

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

ونكون نحن قد اشبعنا بطون عدد من الحيوانات وكسونا اجسادها.

طبعاً إذا أشبع الانسان بطن حيوانٍ يكون قد قدّم خدمة. ولكن هل الحد الأعلى للانسان يبيح بقاءه في حدود الحيوانية. ويتلخص الحد الأعلى للخدمة في خدمة حيوانات كنفسي، ويكون الحد الاعلى للخدمة التي تقدّمها الحيوانات التي على شاكلتي، هي خدمة حيوان مثلهم ـ وهو أنا ـ؟

أبداً؛ خدمة الانسان ذات قيمة ارفع من هذا الكلام. ولكن بشرط أن تنطبق على الانسان شروط الانسانية. «لومومبا» انسان، و«موسى تشومبي» انسان أيضاً. فاذا كانت القضية تنحصر في نطاق خدمة عباد الله، طيّب، اذن موسى تشومبي أحد عباد الله، ولومومبا أحد عباد الله أيضاً، فلماذا نفرّق بينهما؟ وما الفرق بين «ابي ذر» و«معاوية»، اذا كانت القضية خدمة العباد، ألا يجب خدمتهما كلاهما؟[1]

◘ العلاقة بين ذكر الله وخدمة العباد:

ذكر الله سبب لتقوية قلب الانسان وخاصّة في الظروف العسيرة. وذكر الله يجعل المرء يستمد العون من قدرة الله، ويبعث في نفسه العزم والقوّة.

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾[2]. الصلاة تعني ذكر الله. والقرآن يقول استمدوا العون من الصلاة.

اتذكر قبل سنوات ان شخصاً كان في ما مضى في الحوزة العلمية، ثم تركها وجاء إلى طهران وانضم إلى عصابة احمد كسروي (وهي عصابة كانت تتنكر للدين)، وألّف كتاباً يدحض فيه المذهب الشيعي وقد كتبت رداً عليه. ومن جملة ما سخر منه هذا الشخص هو ذكر الله، اذ قال هل أن رجلاً يحرس

(١) الانسان الكامل: ص٤٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٣.

بيوت الناس في كبد الليل خير وأرضى لله أم شخص يجلس في موضع ما ويحرك شفاهه ويقول أنا أذكر الله ؟

ردّ عليه أحد العلماء بالقول: هذه القضية لها شق ثالث وهو أن هذا الحارس في الوقت الذي يحمل فيه بندقيته ويجوب الشوارع، يذكر الله أيضاً.

فالاسلام لا يأمرك أما أن تكون حارساً وأما أن تذكر الله. ولا يخيرك بين ان تكون طياراً أو تذكر الله، ولا يفرض عليك أما أن تكون ملاحاً في سفينة وأما ان تذكر الله. بل يقول اذكر الله مع كل عمل تمارسه، وحينها تؤدي عملك بشكل أفضل، ويكون اندفاعك للعمل أشد. القرآن لا يأمر الانسان بالجلوس في حجرة واغلاق الابواب على نفسه، والامساك بمسبحة ذات الف حبّة وذكر الله[1].

◘ العبادة والتعاون :

عاد رجل من الحج، وجاء إلى الامام الصادق عليه السلام وجعل يحدثه عن سفره. وذكر له أن رجلاً عابداً كان معهم في سفرهم ذاك وأخذ يثني على ما رآه منه من الصلاح وكثرة العبادة والتضرع والدعاء. وأنّهم ما كانوا يصلون إلى منزل الا سارع هذا الرجل إلى سادته وفرشها في موضع ما وانشغل بالعبادة.

سأله الامام الصادق عليه السلام: ومن كان يؤدي أعماله ؟ ويهتم بحيوانه ؟ فقال الرجل: طبعاً كنّا نحن نتشرف باداء هذا العمل عنه. لأنّه كان مشغولاً بعبادته ولا شأن له بهذه الأمور.

فأجابه الامام الصادق عليه السلام كلكم اذن افضل منه[2].

---

(١) التعرف على القرآن: ص٩٢.
(٢) التعرف على القرآن ص٩٢.

◘ العبادة ومواساة المحرومين :

ثمة سُنّة مشتركة بارزة عند جميع الأئمّة بوضوح ؛ أحدهما الاعتقاد بالله وخشيته وعبادته. فالاعتقاد بالله سمة بارزة في حياتهم، وخشية الله تدفعهم في مواطن كثيرة إلى البكاء والخوف والتضرع وكأنهم يرونه، ويرون القيامة والعذاب، والجنة والنار. جاء في وصف الامام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه كان: «حليف السجدة الطويلة والدموع الغزيرة»[١]. فاذا لم يكن هناك تفاعل في داخل الانسان، فهو لا يبكي.

والسُنّة الثانية التي كان بارزة في حياة جميع ذرّية علي عليه السلام من الأئمّة المعصومين هي مواساة الفقراء والمساكين والمحرومين. اذ ان للانسان عندهم قيمة ثمينة. ولو طالعنا تاريخ كل واحد من الأئمّة نجد الاهتمام بشؤون الضعفاء من جملة اهتماماتهم. وكانوا يتولون هذه المهمة بأنفسهم ولا يوكلون من يؤدي هذه المهمّة نيابة عنهم[٢].

◘ العبادة والاهتمام بالجار :

يروي الامام الحسن عليه السلام انّه حينما كان صغيراً سهر ذات ليلة يستمع لامّه الزهراء عليها السلام وهي تصلي صلاة الليل. وبعد الانتهاء من الصلاة اخذت تدعو للمسلمين بأسمائهم الواحد بعد الآخر ؛ فاردت ان أرى كيف تدعو لنفسها، ولكني دهشت حينما رأيت أنّها لم تدع لنفسها.

وفي اليوم التالي سألتها: لماذا دعوت للجميع ولكنك لم تدعي لنفسك؟ قالت: «**يا بُني الجار ثم الدار**»[٣].

---

(١) منتهى الآمال: ج٢، ص٢٢٢.

(٢) في رحاب الائتمة الأطهار: ص١٨٣.

(٣) پيرامون انقلاب اسلامى: ص٦٢.

▣ العبادة والتسامح :

هناك قصة حول مالك الأشتر لابد وأن الجميع قد سمعها .

كان مالك الأشتر رجلاً قوي البنية ، وكان ذات يوم ماراً في سوق الكوفة ، وكان رجل جالس في الطريق وهو لا يعرف مالك ، فلما مرَّ بقربه رمى عليه ببندقةٍ . فلم يلتفت اليه ومضى على سبيله ، وبعد أن ذهب جاء شخص آخر إلى هذا الرجل وقال له : أتعرف هذا الرجل الذي سخرت منه وأهنته برمي البندقة على وجهه ؟

قال : لا ، ومن هو ؟

قال : هذا مالك الأشتر أمير الجند ، وقائد جيش علي بن أبي طالب عليه السلام .

فقال الرجل : لألحق به وأعتذر منه قبل أن يتخذ أي اجراء ضدّي .

سار وراءه فرآه دخل المسجد وبدأ يصلي . فانتظره إلى أن فرغ من صلاته فجاءه وسلّم عليه وقال له معتذراً : أنا الذي أسأت اليك الأدب قبل قليل . وانني ما كنت أعرفك.

فقال له مالك : والله ما دخلت المسجد الا لأصلي ركعتين وأسال الله لك المغفرة والهداية[1].

▣ العبادة والجهاد :

يتناول القرآن ذكر الفلسفة العامة للجهاد . والقرآن يثير الدهشة حقّاً في بيانه للحقائق وذكره للقضايا وكأنه يواجه بهاالأسئلة والاعتراضات التي يُثيرها المسيحيون حوله قائلين كيف يجيز القرآن ـ وهو كتاب سماوي ـ القتال ؟ بينما

---

(١) فلسفة الاخلاق : ص ٢٤ .

يفترض به أن يدعو إلى السلام والوئام والعبادة.

فيرد القرآن على هذا الاعتراض بالقول: لا، لأنه اذا هجم طرف آخر ولم يجابه من قبل هذا الطرف، تتعرض جميع مراكز العبادة للزوال:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضَهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله﴾[1].

ثم ان القرآن بعد ذلك وعد عباد الله بالنُصرة: **﴿ولينصرنَّ الله من ينصره انّ الله لقويٍ عزيز﴾**.[2] و[3]

▣ العابد وامنية الجهاد:

هنالك قصة معروفة عن أحد أكابر علماء الشيعة رواها لي أحد علماء قم وهي ان المرحوم الفيض الكاشاني كان يقول: من المستبعد أن يكون الامام الحسين عليه السلام قد قال على أصحابه «لا أعلم أصحاباً خيراً من أصحابي»، وأنا لا اصدق انّه قال شيئاً من هذا الكلام.

قيل له: ولماذا؟ قال: ومَا الذي فعلوه حتّى يقول عنهم هذا الكلام؟ فالذين قتلوا الحسين كانوا أناساً في غاية الرذيلة، والذين نصروه لم ينجزوا عملاً ذا بالٍ. أي مسلم لو كان مكانهم وقيل له أن سبط الرسول وإمام الزمان قد تفرّد به القوم لوقف إلى جانبه.

وفي ذات ليلة رأى في المنام وكأنه في صحراء كربلاء وكأن الامام الحسين عليه السلام ومعه ٧٢ رجلاً يقف في جهة، وفي الجهة الأُخرى يقف الجيش المعادي وعدده ٣٠ ألفاً. وترآى له أن الوقت ظهراً وانهم يريدون اقامة الصلاة، وان الامام الحسين قد أمر هذا الشخص نفسه أن يتقدم ويقف أمامه

(١ و ٢) سورة الحج: ٤٠.

(٣) كتاب الجهاد، ص ٢٠.

ريثما يؤدي صلاته. (مثل فعل سعيد بن عبدالله الحنفي ورجل آخر حينما جعلا من نفسيهما درعاً واقياً للحسين حين صلّىٰ ظهر يوم عاشوراء).

كانت السهام تأتي من قبل العدو، وتقدم هذا الرجل ووقف ليقي الحسين منها. وما أن رأى سهماً قادماً من جهة العدو حتّى انحنى؛ فرأى فجأة انّه اصاب الامام. فقال وهو في المنام: استغفر الله ربي وأتوب اليك، يا له من فعل قبيح هذا الذي ارتكبته، هذه المرّة لن أفعل ذلك. وجاءه سهم في المرّة الثانية فانحنى أيضاً، وكذلك في المرّة الثالثة وتكرر هذا الموقف عدّة مرات، ورأى الرجل انّه ينحني لا ارادياً في كلّ مرّة. وحينها قال له الامام:

«اني لا أعلم أصحاباً خيراً ولا أفضل من أصحابي». ومعنى هذا هل ظننت يا رجل كل من قرأ كتاباً يصير مجاهداً؟! والحقيقة ان «من لم يغزُ ولم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق».

هناك قصة في المثنوي تنطبق على هذا الحديث يقول فيها: كان هناك رجل زاهد عابد يؤدي جميع ما عليه من المستحبات والواجبات، وفي ذات يوم حدّث نفسه قائلاً: انني أديت جميع ما يوجب الثواب، الا الجهاد؛ فقد صليت كثيراً، وصمت كثيراً، وزكيت، وحججت، ولكني لم أجاهد.

فذهب وطلب من المجاهدين آنذاك ـ في أيام الصليبيّين ـ أنّه اذا حان وقت الجهاد ان يخبروه لينال ثواب الجهاد. فوعدوه أن يُخبروه بذلك. وفي أحد الأيام جاءوا وقالوا لهذا الرجل الذي لم يجرب الجهاد يوماً في حياته: هيا أيها الزاهد لنذهب للجهاد، وجاءوه بفرس وانطلقوا سائرين.

وفي أحد الأيام كانوا جالسين في خيمة اذ سمعوا الابواق قد عُزفت معلنة بدء الهجوم. فهب من لهم تجربة بالجهاد ووثبوا على خيلهم بخفّة واغاروا على العدو. أما هذا الزاهد فقام وارتدى ثيابه وحمل قوسه وكنانته وتناول سيفه وأعد حصانه على مهل فاستغرق منه هذا العمل وقتاً طويلاً واذا برفاقه قد

عادوا. فسألهم الزاهد عما حصل، فقصوا عليه انهم ذهبوا وقاتلوا وان العدو كان قد اغار من الموضع الفلاني فتصدوا له وقتلوا منهم وهُزِم الباقون وما إلى ذلك ثم عادوا.

قال الزاهد: يا له من موقف مثير، ولكن ماذا عني؟ قالوا له: انّك لم تتحرك بسرعة. قال: اذن حُرمت من نيل ثواب الجهاد! فقال أحد المقاتلين: اعلم اننّا أسرنا أحد جنود العدو وهو رجل خبيث قتل الكثير من المسلمين، وهو الآن مكتوف اليدين في هذه الخيمة ويجب أن يُقتل، واذا كنت تريد أن تنال ثواب الجهاد فاذهب واضرب عنقه.

تقدم اليه الزاهد، ولما رآه ذلك الرجل وكان قوي البنية غليظ الساعدين، حملق بالزاهد وزأر عليه وصاح: لأي شيء جئت؟ وما ان قال هذا الكلام حتّى اغمي على الزاهد. فقام اليه الرجل ـ وكانت يداه مغلولتان ـ وانحنى على رقبته وأخذ يعضه وأوشك ان يقطع وريده بأسنانه. ولما راى المجاهدون أن صاحبهم قد تأخر ذهبوا لاستطلاع الامر. فوجدوا الزاهد مغمىً عليه والكافر على وشك أن يقطع وريده فأخذوه وضربوا عنقه، ورشوا الماء على وجه الزاهد فعاد إلى وعيه. وسألوه عمّا جرى، فقال لهم: والله لا أدري، ما ان دنوت منه حتّى زأر عليَّ ولم أفهم ما حصل بعد ذلك. أجل هذا هو معنى: «من لم يغزُ ولم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق».

نحن نؤدي عبادات جوفاء، أو ضحلة المغزى؛ عبادتنا وصلاتنا ودعاؤنا، وذكرنا وقراءتنا للقرآن وصيامنا عبادات خالية من الروح وظاهرها ضئيل أيضاً، وتؤدي في الغالب إلى خلق الغرور في أنفسنا فنشعر على أثرها بأننا أفضل من جميع بني آدم، مثل هذا المسلم، مسلم زائف، وكما وصفه الرسول صلّى الله عليه وآله انّه اذا مات يموت وهو على شعبة من النفاق[1].

---

(١) التعرف على القرآن: ص١٧٧.

◘ العبادة والكتابات الادبية الاسلامية :

كما نعلم فان أحد اوجه السمو الأدبي الاسلامي ـ سواء العربي أم الفارسي ـ هو أدب الدعاء، والأفكار الدقيقة والشفافة التي ينطوي عليها مما يثير العجب ويبعث على الاستحسان.

وعند مقارنة أدب الدعاء في الاسلام مع ما كان سائداً قبله من أدب عاطفي الهي يمكننا الوقوف على مدى عظمة تلك النهضة، بل الثورة التي أحدثها الاسلام في الأفكار وكانت على درجة عالية من العمق والشمول والرقّة. لقد صنع الاسلام من أولئك الناس الذين كانوا يعبدون الاوثان أو الانسان أو النيران أو الثيران ـ ويتضرعون بسبب قصر أفكارهم لما يصنعونه بأيديهم ـ أو يعتبرون الأب والابن شيئاً واحداً، أو يصنعون «لأهورا مزدا» (إله الخير في الديانة الزرادشتية) صنماً يضعونه في كل مكان ويعبدونه ويسجدون له، صنع الاسلام من أولئك أُناساً تستوعب عقولهم أدق الافكار وألطفها وأسمى المعاني وأرقاها.

فما الذي حدث وقاد إلى تغيير الأفكار والعقول والسمو بها إلى الذرى، وأدى إلى قلب المقاييس والقيم؟

المعلقات السبع ونهج البلاغة نتاجان لعهدين متقاربين بين الجاهلية والاسلام. وكل منهما مثل أعلى في الفصاحة والبلاغة بلغة عصره ومصره. أما من ناحية المضمون فهيهات هيهات! وشتّان ما بين الثرى والثريا! فكل ما في الأول لا يتعدى أوصاف الخيول والرماح والجمال والجَمال والمدح والذم والهوى والغرام والغزل والنسيب والتشبيب بالعيون والحواجب للكواعب، أما الثاني فزاخر بأسمى المفاهيم الانسانية وأعلاها وأزكاها وأطيبها وأنماها[1].

---

(١) في رحاب نهج البلاغة: ص ٧٤.

آثار العبادة

◘ أهمية الزمان والمكان :

الأجزاء المكانية ؛ أي الحيّز المكاني من الأرض قد يكون فيه اختلاف بين بقعة وأخرى . وأجزاء المكان ليست ببساطة أجزاء الزمـان . اذ ان هـناك فوارق بينهما ، ولكن هل هي فوارق معنوية ؟ أي بقطع النظر عن ارتباطها بأي حدث أو واقعة ، وقبل أن يوجد أي انسان في العالم ، هـل يكـون لبـقعة مـن الأرض فضل على غيرها من البقاع ؟

هل أرض مكّة أو الكعبة ، قبل خلق الانسان على الأرض وقبل ظهور ابراهيم واسماعيل ، كانت تمتاز على غيرها من البقاع ؟ الجواب هـو أن ليس لاجزاء الزمان ولا لأجزاء المكان بذاتها أي اختلاف معنوي في مابينها . فليس ثمة أرض طيّبة ولا أُخرى خبيثة من الواجهة المعنوية . أجـزاء الأرض كـلها متساوية . غير أن حالها قد يتغير لأمر عارض فتصبح طيبة ، كبقعة أرض كانت متروكة ثم يشاد عليها مسجد فتصبح معبداً ، وتصبح لها سـلسلة مـن الآداب والفروض الخاصة ، وحينها تكون مباركة . ولكن لماذا ؟

لأننا جعلنا فوقها مسجداً . وكذلك البلدان ؛ ذلك أن الله يعلم منذ الازل أن الأرض الفلانية ستكون مباركة لسبب ما . ومعرفة الأرض بهذا الأمر شيء ، وأن تكون الأرض بذاتها مباركة شيء آخر . فالكعبة ـ منذ ابراهيم ، بل لعلّها منذ آدم

ـكانت هي المنطقة التي وقع عليها الاختيار لتكون مسجداً يُعبد فيها الله الواحد الأحد وهي بالاضافة إلى كونها مسجداً تسمى ببيت الله أيضاً.

الاحترام الذي تحظى به الكعبة يفوق احترام أي مسجد آخر. وقد يُقدَّس مسجد ما بسبب أن ولياً من أولياء الله صلى فيه. مساجد العراق مثلاً كلها مقدسة، الا أنّ أحدها يفوقها قداسة؛ لأن الامام علي عليه السلام صلى، أو خطب فيه، أو القى فيه موعظة. وكذلك المسجد الذي صلى فيه الامام زين العابدين ركعتين، يُستحب أن نؤدي فيه نحن أيضاً ركعتين من الصلاة. وهذا يعكس أهمية وقيمة العبادة.

فالكعبة اذن نالت شرفاً لم ينله مسجد ولا معبد سواها. وكذلك الأمر بالنسبة للزمن الذي يكتسب فضله من الانسان. فالقدر الذي يحدد فيه زمناً للعبادة، وينشغل الناس بالعبادة أثناءه، أي أن الانسان يتعبد في ذات الوقت الذي يتعبد فيه الآخرون، كل هذه الدعوات والصلوات تُرفع إلى السماء مرة واحدة، وحين تكون هذه فضيلة أُخرى.

نعود الآن إلى ليلة القدر. انطلاقاً من قول القرآن: ليلة القدر هذه التي هي خير من الف شهر، انّما هي ليلة واحدة على مدى الحياة، وهي الليلة التي نزل فيها القرآن على الرسول صلّى الله عليه وآله. يذكر بعض أبناء السنة ان القضية ليست بهذا الشكل، وان ليلة القدر أكثر من ليلة واحدة، كانت تتكرر كل سنة طيلة حياة الرسول صلّى الله عليه وآله، وبعد رحيله، زالت ليلة القدر أيضاً. هذا الكلام لا أساس له، وليلة القدر مستمرة.

ولكن هل كانت ليلة القدر للنبي؟ يقول هو صلّى الله عليه وآله: نعم: كانت والأنبياء كلّهم كانت لهم ليالي قدر. تُرى هل كانت ليلة القدر موجودة قبل وجود أي انسان أو نبيّ على وجه الأرض؟ هذا الأمر موضع تأمل.

ليلة القدر تعني ليلة الانسان الكامل، ليلة الولي الكامل .ولكن ما الذي نفهمه من القرآن نفسه ؟ القرآن بعد أن يقول : ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر..﴾ يقول بعدها : ﴿خير من ألف شهر﴾ ولم يقل أنّها كانت خير من الف شهر . والأهم من هذا هو ان ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر...﴾ جاء الفعل فيها بصيغة الماضي، ولكنه بعد ذلك يستخدم المضارع دلالة على الاستمرار والدوام؛ فيقول : ﴿تنزّل الملائكة والروح...﴾ أي أن الملائكة والروح ينزلون بأمر ربّهم إلى الأرض، فهي ليلة لم ينقطع فيها الارتباط بين السماء والأرض، هي ليلة الارتباط بين السماء والأرض، حيث لا ينزل ملك أو ملكان، بل الملائكة والروح (ينزلون)، بصيغة المضارع، وليس «نزلوا» بصيغة الماضي.

◙ الذين لا يرون استمرارية ليلة القدر نفر ضئيلون :

يقول الأئمّة عليهم السلام : اسألوهم : حينما تنزل الملائكة والروح ليلة القدر، أين تنزل ؟ هل تنزل على الأرض ؟ أم تنزل على القلب ؟ الملائكة تنزل على الانسان، وعلى قلبه بالذات . وهذا يعني ان قلبه ينبغي أن يكون قلباً جديراً بنزول الملائكة عليه . اذ لا معنى للنزول غير هذا المعنى .

فالقضية اذن هي أن ليلة القدر تعتبر ليلة الانسان الكامل . ولكن لماذا تكون هذه الليلة في شهر رمضان ؟ في الدين الاسلام لا معنى لوقوع ليلة القدر في غير شهر رمضان .

للأنبياء والأولياء، كالأئمّة الأطهار الذين يُعتبرون أعلى منزلة من كثير من الانبياء ـ قضايا تختص بعالمهم القريب من الله، لا نستطيع نحن الوقوف عليها .

موسى بعد أن بعث نبياً وأُريد انزال الالواح عليه ذهب لميقات ربّه، ولم

يتسنى له اجتياز الاختبار السلوكي خلال ثلاثين ليلة ﴿وأتممناها بعشر﴾[1].

كانت المدّة المقررة ثلاثين ليلة، بَذَل موسى خلالها جهوداً بالغة لنيل درجة الكفاءة النهائية ولكنه لم ينجح، فأضيفت اليها عشر ليال اخر. كانت الليالي الأُولى قد بدأت من أول شهر ذي القعدة إلى نهايته، ولكنه بعدما كُتب عليه الاخفاق، اضيفت اليها عشر ليال اخرى؛ ابتداءً من أول شهر ذي الحجّة وحتى الليلة العاشرة منه. وحينذاك شرح قلبه ونال ماكان ينبغي له نيله. هذا كله حصل لموسى بعد دورة التأهيل للنبوّة.

لكل انسان ولكل ولي دورة واحدة في السنة، بل أن كل انسان ولكل مؤمن مكلف باقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، ولكن له شهر واحد مخصص للعبادة وللتزكية وللانقطاع لله، وللتسمي، وذاك هو شهر رمضان.

شهر رمضان مخصص لهذا الغرض. ولهذا غدا أفضل اشهر السنة. وهذا ما يراه الاسلام على أقل تقدير.

لعل اليوم العاشر من ذي القعدة يُعد أفضل الايام عندموسى عليه السلام. لكن شهر رمضان هو أفضل الايام عند نبي الاسلام صلّى الله عليه وآله. في هذا الشهر يستفيد الامام أكثر مما نستفيده نحن مائة مرّة، حيث يبدأ دورته السلوكية منذ مطلعه حتّى يصل إلى ليلة القدر وعندئذ تفتح له الأبواب و«تنزل الملائكة والروح ...».

ولكن أي الليالي هي ليلة القدر؟ الروايات لم تبيّن ذلك لسبب متعمد. هل ليلة القدر هي الليلة التاسعة عشرة؟ أم الليلة الحادية والعشرون؟ أم الثالثة والعشرون؟ أم أن بعض القضايا تتعين في الليلة التاسعة عشر، ثم تبرم في الليلة الحادية والعشرين، ثم تبلغ مثلاً مرحلة المصادقة عليها في الليلة الثالثة

(١) سورة الأعراف: ١٤٢.

والعشرن ؟

وهناك احتمال آخر يُعزى اليه السبب في عدم تعيين ليلة القدر وذلك ان ليلة القدر في كل سنة تخص الامام وتتوقف على حالته في تلك السنة. فقد تنهي الامام دورته السلوكية السنوية في الليلة التاسعة عشر فتنزل الملائكة عليه في تلك الليلة، أو قد ينهي دورته في الليلة الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين. ومعنى هذا ان الدورة لا تقل مدتها عن تسع عشرة ليلة، وتنتهي في واحدة من هذه الليالي. وهل حينئذ تكون للانسان الكامل يد في مقدرات العالم أو شؤون العباد ؟

نادراً ما يوقن المرء بان روح هذا الجرم الصغير هي لوح التقدير الالهي. بالنسبة لنا، نحن لا نصدّق ذلك؛ لأننا لا نعرف الانسان؛ ولا نعرف ان لوح روح الانسان الكامل هو ذات لوح التقدير الالهي، وأن النزول والتقدير يتحققان هاهنا.

وبناءً على هذا فانَّ ليلة القدر هي ليلة الانسان الكامل، وان القرآن قد نزل فيها. وأن رسول الله صلّى الله عليه وآله كانت له ليلة قدر كل سنة وكذلك الامام، وان الارض لا تخلو أبداً من الانسان الكامل، والسنة لا تخلو من ليلة القدر، وليلة القدر لا تخرج عن شهر رمضان.

عرفنا ان ليلة القدر من جملة ليالي شهر رمضان، تلك الليلة التي تصل فيها الأرض بالسماء، والملك بالملكوت، أو حسبما عبَّر عنه القرآن: تفتح أبواب السماء على الأرض، حتّى تكاد يتحد عالماً الغيب والشهادة في كيان الامام وبواسطة وجوده الذي يمتزج فيه العالمان المادي الملكي والوجود الغيبي. وهو ما يشير اليه القرآن اجمالاً.

﴿انّا أنزلناه في ليلةالقدر وما ادراك ما ليلة القدر﴾. الخطاب هنا موجّه

للرسول طبعاً، لكن المراد به ـ كما هو الحال في الكثير من الموارد الأخرى ـ هو مخاطبة الناس، فيقول لهم: ما ادراكم ما ليلة القدر. ولكن ما الذي تتميّز به هذه الليلة حتى تُجعل خير من ألف شهر؟ هل يُعزى ذلك لثواب العبادة فيها؟ ولم لا؟! لأننا عندما نصلي نقول: **﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾**. وحينما تكون العبادة ذات صفة جماعية، تكون أكثر قبولاً؛ لأن روح الانسان حينها تكون على استعداد أكبر، وحضورها أشد، وكل الأطهار في تلك اللحظة في حالة عبادة. وقد ثبت ان للمادة أمواجاً تصل إلى الجانب الآخر من العالم، فما بالك بالامواج الروحية التي لا يتسنّى لأحد ادراكها.

فاذا كانت ليلة القدر يكون الامام في حالة عبادة ونشاط روحي يجعل أبواب السماء تفتح على الأرض، واذا كان اناس من امثالنا يتطلعون لاداء مثل هذه العبادة، فانّ فيض السعادة الذي نستشعره فيها يعدل فيض سعادة الف ليلة. أي أن الأجواء الروحية التي تتهيء حينها تكون اجواءً عبادية، وأجواءً من التسامي تنسجم واحياء الليل. فضيلة هذه الليلة تربو على فضيلة الف من الأشهر الأُخرى.[1]

▣ كمال الانسان:

من غير الممكن أن يكتمل الانسان بدون العبادة. فالرسول مع انّه رسول الّا انّه يؤدي نفس تلك العبادة والطاعة والاستغفار. قال الامام الصادق عليه السلام: «ما جلس الرسول مجلساً الا وقال خمس وعشرين مرّة استغفر الله ربّي وأتوب إليه». والامام علي عليه السلام مع ما كان يتصف به من شمولية؛ كخليفة عادل، وعابد في منتصف الليل، كانت العبادة هي التي تمنحه تلك

---

(١) دروس من القرآن: ص٣٦.

الطاقات الاضافية من قبيل عمق الرؤيا. ولهذا لا ينبغي اهمال اهمية العبادة.

القيمة الأساسية في المنطق الاسلامي ـ أو ما يسمى بالتعبير المعاصر بنظام القيم الاسلامية ـ هي العبادة. الا ان العبادة في الاسلام لها شروطها.

وقد بيّن لنا القرآن الكريم أنّ الصلاة انّما تكون صلاة حين يتجلى اثرها وتعطي ثمرها: ﴿ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1]. صفة الصلاة الصحيحة انّها تنهى الانسان عن الأعمال القبيحة والمُنكرة. واذا رأيت انّك تصلّي وفي الوقت نفسه ترتكب الفواحش فاعلم ان صلاتك لا يصدق عليها معنى الصلاة. اذن عليك أن تجعل منها صلاة صحيحة. الصلاة توصلك إلى جميع الفضائل الأُخرى على شرط أن تكون صلاة حقيقية.

جميع الدروس يجب أن نتعلّمها من علي عليه السلام؛ فهو عليه السلام مركز تجتمع فيه كافة الفضائل، وكلامه نهج البلاغة وهو الكتاب الذي كلّما أمعن الانسان في أي فصل من فصوله يجد منطقاً غير الذي سبقه، أي يجد شخصاً آخر غير الذي يتحدث في فصوله الأُخرى. علي عليه السلام شخصية جامعة لكل القيم الانسانية. منطقه تارة منطق البطولة وكأنه بعد مرحلة طفولته دخل نظاماً عسكرياً صارماً حاز فيها الرتب العسكرية حتى غدا قائداً لا يعرف شيئاً آخر سوى الشؤون العسكرية، ونفسه مشبعة بحجب المآثر العسكرية.

كما اننا نجد في هذه الشخصية ذاتها عارفاً عابداً لا يفهم سوى التضرع والابتهال[2].

▣ من العبودية إلى الربوبية:

يا له من تعبير نابض بالحياة!! وهل من الممكن اذا تعدّى المرء اطار

---

(١) سورة العنكوبت: ٤٥.

(٢) الانسان الكامل: ص١٠٧.

العبودية يدخل في حدود الربوبية «أين التراب من رب الأرباب» .

والمقصود بالربوبية هنا عبادة الرب لا أن يكون الانسان ذاته رباً. فكل متنفذ يكون رباً لما تحت نفوذه. قال عبدالمطلب لإبرهة الذي جاء لهدم الكعبة :

« **أنا رب الابل وان للبيت رب**»[١].

ونحن انّما أوردنا الحديث أعلاه ليصب في سياق حديث مشهور ورد في مصباح الشريعة وهو :

«**العبودية جوهرة كنهها الربوبية**».

فالانسان كان ولا زال يسعى للسيطرة على ذاته وعلى العالم. ولا شأن لنا هنا بالأساليب التي انتهجها لهذا الغرض أو مدى نجاحه أو فشله فيها. الا أن من بين تلك الأساليب ثمة اسلوب يثير الدهشة ؛ وهو أنّه اختار من بين كل تلك السبل سبيلاً لا يسلكه الا من لا يبغي مثل هذا الهدف اي أنّه لا يريد التسلّط على العالم، بل على العكس من ذلك. ولا يريد الا التذلل والخشوع والخضوع والغناء. وهذا من عجائب طريق العبودية.

◙ مراحل ومنازل الربوبية :

أول مراحلها هي العبادة التي تلهم الانسان التسلط على نفسه. وبعبارة اخرى ان أدنى علائم قبول عمل الانسان عند ربّه هو أن تكون لديه رؤية نافذة لتكون له نوراً وبصيرة. جاء في القرآن الكريم :

﴿**أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً**﴾[٢]. وجاء أيضاً في موضع آخر منه : ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام : المجلد الأول.

(٢) سورة الأنفال : ٢٩.

(٣) سورة العنكبوت : ٦٩.

وثانيها: أن يقهر الانسان نفسه وقواه النفسية. وتقوى ارادته أمام الأهواء والنزوات الحيوانية، حتّى يصبح حاكماً على ذاته. وتكون له قوة جديرة بادارة ذاته.

جاء في القرآن الكريم عن الصلاة:

﴿ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1].

وجاء فيه عن الصيام:

﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتقون﴾.

وجاء فيه عنهما كليهما:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾.

في هذه المرحلة من العبودية يتمكن الانسان ضمن بصيرة وبيّنة، من تسخير اهوائه النفسية. أو بعبارة أخرى، اولى نتائج العبودية هي الربوبية والولاية على النفس الامّارة.

◘ مرحلة السيطرة على قوة التخيّل:

المرحلة الثانية هي مرحلة السيطرة على الأفكار المتناثرة، أي السيطرة على قوة التخيّل.

من أعجب القوى المودعة فينا هي قوّة التخيل التي تتيح لذهننا الانتقال في كل لحظة من موضوع إلى آخر، وهو الذي يحدث بالشكل الذي يصطلح عليه بتداعي المعاني وتسلسل الخواطر. وهذه القوّة ليست تحت سيطرتنا، بل نحن تحت سيطرتها. ولهذا لا يتيسّر لنا حصر اذهاننا في موضوع معين وكلما أردنا التركيز عليه دون غيره يشذ الذهن إلى موضوع آخر. مثلاً في الصلاة كلّما

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٥.

نحاول ان نصلي بحضور قلبي؛ أي كلما حاولنا ابقاء الطالب في قاعة درس الصلاة لا نستطيع ذلك، ولا نشعر الا والصلاة قد انتهت وكان التلميذ «غائباً» طوال هذه الفترة.

للرسول صلّى الله عليه وآله تشبيه جذّاب في هذا الصدد يقول فيه: «مثل **القلب مثل ريشة في الفلاة تعلّقت في أصل شجرة يقلّبها الريحُ ظهراً لبطنٍ**[1].

وله حديث مشابه أيضاً يقول فيه:

«**لقلب ابن آدم اشدّ انقلاباً من القدر اذا اجتمعت غليا**»[2].

ولكن هل الانسان مسخّر دوماً لخياله؟ وهذا السر الخفي الذي يتنقّل كالعصفور من غصن إلى غصن هو الحاكم المطلق على وجوده؟ أم أن الخضوع لقوة الخيال مبعثه السذاجة وعدم النضوج؟ وان الانسان الكامل قادر على تسخير هذه القوّة لذاته؟

الفرض الثاني من هذا الكلام هو الصحيح. والانسان مكلّف بالسيطرة على هوى خياله، والا فان هذه القوّة ذات الصفة الشيطانية لا تدع له مجالاً للتعالي وطي سبيل القرب إلى الله، وتقضي على جميع طاقاته وقدراته.

وقد ورد حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله انّه قال: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**».

سالكو طريق العبودية يتسنى لهم في المرحلة الثانية قهر قوّة التخيل فتكون لهم السيطرة والربوبية عليها. وينتج عن هذا التسخير والتطويع ان روح الانسان وضميره تصبح لهما قدرة على السير في طريق الله عندما يشاءان بلا ان يعارضهما معارض.

---

(١) نهج الفصاحة، والجامع الصغير: ج ١، ص ١٠٢.

(٢) مسند أحمد: المجلد ٦، ص ٢.

نرى ان علياً عليه السلام والامام زين العابدين يستغرقان في الصلاة إلى حد ان السهم يستخرج من رجل علي عليه السلام وهو لا يشعر ولا ينتبه من شدة استغراقه. والامام زين العابدين عليه السلام حينما كان يصلي سقط ابنه من مرتفع وكسرت يده فامتلأت الدار بصياح النساء وبكاء الطفل ثم جبّروا يده. وبعد الانتهاء من الصلاة والعودة من هذا السفر السماوي وقع بصره على يد ولده، فسال متعجباً: ما الذي حصل ولماذا يد الطفل مشدودة؟ ويتضح من هذا ان تلك الحادثة وما اعقبها من ضجة لم تستطع اخراجه من حالة الاستغراق.

واذا تجاوزنا هذا الصنف من الناس؛ فنحن قد شاهدنا خلال اعمارنا أشخاصاً من اتباعهم تتمركز اذهانهم وقت الصلاة حتّى لا يعودون يفكرون في شيء غير الله. وكان استاذنا الجليل المرحوم الحاج ميرزا علي آقا الشيرازي الاصفهاني أعلى الله مقامه من هذا الطراز.

ولأجل احراز هذا النجاح ليس ثمة شيء يعين عليها كالعبادة المبنية على استذكار الله. أما اصحاب الرياضة السلوكية فيدخلون من طرق اخرى ادناها الاعراض عن الحياة وما فيها، وتعذيب الجسد. الا ان الاسلام قد وفر الاسلوب المناسب لبلوغ هذه النتيجة عن طريق العبادة بعيداً عن هذه الممارسات المستهجنة. فالتفات القلب إلى الله والانتباه إلى انّه بين يدي رب الأرباب الخلق المدبّر، يمهد الأرضية لتركيز الذهن وحضور القلب.

نأتي في ما يلي على ذكر شاهد من كلام شيخ الاسلام اعجوبة الدهر، الذي استطاع بفضل التعاليم الاسلامية ان يصل بالفلسفة مرحلة لم تبلغها على عهد قدماء اليونانيين والايرانيين والهنود وغيرهم.

ذكر هذا الرجل الكبير في النمط التاسع من «الاشارات» بعد بيانه لعبادة العوام التي تستهدف الأجر والثواب ولا تتسم بكثير من الأهمية، ثم يتحدث

عن العبادة المقرونة بالمعرفة قائلاً:

«والعبادة عند العارف رياضة ما لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيّلة ليجرّها بالتعويد عن جناب الغرور إلى جناب الحق فتصير مسالمة للسر الباطن حين ما يستجلي الحق لا تنازعه فيخلص السير إلى الشروق الباطن».

◘ مرحلة استغناء الروح عن البدن:

المرحلة الثالثة هي أن تصل الروح في حالة قوّتها وقدرتها وربوبيتها إلى مرحلة تستغني فيها عن الكثير من أعضاء البدن، فيما البدن محتاج إلى الروح كلياً.

الروح والبدن بحاجة إلى بعضهما الآخر؛ فالبدن يحيى بالروح، والروح صورة البدن وحارسه. وسلب العلاقة التدبيرية للروح عن البدن يستلزم فساد البدن؛ ومن جهة اخرى تحتاج الروح إلى البدن في اداء عملها؛ فهي غير قادرة على انجاز أي عمل بدون استخدامها للاعضاء والجوارح.

غنى الروح عن البدن يتجسد عدم حاجتها لبعض الجوارح في اداء مهمتها. وهذا الاستغناء قد يكون لعدّة لحظات أو يكون استغناءً متكرراً أو استغناء دائمي. وهو ما يسمى بخلع البدن.

قال الحكيم الاشراقي الشهير «السهروردي».

«لا نعترف بالحكيم حكيماً ما لم يتمكن من خلع بدنه»

وقال الميرداماد:

«لا نعترف بالحكيم حكيماً ما لم يصبح خلع البدن ملكة فيه يجريه متى ما شاء».

وكما قال المحققون ان خلع البدن ليس دليلاً على كثرة الكمال، بل انها مرحلة قد يبلغها اشخاص لم يعبروا مرحلة «المثال» بعد ولم يضعوا اقدامهم في غيب المعقول.

◘ مرحلة خضوع البدن :

المرحلة الرابعة يصبح فيها البدن خاضعاً لارادة الشخص في كل ابعاده، بحيث يستطيع الشخص ان ينفّذ ارادته في البدن حتّى تظهر منه اعمال خارقة للعادة. وهذا الموضوع عرضت بشأنه آراء كثيرة.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّة».

◘ مرحلة خُضوع الطبيعة :

المرحلة الخامسة وهي أعلى المراحل وتتجسد في امتثال الطبيعة الخارجية لنفوذ وارادة الانسان وتصبح مطيعة له. وتدخل معاجز وكرامات الأنبياء ضمن هذا النمط من القدرة.

قضية الكرامات والمعجزات اثيرت حولها آراء يجب مناقشتها في باب مستقل يخصص لهذا الغرض؛ فالاعتقاد بأحد الأديان الالهية يستدعي الاعتقاد بالمعجزة وخرق العادة. فالمسلم لا يمكنه أن يكون مسلماً ويعتقد بالقرآن ولا يؤمن بالمعجزه. والمعجزة في المنظار الالهي الاسلامي قضيّة محلولة، وبحثها يستدعي بحث مقدمات كثيرة. الا أننا نتناولها هنا من حيث قضية «ولاية التصرف» على شرط أن يكون المستمع مؤمناً بالقرآن ويعتقد بحصول المعجزات. وكلامنا مع هؤلاء على أساس ان المعجزة ليست الا مظهراً لولاية التصرف والولاية التكوينية.

وفضلاً عن القرآن الذي اضافة إلى كونه معجزة فهو كلام الله لا كلام الرسول، وله وضع استثنائي بين سائر المعجزات. والمعجزة تقع لأن الله يهب صاحبها قدرةوارادة تتيح له التصرف بالكائنات باذن الله وأمره، فيجعل من العصا حيّة، أو يبرىء الأعمى أو حتّى يحيي الموتى، أو يطلع على الغيب. هذه

القدرة والمعرفة يؤتاها فقط عن طريق طي صراط القرب والدنو من مركز الوجود، وليست الولاية التكوينية سوى هذه.

يتصور البعض ان لا دخل لشخصية وارادة صاحب المعجزة في حصول المعجزة، وهو مجرد ستارة ينعكس عليها وان الباري سبحانه وتعالى يوجدها مباشرة وبلا اية واسطة؛ لأن القضية اذا بلغت حد الاعجاز تكون خارجة عن اطار قدرة الانسان في أية منزلة كان. اذن فحصول المعجزة لا يعني تصرف الانسان في الكائنات بل ان الله جل وعلا هو الذي تصرف فيها مباشرة وبدون تدخل وارادة الانسان.

هذا تصور مغلوط. ناهيك عن أن علو الذات الاحدية يأبى ان يصدر ايّ فعل طبيعي بلا سبب أو خارج النظام، فهذا التصور مناف لصريح القرآن أيضاً. القرآن يصرّح بأنَّ فاعل المعجزة هم الأنبياء ذاتهم ولكن برخصة واذن من الخالق تعالى. ومن الطبيعي ان الاذن الالهي ليس من نوع الاذن الاعتباري والاذن الانساني الذي تزيله باللفظ أو باشارة المنع الاخلاقي أو الاجتماعي، الاذن الالهي يحصل باعطاء نوع من الكمال الذي ينبثق عنه أثر كهذا.

واذا قضت الارادة الالهية عكس ذلك، يسلبه ذلك الكمال.

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله﴾[1].

هذه الآية تعتبر ان فاعلي المعجزة أو الآية هم الأنبياء ولكن بأذن الله. وقد اضيفت كلمة بإذن الله حتّى لا يقع الوهم ان أحداً له استقلالية في مقابل الخالق المدبر، وليعلم الجميع ان «لا حول ولا قوّة إلّا بالله».

كل حول وقوّة مهما كبرت أو صغرت، أو كثرت أو قلت فهي تستند

---

(١) سورة المؤمن: ٧٨.

إلى الذات الالهية ، وكل موجود في كل اية مرتبة كان انّما هو منفّذ لارادة الله ومظهر من مظاهرها . والأنبياء في كل عمل يؤدونه ومن جملته المعجزة يستمدون قدرتهم من القدرة الالهية الازلية الغيبية .

ينقل لنا القرآن الكريم في سورة النمل قصة سليمان وملكة سبأ ، حينما استدعى سليمان إليه ملكة سبأ ، طلب سليمان ممن كان في مجلسه أن يأتي أحدهم بعرشها قبل أن تفد عليهم ؛ فتبرع بعضهم بالاتيان به ، الا ان سليمان لم يرض على نمط عملهم إلى ان قال أحدهم :

﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك**﴾[1] أشار القرآن الكريم إلى أن ذلك العالم نسب في قوله الحول والقوّة إلى نفسه وأضاف ان الذي عنده علم من الكتاب هو الذي قال ، وفي هذا القول اشارة إلى انّه عزا تلك المعجزة إلى نوع من العلم الذي لا يعرفه العقل البشري إلى يومنا هذا ، وانّما يمكن حيازته من خلال الاتصال بمصدر الغيب ، وعبر الاقتراب من الله تعالى .

ثم ان القرآن صرّح في موضع آخر في اطار حديثه عن هذا الرسول (سليمان) بالقول :

﴿**فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب والشياطينَ كل بنّاءٍ وغوّاص وآخرين مقرّنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾[2] .

كما يُستفاد نفس هذا المعنى من الآيات التي تتحدث عن حضرة عيسى المسيح ، الا أنّنا لا نأتي على ذكرها تجنّباً للاطالة .

◘ نيل محبّة الله :

نتحدث في ختام هذا الموضوع عن قضية سبقت الاشارة اليها في أوله ،

---

(١) سورة النمل : ٤٠ .

(٢) سورة ص : ٣٦ ـ ٣٩ .

وهي أن جميع هذه المراحل تأتي كنتيجة للقرب من الله تعالى. والقرب حقيقة واقعة حقّاً وليس مجرد تعبير مجازي أو اعتباري.

جاء في الحديث القدسي المعروف الذي يرويه كل من الشيعة والسنّة ذكر هذه الحقيقة باسلوب رائع؛ نقل الامام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله انّه قال:

«قال الله عزّ وجلّ: ما تقرّب اليَّ عبد بشيء أحبّ اليَّ مما افترضتُ عليه وانّه يتقرّب اليَّ بالنافلة حتّى أحبّه؛ فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها؛ ان دعاني أجبته، وان سألني أعطيته»[1].

ورد في هذا الحديث جوهر الموضوع الذي نتحدث فيه وهو ان العبادة توجب القرب. والقرب يوجب محبة الله. أي بالعبادة يتقرب الانسان من الله، وهذا القرب يكون مدعاة للرعاية الخاصة منه تعالى، وهذا ما ينتهي إلى ان تصبح اذنه وعينه ولسانه ذات صفة حقانية، ويغدو قادراً على السمع والتكلم والبصر بقدرة الله، ويكون سؤاله مستجاب، وطلبه ملبّى.[2]

◘ الولاية التكوينية:

الولاية التكوينية أو الولاية المعنوية هي نوع من الاقتدار والتسلّط الخارق في التصرف بالموجودات[3].

نظرية الولاية التكوينية ترتبط من جهة بالقابلية الكامنة في هذا الموجود الذي ظهر على سطح الأرض باسم «الانسان»، وبالكمالات الموجودة بالقوّة

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٥٢.

(٢) ولاها وولايتها: ص٨٤.

(٣) المصدر السابق: ص٢٨٤.

في هذا الموجود العجيب، والتي يمكن أن تدخل حيّز التنفيذ وإلى اطار الفعلية. كما أنّها تتعلق من جهة بالصلة القائمة بين الله وبين هذا الموجود.

المراد من الولاية التكوينية أن يصل الانسان على أثر طي هذا صراط العبودية إلى مقام القرب الالهي، وكنتيجة لبلوغ مقام القرب ـ وفي المراحل المتقدمة منه طبعاً ـ تتركز في الانسان الابعاد المعنوية التي هي ذات حقيقة وواقع. ومع حصوله على هذه المعنوية يغدو مالك زمام تلك المعنويات مسلطاً على الضمائر وشاهداً على الأفعال وحجة على الزمان. والأرض لا تخلو أبداً من شخص يحمل مثل هذه الأوصاف، وبعبارة اخرى: لا تخلو الأرض من «الانسان الكامل»[1].

▣ المقامات والكرامات:

جاء في الخطبة ٢٢٢ من نهج البلاغة وصف للحالات والمقامات والكرامات التي تتحقق لأهل المعنى في ظل العبادة، من جملتها:

«قد حفّت بهم الملائكة وتنزلت عليهم السكينة وفُتحت لهم ابواب السماء وأعدّت لهم مقاعد الكرامات في مقام اطّلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم وحمد مقامهم يتنسّمون بدعائه روح التجاوز...»[2].

▣ العبادة عامل في التربية:

العبادة مركب يتخذ للتقرب إلى الله واداة لتكامل الانسان. والشي الذي يكون مظهراً لتكامل الانسان، ويكون ذاته غاية وهدافاً، لا ضرورة لأن يكون مقدمة أو اداة لشيء آخر سواه. ولكن في الوقت ذاته تُعتبر العبادات فضلاً عن

(١) المصدر السابق: ص ٢٨٥.

(٢) في رحاب نهج البلاغة: ص٨٨.

هذه الاصالة مقدمة لشيء آخر، أي أنها في ذاته تدخل في اطار المنهج الاسلامي في التربية. بمعنى أن الاسلام يستهدف تربية الافراد اخلاقياً واجتماعياً؛ واحدى الوسائل التي يتّخذها في هذا السبيل هي العبادة باعتبارها أكثر الاساليب تاثيراً في روح وأخلاق الانسان.

ويمكن بيان هذا الموضوع بالصورة التالية:

تدور القضايا الاخلاقية حول محور نكران الذات ونسيانها والتغاضي عن مصالحها. وكما ان في صحة الجسم ثمة مبدأ يعتبر بمثابة المصدر والمنبع لجميع المحاسن وذلك هو مبدأ «الحمية»، كذلك القضايا الأخلاقية فيها ثمة مسألة تعتبر أُسَّ الأُسس في جميع القضايا الأخلاقية الا وهي الانعتاق من الذات وهجر الـ«أنا».

والأصل الأساسي لجميع القضايا الاجتماعية هو مبدأ العدالة. العدالة معناها رعاية حقوق الآخرين. وهذه هي المشكلة التي يعاني منها الانسان عملياً على صعيد الأخلاق وعلى صعيد الاجتماع. أي ليس ثمة أحد لا يعرف الأخلاق أو لا يعرف أهمية العدالة. الا ان المشكلة تكمن في التنفيذ. فالانسان حينما يبغي تطبيق مبدأ أخلاقي يجد مصالحه تقع على طرف نقيض من ذلك المبدأ؛ يجد الصدق في جانب والمنفعة والربح في جانب آخر؛ وعليه أن يختار أما أن يكذب ويربح أو أن يصدق ويتغاضى عن الربح.

وهنا نجد أن الإنسان الذي يتحدث عن الأخلاق والعدالة يتصرف ـ حين تصل القضية إلى حيّز العمل ـ بشكل مناقض للأخلاق والعدالة. والشيء الوحيد الذي يعتبر سنداً للأخلاق وللعدالة، واذا ما كان الانسان يتحلى به يتسنى له انتهاج سبيل الأخلاق والعدالة واجتناب الربح بكل سهولة هو الايمان.

ولكن أي أيمان؟ الايمان بالعدالة ذاتها وبالاخلاق ذاتها. ولكن متى يؤمن الانسان بالعدالة باعتبارها أمراً مقدساً، ويؤمن بالأخلاق على أساس

كونها بعداً مقدّساً؟ حينما يكون له ايمان بأصل وأساس القدسية الا وهو الباري تعالى. ولهذا السبب يتمسك الانسان بالعدالة والأخلاق على قدر ايمانه بالله. هذه هي مشكلة عصرنا.

كانوا يظنون ان العلم وحده كافٍ في هذا المضمار. فاذا عرف المرء العدالة والأخلاق وعمل بهما يكفيه ذلك ليكون عادلاً وصاحب اخلاق. الا ان الواقع العملي أثبت ان العلم اذا كان في معزل عن الايمان لا يكون مفيداً للأخلاق والعدالة بل ومضر بهما أيضاً. ولكن اذا وجد الايمان يستتبع معه العدل والأخلاق. واشاعة الأخلاق والعدالة بلا ايمان، انّما يكون مثله كمثل اصدار عملةٍ بلا رصيد. واذا كان هناك ايمان تأتي معه الأخلاق والعدالة.

لهذا السبب ان الاسلام لم يعرض قضية العبادة بمعزل عن الأخلاق والعدالة. أي انّ العبادة التي يقول بها الاسلام عمادها الأخلاق والعدالة. أو يمكن القول انّه يقول بعدالة وأخلاق عمادها العبادة، والا فلا شيء ممكن غير هذا.[1]

نستنتج من هذا في قضية العبادة والتضرّع ان المرء اذا كان المرء حريصاً على تربية ذاته وأبنائه تربية اسلامية، أو اذا كان يرمي إلى تربية اشخاص آخرين، لا مناص له من ابداء غاية الاهتمام بالدعاء والعبادة. وقضية العبادة أساساً ـ وبغض النظر عن تربيتها لحس اصيل ـ لها تأثير كبير في سائر مناحي حياة الانسان. ولهذا السبب يوصي أكابر الدين بضرورة ان يتفرغ الانسان لذاته ولو ساعة يومياً مهما كانت كثرة اشغاله.

قد يقول قائل: ليس لي ولا حتى ساعة واحدة من وقتي، لأن وقتي كله مكرّس لخدمة الناس. فيأتيه الجواب: أجل، حتّى لو كانت كل ساعاتك وقفاً

---

(١) مقالات اسلامية: ص ٧٤ ـ ٧٦.

لخدمة الناس فانّك لا تستغني عن ساعة تتفرغ فيها لذاتك. وهذه الساعة الواحدة وان كانت لذاته فهي ضرورية ولازمة، والساعات الأُخرى التي لغيره مع ما لها من ضرورة وفائدة فهي لا تملأ الفراغ الناجم عنها.

وحينما يقال ساعة، فهذا حدّها الأدنى. اي لابد للانسان ان يخصص ساعة في يومه على الأقل لذاته؛ يعود خلالها إلى نفسه، وينتزع ذاته مهما كانت من بيئتها الخارجية ويعود بها إلى داخل نفسه وإلى ربّه ويُخلي الجو ويتفرغ بالتمام مع ربه ولا يفكر في شيء آخر ويباشر الدعاء والمناجاة والاستغفار.

الاستغفار بذاته معناه محاسبة النفس ليرى ماذا فعل خلال اليوم الماضي فيتضح له على الفور الصالح من الطالح من أعماله، فيحمد الله على الصالح، ويستغفر ربه عن الطالح ويصمم على عدم تكراره.

لاحظوا إلى أي مدىً يهتم القرآن بموضوع الاستغفار! جاء في وصف اصحاب الرسول انهم كانوا: «رهبان الليل وأُسدُ النهار». وجاء في القرآن الكريم: **﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾**[1]. لاحظوا كيف يبيّن القرآن كافة الجوانب؟ فهو لا يتحدث فقط عن الاستغفار والتضرع كما يفعل الزاهد المتطرف في الزهد. وحيثما يذكر القرآن «الصابرين» يقصد بذلك الصابرين في النزال. و«الصادقين» هم الذين لا ينحرفون قيد انملة عن الصراط. ولعل المراد بـ«القانتين» هو ما وردت الاشارة اليه في الآية الشريفة **﴿قوموا لله قانتين﴾** أي الذين لا يتحدثون الا مع الله ولا صلة لهم بغيره.

هذه الصفات كلها يجب أن تكون إلى جانب تلك[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٧.

(٢) التعليم والتربية في الاسلام: ص ٣٤٠.

◘ دور العبادة في العودة إلى الذات :

بنفس النسبة التي يؤدي فيها انهماك الانسان في الماديات إلى ابعاده عن ذاته وإلى جعله يشعر بالغرب عنها ، تدنيه العبادة من ذاته ونعيده اليها . العبادة توقظ الانسان وتبث فيه الوعي ، وتنتشل المنهمك في الأشياء كانتشال الغريق من أعماق البحر .

في ظل العبادة وفي ظل ذكر الله ، يرى الانسان ذاته كما هي في الواقع ، فيتنبّه إلى نواقصه وعيوبه ، ويصير ينظر إلى الوجود وإلى الحياة والزمان والمكان من الاعلى ، وبالعبادة يدرك تفاهة آماله المادية المحدودة ، ويتحفّز للسير وبلوغ مركز الوجود .

انني على الدوام انظر باعجاب إلى كلمة قالها العالم المعروف في عصرنا الحالي «انشتاين»، والأكثر اثارة للدهشة في هذا الموضوع ان هذا الرجل متخصص في الفيزياء والرياضيات وليس في حقل العلوم النفسية والدينية والانسانية والفلسفية . فهو بعد ان يقسّم الدين إلى ثلاثة أنواع ؛ يسمّي النوع الثالث الذي هو الدين الحقيقي بأسم مذهب الوجود ، ثم يشرح مشاعر الانسان في ظل المذهب الحقيقي .

«يشعر الانسان في ظل هذا الدين بضآلة الآمال والاهداف البشرية ، ويدرك العظمة والجلال الكامن وراء الظواهر المتجسّدة في الطبيعة والأفكار . فتنشأ لديه هواجس توحي إليه وكأنه يعيش في ما يشبه السجن ويريد الانعتاق من قفص البدن ليدرك الكون بأجمعه على اعتباره حقيقة واحدة»[١].

وقال «وليم جيمس» حول الانابة :

«ان دافع الانابة نتيجة ضرورية لهذا الأمر وهو انّه في حالة وجود ذاتية

---

(١) العالم كما أراه : ص٥٧ .

اجتماعية في أقوى جزء من الذاتيات الاختيارية والعملية لكل شخص، مع ذلك يمكن ان يجد صاحب ذاته التام في عالم الفكر (التفكير الباطني) فقط. وان أكثر الناس يراجعونه في قلوبهم بصورة دائمية أو بالصدف، وان أحقر شخص على الأرض ـ بهذا الاهتمام السامي ـ واقعاً ذا قيمة»[1].

ولاقبال اللاهوري كلام يحمل مضامين غنية عن قيمة العبادة والانابة من حيث دورهما في العثور على الذات، يقول فيه:

«الانابة عمل حيوي عادي نكتشف عن طريقه جزيرة شخصيتنا الصغيرة وصنعها في الكل الأكبر من الحياة»[2].[3]

◙ ذكر الله:

تتلخص جميع الآثار المعنوية والأخلاقية والاجتماعية التي تفرزها العبادة في أمر واحد هو: ذكر الله ونسيان ما سواه. يشير القرآن إلى الأثر التربوي والروحي للعبادة بقوله:

﴿ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وجاء في موضع آخر:

﴿أقِم الصلاة لذكري﴾.

وفي هذا اشارة إلى ان الانسان حينما يقيم الصلاة يتذكّر على الدوام ان الذات الالهية العالمة البصيرة تراقبه على الدوام، ولا ينسى انّه عبد لله.

ان ذكر الله الذي يُعتبر هو الهدف المطلوب من العبادة، يصقل القلب ويجعله مستعداً للتجليات الالهية. قال علي عليه السلام عن ذكر الذي هو

---

(١) نقلاً عن أحياء الفكر الديني: ص١٠٥.

(٢) احياء الفكر الديني: ص١٠٥.

(٣) في رحاب نهج البلاغة: ص٣٠٣.

جوهر العبادة:

«ان الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به المعاندة. وما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي زمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم»[1].

بيّنت هذه الكلمات الخاصية العجيبة والتأثير العميق لذكر الله في القلوب، إلى درجة انّها تصبح قادرة على الاستلهام ومناجاة الله.[2]

الهدف من العبادة تجديد الحياة الإيمانية وتقويتها. وكلما أكثر الانسان من ذكر الله، قلّت معاصيه. ليست المعصية واجتنابها منوطة بالعلم، بل منوطة بالذكر أو الغفلة، كلما ازدادت غفلة الانسان ونسيانه، ازدادت معاصية. وكلما ازداد ذكره لله قلّت معاصيه.[3]

أكد الاسلام كثيراً على العبادة التي يراد منها الذكر، باعتبارها فريضة ونافلة. كما انّه حارب كل ما يقضي على روح العبادة «أي الذكر» ويتسبب في حصول النسيان. واعتبر كل ما يصرف الانسان عن ذكر الله ويوقعه في الغفلة حراماً أو مكروهاً كالافراط في الطعام، أو كثرة الكلام، أو كثرة النوم. طبعاً قد يُعزى سبب بعض هذه الأحكام كاجتناب كثرة الأكل إلى عوامل جسمية أيضاً، اي أن الغرض هو الصحة والمحافظة على سلامة الجسم، ولكن من المؤكد انّه ليس السبب الوحيد. أي أن «قلّة الطعام» في التعاليم الاسلامية تأتي في سياق يُفهم منه بان الهدف منها ليس المحافظة على سلامة الجسم فقط، وانّما لأجل ان تكون روح الانسان أكثر شفافية ولا تؤدي به إلى الغفلة[4].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٢.

(٢) في رحاب نهج البلاغة: ص٦٨.

(٣) مقالات اسلامية: ص٧٩.

(٤) التعليم والتربية في الاسلام: ص١٨٥ ـ ١٨٦.

▣ تقوية الابعاد المعنوية :

كما أن التفكر والتعقل مفيد للفكر في القوة، والتقوى والتزكية تـنعكس منفعتهما على ترسيخ قوة الارادة عند الانسان، فان العبادة مفيدة أيضاً لتقوية العلاقة المعنوية وايجاد الحرارة الايمانية في الانسان. أي كما ان الايمان يؤدي بدوره إلى ممارسة العبادة، فان العبادة أيضاً تقود إلى ترسيخ الايمان، وهـذه القضية صرّح بها الاسلام كثيراً، وهو يعني التأثير المتبادل بين الايمان والعمل. الايـمان يـقود إلى العـمل، والعـمل الذي مـنشؤه الايـمان يـؤدي تـقوية ذلك الايمان[1].

يرى القرآن ان المعنوية أساس للتكامل. وكل هذه العبادات التي يعوّل عليها الاسلام هدفها تقوية الجانب المعنوي في روح الانسان. لاحظوا حـياة النبي صلّى الله عليه وآله فعلى الرغم من كثرة مشاغله والمشاكل العسيرة التي كانت تواجهه، يصفها القرآن بالقول:

﴿انّ ربّك يعلم انّك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم﴾[2].

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى رسوله:

﴿فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾[3].

واذا نظرنا إلى العدالة الاجتماعية عند علي عليه السلام وما كان يقوم به من عمل بالمسحاة والعرق يتصبب منه، لابد لنا من النظر أيضاً إلى انّه كان يغمى عليه عند قيامه الليل من خشية الله. هذه وقائع من تاريخ الاسلام. والقرآن

---

(١) نفس المصدر: ص ١٨٥.

(٢) سورة المزمل: ٢٠.

(٣) سورة الاسراء: ٧٩.

الكريم يصرّح بهذا المعنى أيضاً. وهذه القضايا لا يمكن تأويلها أو توجيهها وجهة اخر. وان اي تفسير مادي لها، خيانة للقرآن. ثورتنا بحاجة في المستقبل إلى المعنوية الشاملة إلى جانب العدالة الاجتماعية بمفهومها الاسلامي، والمعنوية التي نتحدث عنها من طراز الابعاد المعنوية التي كانت عند الرسول صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام [1].

◙ العلاج الأخلاقي:

جاء في الخطبة ١٩٢ بعد الاشارة إلى بعض الأخلاق الرذيلة كالظلم والكبر:

«وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات. تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وازالة للخيلاء عنهم».

◙ التحول الداخلي:

حينما كان الامام الكاظم عليه السلام في السجن، بيّتوا خطة يستهدفون منها هتك حرمة الامام والاساءة إليه، فارسلوا إليه جارية شابة لتقوم بخدمته. ومن الطبيعي انّها لابد وأن تجلب له الطعام، واذا كان بحاجة إلى شيء يكلفها بذلك. ولابد انّه سينظر اليها وقد يُفتن بجمالها، ويمكن حينذاك توجيه التُهم إليه، ويتسنى للثرثارين أن يقولوا: وهل يمكن هذا؟ رجل في غرفة خالية مع شابة!!

ولكن بعد فترة تبيّن ان هذه الجارية حصل في داخلها تحوّل روحي جعلها هي الأخرى تفترش سجادتها وتنكب على الصلاة والعبادة. وبلغ الخبر

---

(١) البعد المعنوي في الثورة الاسلامية: ص ١٧٥.

اسماع هارون الرشيد، ولما جاءوا بها وجدوها قد أصبحت ذات سلوكية من نوع آخر؛ تنظر إلى السماء تارة وتنظر إلى الأرض تارة أُخرى.

فسألوها عن حقيقة أمرها. فقالت: لما رأيت هذا الرجل عرفت من أنا، وأدركت انني ارتكبت الكثير من المعاصي والآثام طوال حياتي، واعتقد انني الآن يجب اقضي عمري بالتوبة. وبقيت على تلك الحالة إلى ان ماتت[1].

◙ إنابة العاصي:

كان الفضيل بن عياض في بداية أمره لُصّاً ثم انّه حصل في نفسه تحول روحي جعله يكف عن الذنوب والمعاصي ويتوب توبة حقيقية إلى أن صار من اكابر العرفاء. ولم يصبح مجرد انسان تقي؛ بل غدا معلماً لجماعة آخرين. بينما كان في سابق عهده قاطع طريق يثير الرعب والهلع في نفوس الناس.

تسوّر ذات ليلة جداراً وما ان استوى عليه واراد النزول منه إلى الجهة الأُخرى، سمع صوت عابد كان يصلي صلاة الليل ويدعو ويقرأ القرآن وكان يقرأ في تلك اللحظة الآية الشريفة:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[2].

وما ان سمع هذا الرجل هذه الآية وهو على الجدار، حتّى بدأ وكأن الآية قد أوحيت اليه، وكأنه هو المخاطب بها. فهتف من ساعته: لم يا الهي! لقد آن لها. نزل من الجدار وكف من ساعته عن جميع ما كان يقترفه من الشراب والمعاصي والسرقة وابتعد عن كل ذلك جهد استطاعته، واعاد اموال الناس اليهم، وادى ما عليه من حق الله[3].

---

(١) في رحاب سيرة الائمة الأطهار عليهم السلام: ص ١٨٤.

(٢) سورة الحديد: ١٦.

(٣) مقالات اسلامية: ص ٢٢٧.

الباب الثالث

الصلاة رأس العبادة

الصلاة

هي الأصل الثاني الذي ذكره القرآن بعد الايمان بالغيب، فقال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾. ويمكن القول ان الاصل الاول، أي الايمان بالغيب يتعلق بالنظام الفكري والاعتقادي للفرد المسلم، ويقوم الأصل الثاني على بناء الذات.

ويتعلق الأصل الثالث الذي سنتحدث عنه لاحقاً، ببناء المجتمع.

ومن هنا ندرك أهمية الصلاة، لأنها ـ وكما تلاحظون ـ قد عُدّت في عداد الأركان الأساسية للدين. واذا كان كل دين قد خصص منهجاً لتربية اتباعه، فان الاسلام قد جعل العبادة على رأس منهاجه التربوي ووضع الصلاة في قمة ذلك المنهج.

ويلاحظ ان القرآن الكريم لا يقول يقرأون الصلاة، بل يقول: يقيمون الصلاة. وهناك فرق شاسع بين القراءة والاقامة، بل ان قراءة الصلاة حينما جاءت في القرآن جاءت بصيغة الذم؛ أي ذم الذين في صلاتهم نقص أو اشكال[1].

▣ الصلاة مدد الهي:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة انّها لكبيرة إلّا على الخاشعين﴾[2].

---

(١) التعرف على القرآن: ص٦٧.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

ولكن ما الذي يمكن استمداده من الصلاة؟ وما هو المدد الذي يأتينا من العبادة ؟ ان العبادة بذاتها مدد ، بل وكل امداد يأتي منها . اذا شاء الفرد ان يصبح مسلماً حقيقياً في مجتمعه ، أو أراد أن يكون مجاهداً قـوياً ، يـجب أن يكـون مصلياً مخلصاً ...[1]

▣ لا إسلام بلا صلاة :

جاءت جماعة من أحد قبائل العرب إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وقالوا : يا رسول ا ، نريد ان ندخل الاسلام على ثلاث شروط وهي :

١ ـ أن نبقى على عبادة الأصنام سنة اخرى .

٢ ـ الصلاة ثقيلة علينا ، فاذن لنا بعدم الصلاة .

٣ ـ لا تطلب منا ان نحطم كبير أصنامنا بأيدينا .

فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله : شروطكم هذه لا يقبل منها الا الشرط الثالث . وأما الشرطان الأوّلان فهيهات [2].

▣ الكلام الأخير لعلي «ع» :

آخر الوصايا التي أوصى بها أمير المؤمنين عليه السلام : ولما انتهى منها فارقت روحه جسده ، وقال من جملة ما قال فيها : «**الله الله في الصلاة فانّها عمود دينكم**»[3].

▣ آخر وصية للامام الصادق «ع» :

وقعت في وقت وفاة الامام الصادق عليه السلام حادثة وهي أن أبا بصير

---

(١) الانسان الكامل : ص١٠٣ .

(٢) حكايت وهدايتها : ص٢٣ .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٤٧ .

جاء وعزّى «أُم حميدة» فبكت، ثم قالت لأبي بصير:

يا أبا بصير انّك لم تحضر الامام وهو في آخر لحظة من حياته، اذ وقع أمر مثير. قال: وما هو؟ قالت: لقد استغرق الامام في حالة وكأنّه غُشي عليه، ثم انّه فتح عينيه وقال:

ادعوا اليَّ جميع ارحامي. فلبينا أمره ودعوناهم، ولما اجتمعوا عنده فتح عينيه وهو في الرمق الأخير من حياته، والتفت اليهم وقال جملة واحدة: «لا تنال شفاعتنا مستخفّاً بالصلاة»[1].

▣ ما معنى اقامة الصلاة ؟

اقامة الصلاة معناه اداء حقّها. أي أن لا تؤدى وكأنها جسد هامد لا حياة فيه؛ بل أن تكون صلاة ينتبه فيها العبد حقّاً لربّه. وهذا هو معنى ذكر الله الذي نصّت عليه الآية الشريفة: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾[2].

ذكر الله يساوي نسيان غيره. اذا كان الانسان ولو لمدّة قصيرة في حالة دعاء وتضرع لله، واستعانة به، واذا كان يثني عليه ويصفه بالالوهية والربوبية والرحمانية والرحيمية والأحدية والصمدية، وانّه ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ يترك ذلك في نفسه تأثيرات هائلة، وتنصقل روحه بالشكل الذي يريده الاسلام[3].

▣ المواظبة على الصلاة :

﴿أرأيت الذي ينهى، عبداً اذا صلّى، أرايت ان كان على الهدى، أو أمر بالتقوى،

---

(١) مقالات اسلامية: ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) سورة طه: ١٤.

(٣) التعرف على القرآن: ص٦٨.

أرأيت ان كذّب وتولّى، ألم يعلم بانّ الله يرى﴾[1].

قال المفسرون ان هذا الآيات مصداق لطغيان الانسان المستغني، ولها طبعاً شأنها في النزول. لاحظ ان الغنى كيف يطغي الانسان وإلى أي حدّ؟ قد يتمرد الانسان تارة على العبودية لله. ولكن الانكى من ذلك ان يعارض الآخرين في عبوديتهم لله، فلا يدعهم يعبدون ربّهم.

﴿أرايت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾.

وهو يحاول منع عبادة شخص آخر، والشخص الآخر هذا ليس شخصاً عادياً بل انّه مكلف بأن يأمر الناس بالتقوى. فهو على العكس من هذا العبد. هذا يمنع عن عبادة الله وذاك يأمر بعبادة الله.

وشأن نزول هذه الآية هو ان رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يأتي المسجد الحرام ويصلي، فكان أبو جهل الذي كان طاغياً متمرداً على عبادة الله يقول يجب ان لا ندع الرسول صلّى الله عليه وآله يفعل هذا في المسجد الحرام. فكانوا يأتون ويمنعون الرسول من الصلاة هناك، حتّى انهم هجموا عليه في احدى المرات.

كان أبو جهل يقول لهم وافوني بالاخبار، فكانوا يأتون ويقولون له ان الرسول يأتي ويؤدي عمله ذاك في المسجد الحرام؛ أي يصلّي فيه. ينبغي الالتفات طبعاً إلى ان رسول الله كان يصلي حتّى قبل البعثة. لأن الصلاة بمعناها العام والشامل وردت في تعليمات جميع الشرائع الحقّة. وحتى جاء في القرآن نقلاً عن لسان المسيح: ان الله أمرني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. غاية ما في الأمر ان الصلاة ليست على نمط واحد في كافة الشرائع.

الرسول كان يصلي حتّى قبل البعثة. ولكن باية صورة كانت صلاته؟

---

(١) سورة العلق: ٩ ـ ١٤.

القدر المسلم به انّها كانت على ادنى تقدير تتضمن ذكر الله ، وكذلك السجود . الصلاة كانت في أول البعثة أيضاً . ولكن الصلاة بشكلها الحالي الذي يتكون من سبع عشرة ركعة يومياً كركعتين لصلاة الصبح ، وأربع ركعات لصلاة الظهر وأربع ركعات لصلاة العصر وثلاث ركعات لصلاة المغرب وأربع ركعات لصلاة العشاء ، ثم النوافل بترتيبها المعروف اليوم ، اتخذت صيغتها الشرعية في ما بعد .

أي أن الصلاة اتخذت شكلها الحالي بعدما بعث الرسول صلّى الله عليه وآله ونزلت عليه التعليمات الخاصة . واستناداً إلى ما ورد في سورة «اقرأ» ـ التي من المسلم أن قسمها الأول هو الآيات الأُولى التي نزلت ، وفي قسمها الأخير اختلاف هل نزل معها أم بعدها ـ فان رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يصلي منذ ذلك الوقت . أي كان يصلي قبل البعثة وإلى حين البعثة بقيت تلك الصلاة ذاتها موجودة . ولهذا ذكروا أنهم كانوا يصلون في أول البعثة جماعة على نمط تلك الصلاة ولكننا لا نعرف كيفية ترتيبها ، ولم نقرأ في مصدر ما ان شكلها وترتيبها قد ذكر ..

هذه هي العبادة التي كانوا يحاولون ثني النبي عنها[1].

◘ التظاهر بالصلاة :

﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾[2].

مضمون هذه الآية خطاب للرسول صلّى الله عليه وآله يقول : هؤلاء يريدون منعك من المجاهرة بصلاتك . وحينذاك عرضت للرسول هذه المسألة ، وهي : هل ينتهج اسلوب التقية ، فلا يصلي في المسجد الحرام ، ويتخفى في داره ؛ لأنهم يأتون الى المسجد ويضايقونه . أي هل يتخذ موقف أزاء ذلك

---

(١) تفسير سبع سور : ص ٦١ .

(٢) سورة العلق : ١٩ .

التهديد ؟ أم لا يأبه له ؟ ويذهب كالعادة إلى المسجد ويعبد ربّه هناك .

جاءه الأمر الإلهي بأن لا يبالي لتلك التهديدات وأن يواصل صلاته وسجوده لربّه ليزداد منه قرباً. وبقي الرسول يذهب إلى المسجد الحرام ويعبد الله . ومارسوا ضده ضغوطاً كثيرة ، كان من جملتها انّه كان ساجداً ذات يوم فجاؤوا بأحشاء وامعاء بعير ورموها عليه بقصد اهانته .

وكانوا أيضاً يضايقونه عند الذهاب إلى هناك لأجل العبادة التي كان يؤمن بها ويخرج من أجلها ويرفض عبادة الأصنام ؛ كان حينما يخرج إلى الطريق يحثون على رأسه التراب . أو كانوا يضعون على طريقه الأشواك حينما يذهب فجراً للعبادة في المسجد الحرام ، لأجل أن لا يتمكن من الخروج من داره ، وإذا خرج تصيبه تلك الأشواك الحادة .

القرآن يأمر الرسول بعدم المبالاة وأن يذهب ويسجد لربّه تقرباً له ، وأن الله سينزل أمره عندما تحين الساعة[1].

▣ تحمّل الشدائد :

﴿فاذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب﴾.[2]

هل جاء الأمر انّك إذا فرغت وأُزيل الحمل عن كاهلك تذهب للاستراحة ؟ إذا ذهبت للراحة فذلك أول البلاء لأن كل شقاء الانسان يأتي من التعوّد على الراحة والرفاه . وأن أعدى أعداء الانسان التعوّد على الراحة .

﴿فاذا فرغت فانصب﴾ حتى إذا فرغت من العمل عليك أن تلقي بنفسك في التعب والنصب أيضاً . وأن تخلق لنفسك مثيرة للمتاعب ؛ أي لا تعوّد نفسك على الراحة . وإذا فرضنا العبد الصالح لا متاعب لديه ، هل ترتفع عنه شدائد

---

(١) تفسير سبع سور : ٦١ .

(٢) سورة الانشراح : ٨ .

العبادة؟ هل الرسول لما كان خالياً من المتاعب الاجتماعية كان يذهب وينام رغداً حتّى الصباح؟ لا، لم يكن يخلد للراحة. وكان ما أن يفرغ من عمل حتّى يلقي نفسه في نصب آخر. ولكن لم يكن تعبه اعتباطياً، بل كان يتّجه للعبادة. على الانسان ان لا يخلد للراحة لأن الراحة عدو للانسان.

﴿فاذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب﴾[1]

▣ الصلاة والمعاد:

سأل رجل الإمام علي عليه السلام: لماذا نسجد مرتين؟ ولماذا لا نسجد مرة واحدة كما نركع مرة واحدة؟

من الواضح ان السجود فيه خضوع وخشوع أكثر من الركوع؛ ففي السجود يضع الانسان اعز أعضائه وأكرمها (أفضل أعضاء الإنسان رأسه لأن فيه عقله، وأفضل ما في الرأس الجبهة) على أحقر شيء وهو التراب كرمز للعبودية لله، وتواضعاً وخضوعاً له تعالى.

سأل: لماذا نسجد مرتين مع كل ركعة؟ وما هي الصفة التي في التراب؟ فقرأ أمير المؤمنين عليه السلام الآية الشريفة:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرى﴾[2].

أول ما تسجد وترفع رأسك يعني ﴿منها خلقناكم﴾. جسدنا كله أصله من التراب، وكل وجودنا من التراب. وعندما تسجد ثانية تتذكر انّك ستموت وتعود إلى التراب، وترفع رأسك فتتذكر انّك ستبعث من التراب مرّة أُخرى[3].

---

(١) تفسير سبع سور: ص٦٣.

(٢) سورة طه: ٥٥.

(٣) مقالات اسلامية: ص٩٢ ـ ٩٣.

▣ الصلاة والزكاة :

﴿انّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[1].

نزلت هذه الآية الكريمة ـ باتفاق الفريقين ـ في علي عليه السلام. وقد نقل الطبري روايات متعددة بهذا الخصوص[2]. وجزم الزمخشري وهو من أكابر علماء أهل السنّة قائلاً:

وإنها نزلت في علي كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه كأنه كان مرجا في خنصره، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته فإن قلت: كيف صح أن يكون لعليّ رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء، حتى إن لزهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة، لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

وقال الفخر الرازي وهو أيضاً من أكابر علماء السنة:

«هذه الآية نزلت بشأن علي، والعلماء متفقون أن أحداً لم يدفع الزكاة وهو راكع الآ علي»[3].[4]

وهنا يعرض سؤال وهو لماذا ادى الزكاة في حال الركوع؟ هذا الاعتراض اثاره بعض القدماء كالفخر الرازي وقال: كان علي يستغرق في صلاته ولا ينتبه الى ما يدور حوله، فكيف تزعمون انّه تصدق حال الركوع؟

---

(١) سورة المائدة: ٥٥.

(٢) تفسير الطبري: ج٦، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٣) التفسير الكبير: طبعة مصر، ج١٢، ص٣٠.

(٤) مجموعة الآثار: ج٣، (ولاءها وولايتها)، ص٢٦٨.

والجواب على ذلك هو: ان علياً عليه السلام كان يستغرق في صلاته وهذه حقيقة، ولكن لا بمعنى تشابه جميع حالات أولياء الله. فقد نقلت هاتان الحالتان كلتاهما بشأن رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ تارة تحصل له جذبة أثناء الصلاة لا يطيق بعدها اتمام الاذن؛ فكان يقول: «ارحنا يا بلال»، وكان يسجد تارة أُخرى فيأتي الحسن أو الحسين أو أحد احفاده الآخرين ويركب على ظهره فكان هو صلّى الله عليه وآله يصبر ويتأمل لكي لا يقع الطفل ويطيل سجوده إلى أن ينزل الصبي عن ظهره[1].

الموضوع الآخر عرفاني وهو ان الذين يتحدثون عن الطباع العرفانية يعتقدون ان الانجذاب اذاكمل تحصل فيه حالة رجوع، ومعناها ان الشخص في نفس الوقت الذي ينشغل فيه مع الله، يعي ما وراءه أيضاً. وأنا أوافقهم على هذا الرأي الذي يشبه إلى حدّ ما قضية خلع البدن. فالأشخاص الذين يبلغون هذه المرحلة توّاً قد يخلعون بدنهم لحظة أو لحظتين أو ساعة، بينما غيرهم في حالة خلع بدن تام. (وأنا اعتقد بهذا ورأيته بنفسي) قد يوجد الآن من هو جالس بيننا ويعيش حالة خلع البدن.

هؤلاء يعتقدون ان الحالة التي نزع فيها السهم من رجل علي عليه السلام وهو يصلّي من غير ان يشعر هي ادنى من الحالة التي جاء فيها الفقير والتفت الى حاله وهو يصلّي، وليس معناها انّه كان غافلاً عن ذكر الله وملتفتاً إلى حالة الفقير، بل معناها انّه كان مستغرقاً في ذات الله ومنتبهاً له انتباهاً كاملاً وهو مع الحالة هذه يرى العالم بأسره.

إذن واستناداً إلى هذه القرائن لا يمكن رفض هذا الرأي[2].

---

(١) الامامة والقيادة: ص ١٨٠.

(٢) الإمامة والقيادة: ص ١٨١.

◘ الصلاة والأمر بالمعروف :

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[1].

المؤمنون قريبون إلى بعضهم الآخر، وبموجب هذا القرب ينصر أحدهم الآخر، ويهتم بعضهم بمصير بعضٍ، أو قل في الحقيقة يهتمون بمصيرهم على اعتباره يشكل عنصراً واحداً، ولهذا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

هذان العملان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) نابعان من مودّة ايمانية، ولهذا وردت هاتان الجملتان «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» مباشرة في أعقاب الولاء الايماني للمسلمين.

الاهتمام بمصير الافراد ينبثق من الاهمام بهم ذاتياً، الأب الذي يحرص على اولاده، لابد وانّه يحرص على مصيرهم، ولكنه لا يشعر بنفس الدرجة من الحرص على أبناء الآخرين، لأنّه لا يهتم بأمرهم حتّى يهتم بمصيرهم، ولا تخلق تصرفاتهم الحسنة أو السيئة أي تأثير ايجابي أو سلبي عليه.

الأمر بالمعروف ناتج عن ذلك الشعور الايجابي، والنهي عن المنكر ناجم عن شعور سلبي. وطالما انعدمت المحبّة لا تنبثق مثل هذه المشاعر في وجود الانسان.

اذا لم يكن لدى الانسان حرص على جماعة معيّنة لا يهتم لتصرفاتهم وسلوكهم. ولكن حينما يكون هناك حرص ومحبّة، فهما لا يُتيحيان له الصمت والسكينة. ولهذا ربطت الآية الكريمة بين قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين قضية الولاء بصيغة خاصة. ثم لخصت النتائج المتأتية عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في موضوعين هما:

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

◘ الصلاة والشهادة :

كلّنا سمع وعلم أنّ أغلب الذين استشهدوا يوم عاشوراء كانت شهادتهم بعد ظهر ذلك اليوم، أي انّ غالبيّة أصحاب الحسين عليه السلام وجميع بني هاشم والحسين عليه السلام نفسه ـ وهو آخر من استشهد ـ كانوا أحياء حتى ظهر يوم عاشوراء، ما خلا نحو ثلاثين من الأصحاب استشهدوا قبل الظهر نتيجة إصابتهم بالسهام التي رشقها الأعداء نحو معسكر الحسين عليه السلام، أما الآخرون فقد بقوا على قيد الحياة إلى ما بعد الزوال.

عند الزوال تنبّه أحد أصحاب الحسين عليه السلام بأنّ الوقت هو أول الظهر. فجاء إلى الحسين عليه السلام وقال له: يا أبا عبدالله لقد حان وقت الصلاة ونريد أن نصلّي آخر صلاة لنا معك. فنظر أبوعبدالله عليه السلام إلى السماء وقال: صدقت انّه أول وقتها، ويروى أنّه عليه السلام قال: «ذكرت الصلاة» أو «ذكّرت الصلاة» فإن كانت الأُولى فانّها تعني: قد ذكرتَ الصلاة، وإن كانت الثانية فانّها تعني: أنّك ذكّرتنا بالصلاة، ومجمل قوله: «ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلّين».

فالامام عليه السلام يدعو لهذا المجاهد ـ الذي قدّم نفسه للتضحية في سبيل الله ـ أن يجعله الله من المصلّين، فأيّ منزلة يحظى بها المصلّي الحقيقي؟

وكان جواب الأمام عليه السلام: نعم نصلّي! وأدّوا الصلاة في ساحة المعركة، الصلاة التي يطلق عليها في الفقه الاسلامي «صلاة الخوف» وهي ركعتان كصلاة المسافر، ويتحتّم على مصلّيها أن يأتي بها مخفّفة حتى لو كان في وطنه وذلك لضيق الوقت، وكان على الحسين عليه السلام وأصحابه الاتيان بها مخفّفة لئلّا يتدهور وضعهم الدفاعي، وأن يصلّي جماعة منهم، والآخرون يقفون أمامهم لحمايتهم من العدو، وعندما يُنهي إمام الجماعة الركعة الأُولى يتريّث

قليلاً حتى يُتمّ المصلّون ركعتهم الثانية ثمّ ينصرفون ليحلّوا محلّ إخوانهم ـ وهنا يبقى الإمام في حالة انتظار إمّا جالساً أو قائماً ـ فيلتحق الباقون بالامام في ركعته الثانية.

هكذا أدّى أبو عبدالله عليه السلام صلاة الخوف، فقد كان بوضعٍ استثنائي، إذ انّه لم يكن بعيداً عن الأعداء، لذا فانّ الذين وقفوا للدفاع عنه كانوا على مقربةٍ منه، وحتى في تلك اللحظات العصيبة لم يتورّع الأعداء عن مضايقته فلم يَدعوه يصلّي، ففي الوقت الذي كان عليه السلام مشغولاً بصلاته صوّبوا سهامهم نحوه، تلك السهام التي كانت على نوعين أوّلهما: سهام ألسنتهم، فقد نادى أحدهم: أتصلّي يا حسين؟ انها لا تُقبل منك، وكيف تُقبل وقد خرجتَ على إمام زمانك؟ وثانيهما: السهام التي أطلقوها من أقواسهم بحيث إن اثنين من الذين وقفوا للدفاع عن الحسين عليه السلام صرعا بها، أحدهما سعيد بن عبدالله الحنفي الذي سقط بعدما أتمّ الحسين عليه السلام صلاته، وكان ينازع سكرات الموت فحمله الحسين عليه السلام إلى فسطاطه، ولمّا وضعه هناك قال عبارة عجيبة: أوَفيتُ يا أبا عبدالله؟ وكأنه يرى ان حقّ الحسين عليه السلام من العظمة والجلال بحيث ان تضحيته هذه رغم عظمتها لم ترقَ لتؤدي حقّ الحسين عليه السلام.

هذه هي صلاة الحسين عليه السلام في عرصات كربلاء، لقد كبّر فيها وذكر الله وسبّحه وركع وسجد، وكان يردّد حين قيامه: «بحول الله وقوته أقوم وأقعد»، وبعد ساعتين كانت له صلاة أُخرى فيها ركوع وسجود وذكر من نوعٍ آخر، أما ركوعه فقد كان عندما أصاب السهم المثلث قلبه فاضطر إلى الانحناء ليخرجه من قفاه.

أما كيف كان سجوده؟ انّه لم يسجد على جبهته لأنه هوى من على ظهر

جواده إلى الأرض فوضع خدّه الأيمن على رمضاء كربلاء، وكان ذكره: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله».

▣ الصلاة وذكر الشهداء:

لما أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام بالتسبيحات المشهورة (أربع وثلاثون مرة الله اكبر، ثلاث وثلاثون مرة الحمد لله، ثلاث وثلاثون مرة سبحان الله) ـ وهي التي نردّدها بعد الصلاة كتعقيبات أو قبل النوم، توجّهت نحو قبر عمّها حمزة بن عبدالمطّلب وأخذت شيئاً من تربته فصنعت لها منه مسبحة.

ثمّة معنى لفعلها هذا، انّه يعني تقديساً لتراب الشهيد وقبره، فكلٌّ منا يحتاج إلى مسبحة لأذكاره ولا فرق في أن تكون حباتها من الحجر أو الخشب أو الطين، إلّا انّ هناك من يصنعها من تراب قبر الشهيد، وهذه صورة من التقديس للشهيد والإقرار بقدسية الشهادة.

وبعد أن استشهد الإمام الحسين عليه السلام تجلبب بلقب «سيّد الشهداء» الذي كان قد خُلع على حمزة بن عبدالمطّلب عليه السلام، ومنذ ذلك الحين، من أراد أن يتبرّك بتراب الشهيد فهو يهيّيء لنفسه مسبحة من قبر الحسين بن علي عليه السلام.

فنحن إذا أردنا أن نصلّي، وبما اننا نعلم أنّ السجود على الفراش ومطلق المأكول والملبوس غير جائز، نضطر والحالة هذه إلى السجود على التراب أو الحجر، إلّا انّ ائمتنا أكّدوا بانّه ما دام السجود لا يجوز على غير التراب فمن الأفضل أن يكون هذا التراب من قبور الشهداء، وإن استطاع المرء أن يحصل عليه من تراب كربلاء فبها ونعمت لأنّه يفوح بعطر الشهادة، فالمصلّي إذا سجد على أيّ تراب فإن صلاته صحيحة، بيد انّ أجره يتضاعف كثيراً فيما إذا سجد

على تراب قد مسّ جسد الشهيد أو جاوره واختلط بعطر ذلك الشهيد.

وقد ورد عن المعصوم عليه السلام ما مفاده: اسجدوا على تربة جدّي الحسين بن علي عليه السلام فإن الصلاة بها تخرق الحجب السبعة، وهذا يعني أننا يجب أن ندرك قيمة الشهيد، وأن تربته هي التي تسمو بصلاتنا.

◙ النوافل تجسيد لطهارة الروح:

والمراد من النوافل: العبادات من غير الفرائض، والأخيرة أهم من النوافل من ناحية وجوبها، ومرتبتها معروفة من خلال وجوبها، وملاكاتها من الأهمية بمكان بحيث بلغت درجة الوجوب.

إنّ النوافل لا ترقىٰ إلى مستوى الفرائض من حيث الملاكات إلّا انّ فيها ما لا يتوفّر في الفرائض، وهو انّ الفرائض بحكم وجوبها والعقاب المترتّب على تركها يصبح الانسان مجبوراً على الاتيان بها، أما النوافل مع عدم ترتب عقاب على تركها لكن المرء يأتي بها ويصلّيها، من هنا فإن النوافل تحظى بأهمية قصوى.

على سبيل المثال: بما أن صلاة الظهر أو العصر ـ في العبادات البدنية ـ تعتبر من الواجبات وجزءاً من التكليف فإن الانسان يأتي بها لوجوبها، لكنه يأتي بنوافلها إلى جانبها، وهذا يعبّر عن عمق الطهارة الروحية لدى الانسان وشغفه بالعبادة.

وكذا الحال في العبادات المالية كالخمس والزكاة، فانّ المتعبّد يؤدّيها لوجوبها ـ وبطبيعة الحال فانّ وجوبها دليل على أهميتها ـ إلّا انّه إذا أنفق ـ والإنفاق ليس واجباً ـ فانّ عمله حينذاك يزداد أهمية. فالذي يطمح إلى المزيد من الفضل الالهي حريٌّ به أن لا يقنع بالواجبات ـ فيا من لافضل لك كيف تطمع

بفضل الله ـ وقد قيل: «مَنْ لا يَرحم لا يُرحم»[1].

◘ الصلوات المستحبة:

يقول تعالى: ﴿إلّا المصلّين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾[2] فَمن هم المقصودون في هذه الآية؟ هنالك عدة روايات في هذا المضمار تترجم لنا هذا المعنى، فقد روي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: انهم المواظبون على النوافل، لأنّه تعالى لم يقل انّ هؤلاء لم يتركوا صلاة الصبح ـ على سبيل المثال ـ، فعندما يقول: ﴿إلّا المصلّين﴾ فهو يعني من يواظب على الصلاة اليومية على الأقل وهذا لا يكفي، بل ينبغي أن يواظب على النوافل أيضاً.

إنّ أثر النوافل في تربية الانسان يفوق أثر الفرائض لما في الفرائض من صبغة الوجوبية والاجبار، والنوافل مستحبّة ولا إجبار فيها، بل تكون عن رغبة وتطوّع، ومن هنا تزداد أهميتها وتأثيرها، وقد قيل بخصوص النوافل: من الخطأ عدم الاتيان بها باستمرار، أي أن يأتي المرء بنافلة الصبح تارة ويتركها تارة أُخرى، أو يأتي بنافلة المغرب حيناً ويتركها حيناً آخر، وهكذا دواليك بالنسبة لنافلة العشاء وصلاة الليل، فهي لا تعطي ثمارها، بل الاستمرار على المستحبّات هو الذي يعطي ثماره المرجوّة.

---

(١) تفسير سورة المعارج: ١١.

(٢) سورة المعارج: ٢٢ ـ ٢٣.

سيماء العابدين

وردت في نهج البلاغة الكثير من المطالب التي تشير إلى أهل السلوك والعبادة، وبعبارة أُخرى تصوير سيماء العابدين والعبادة من خلالها، فتارة تصوّر سيماء العباد والسالكين باحياء الليل والخوف والرهبة والرجاء والشوق والمكابدة والذوبان والبكاء والنحيب وتلاوة القرآن، وأُخرى صوّرت المكاسب القلبية والفيوضات الغيبية التي يجنونها في ظل العبادة ومحاسبة النفس ومجاهدتها، ومرة يتم بحث العبادة من خلال التطهّر من الذنوب وإزالة آثارها وأكدارها. وأُخرى جرت الاشارة فيها إلى أثر العبادة في علاج بعض الأمراض الأخلاقية، وحيناً طُرحت كذكر لما يعيشه العبّاد والزهّاد والسالكون من الملذّات وحالات الأُنس الخالصة التي لا تشوبها شائبة ولا ينافسهم فيها أحد.

◘ عالم العبادة:

انّ مفهوم عالم العبادة كما ذُكر في نهج البلاغة هو عالم من نوع آخر، فهو مفعم باللّذة، هذه اللّذة التي لا يمكن مقارنتها مع لذّة الدنيا أبداً لنواحٍ عدّة، فعالم العبادة مليء بالتحرك والنشاط والسفر والتجوال، بيد ان هذا السفر أو التجوال لا ينتهي إلى ارضٍ كأرض مصر أو العراق أو الشام أو أي بلدٍ آخر على وجه الأرض، انّه يقود إلى «عالم الغيب»، وعالم العبادة لا يعرف الليل والنهار، بل

انّ النور يكتنف جوانبه كلّها فهو دائم النور انّه عالم خالٍ من الظلام والحزن والمنغّصات، عالم يزدهر بالصفاء والصدق والاخلاص، والسعيد ـ في نظر نهج البلاغة ـ من يضع أقدامه في هذا العالم وتداعب روحه نسائمه العبقة، ومَنْ دخله لا يبالي حينذاك بما يصيبه في عالم المادة والجسم، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«طوبىٰ لنفسٍ أدّت إلى ربّها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسّدت كفّها، في معشرٍ سهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم وتقشّعت بطول استغفارهم ذنوبهم، أُولئك حزب الله ألا انّ حزب الله هم المفلحون»[1].

◘ إحياء الليل:

لقد أوعز الباري تعالى في كتابه إلى المؤمنين أن يُحيوا شطراً من الليل بقراءة القرآن وتلاوة آياته وهم يعيشون في خضم توجههم إلى الله أثناء صلاتهم، ففي خطابه للرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله يقول تعالى:

﴿يا أيّها المزمّل قم الليل إلّا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾[2].

والترتيل هو قراءة القرآن بتأنٍّ وتروّ بعيداً عن السرعة التي تؤدي إلى عدم فهم معانيه، أو البطء الفاحش الذي يؤدي إلى فقدان الترابط بين الكلمات، وفي هذا المقطع يخاطب الحق تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله بأن يقرأ القرآن وهو بحالة من التوجّه لمضمون آياته.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٤٥.

(٢) سورة المزمل: ١ ـ ٢.

ثم يؤكد في الآيات التالية من نفس السورة على انّه صلّى الله عليه وآله يحتاج إلى النوم والراحة من أجل إنجاز أعماله اليومية كالتجارة والجهاد في سبيل الله، وفي نفس الوقت عليه أن لا يغفل عن التفرغ من أجل العبادة.

إن أنغام القرآن الكريم هي الدافع الوحيد الذي يبعث النشاط والحيوية في المسلمين وينمّي الجانب المعنوي والاخلاص والصفاء الباطني لديهم، فنداء القرآن هو الذي صنع من جهلاء الجزيرة العربية خلال مدة وجيزة أُناساً مؤمنين قارعوا أعتى الدول في زمانهم واستطاعوا قهرها وهزيمتها، وهم لم يكونوا ينظرون إلى القرآن على انّه كتاب تعليم أو تدريس فحسب، بل على انه مصدر للغذاء الروحي وملهم يمنحهم القدرة والايمان، من هنا كانوا يتلون آياته بكل صفاء[1].

في الخطبة ١٩٣ من نهج البلاغة المعروفة بخطبة المتقين، يعدّد أمير المؤمنين عليه السلام صفات المتقين، وبعد أن يتطرّق إلى بيان سلوكهم ومنطقهم و... الخ يشرح عليه السلام ماهم عليه في الليل، فيقول:

«أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فاذا مرّوا بآيةٍ فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت نفوسهم اليها شوقاً وظنّوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآيةٍ فيها تخويف اصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أن زفير جهنم وشهيقها في أُصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم واكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم، وأمّا النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء».

---

(١) في دعاء للامام زين العابدين عليه السلام عند ختم القرآن أشار عليه السلام إلى هذه النكتة بقوله: «واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً».

يقول تعالى:

﴿إن ناشئة الليل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً، انّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾[1].

أي سخّر الليل للعبادة، ودع النهار لخوض معترك الحياة، وقد كان الليل والنهار يتقاسمان شخصية علي عليه السلام، فهو في النهار بشأن، وفي الليل بشأن آخر.

◘ المكاسب القلبية:

ورد في نهج البلاغة:

«قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دقَّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامعٌ كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[2].

نرى في هذه العبارات ان الحديث يدور حول حياة اُخرى عُبّر عنها بحياة العقل، انّه حديث عن مجاهدة النفس وكبح جماحها، وترويض البدن والروح، والبرق الذي يلمع في قلب السالك فينيره إثر خوضه لعملية الجهاد ضد نفسه، حديث عن المنازل والمراتب التي يطويها العاشق والسالك حتى يبلغ مرامه وهو غاية ما يرقى إليه البشر معنوياً:

﴿يا أيها الانسان انّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾[3].

انّه حديث عما ينعم به قلب الواله المضطرب في نهاية الأمر من اطمئنان وسكينة:

---

(١) سورة المزمل: ٦ ـ ٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٠.

(٣) سورة الانشقاق: ٦.

﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾[1].

وفي الخطبة ٢٢٨ يصف عليه السلام ما توليه هذه الشريحة لحياة القلوب فيقول:

«ويَرَوْنَ أهل الدنيا يعظّمون موت أجسادهم وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم»[2].

وفي موضع آخر يقول عليه السلام واصفاً الجذبات التي تخطف الأرواح المتأهبة وتعرج بها نحو ذلك العالم:

«صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى»[3].

وفي أُخرى يقول عليه السلام:

«لولا الأجل الذي كتب لهم [كتب الله عليهم] لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب»[4].

وفي غيرها يقول عليه السلام:

«قد أخلص لله سبحانه فاستخلصه»[5].

وفي جانبٍ آخر يوضح عليه السلام العلوم الافاضية والاشراقية التي تنهال على أفئدة السالكين وما ينالون من يقين قاطع نتيجة تهذيبهم لنفوسهم وطيّهم لطريق العبودية، فيقول:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون»[6].

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) نهج البلاغة: ذيل الخطبة ٢٣٠.

(٣) نهج البلاغة: الحكمة ١٤٧.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

(٦) نهج البلاغة: الحكمة ١٤٧.



شاهد من عبادة المعصومين «ع»

▣ عبادة رسول الله صلّى الله عليه وآله :

بدأت مرحلة تعبّد ر.سول الله صلّى الله عليه وآله بعد زواجه من خديجة عليها السلام وأخذت حالة انفصاله ـ أي الابتعاد النفسي ـ عن قومه تتفاقم يوماً بعد يوم، فلم تعد مكة بمجتمعها تنسجم مع تطلّعاته. لذا انهمك بالتدبّر والتفكّر في الجبال المحيطة بمكة لا يرافقه حينذاك أحدٌ سوى علي عليه السلام، ولا علم لأحدٍ سوى الله عز وجل بالعالم الذي كان يعيشه صلّى الله عليه وآله.

وعند حلول شهر رمضان كان صلّى الله عليه وآله يختلي في غار حراء على أحد جبال مكة ـ وهو جبل مخروطي الشكل يقع إلى الشمال الشرقي منها وينفصل عن سلسلة الجبال المحيطة بها ـ وسمي فيما بعد بجبل النور، ولعل الكثير ممّن تشرف بحج بيت الله الحرام قد زار هذا الجبل والغار، وقد وُفّقت شخصياً لذلك مرتين، وأتمنى أن يتكرّر مرات ومرات. وهناك يستغرق التسلّق من الوادي إلى قمة الجبل ما لا يقل عن ساعة كاملة، والنزول ما يقرب من ٤٥ دقيقة.

بحلول شهر رمضان كان صلّى الله عليه وآله يهجر مكة بشكل تام، ويبتعد عن خديجة عليها السلام مصطحباً معه قليلاً من الماء والطعام متاعاً له. ويختلي في غار حراء على مدى الشهر، وان كانت خديجة ـ على ما يبدو ـ تبعث من

يحمل له الماء والطعام مرّة في كل يوم، وربما كان علي عليه السلام وحده الذي يحضر عنده، ولعلّه دائم المرافقة له هناك، لا علم لنا بهذا، إلّا انّه من المسلّم به انّ علياً كان يتواجد عنده أحياناً، لقوله عليه السلام:

«ولقد جاورتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله بحراء حين نزول الوحي».

كان صلّى الله عليه وآله يتعبّد في ذلك الجبل ولا ينزل منه، أما كيف كان يتفكّر؟ وكيف يعبّر عن عشقه لربّه؟ وما هي العوالم التي كان يطويها؟ فهذا ما نعجز عن تصوّره.

وبعد بعثته كان صلّى الله عليه وآله يقضي وطراً من الليل ـ أحياناً نصفه أو ثلثه أو ثلثيه ـ في العبادة بالرغم من انّه صلّى الله عليه وآله كان يقضي تمام نهاره في السعي والجد لا سيما في فترة وجوده بالمدينة المنوّرة، غير انّه لم يقضم من أوقات عبادته، بل كان ينال كامل اطمئنانه في العبادة والدعاء والتهجّد.

ولم تكن عبادته عن طمع في جنّة أو خوف من نار، بل عن عشق لله وشكر له، وقد سألته إحدى زوجاته ذات مرة: أما كفاك عبادة؟ ألم يغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فأجابها: ألا أكون عبداً شكوراً؟

كان صلّى الله عليه وآله كثير الصوم، فبالاضافة إلى صيام شهر رمضان وشطراً من شهر شعبان، كان يصوم ما بين اليوم واليوم، وفي العشر الأواخر من شهر رمضان كان يجمع فراشه ويعتكف في المسجد، ويقضي هذه الأيام جميعاً بالعبادة، ناهيك عن انّه صلّى الله عليه وآله كان يحث الآخرين على صيام ثلاثة أيام من كل شهر ويوصي بعبادة الله بالمستطاع وعدم تحميل النفس ما لا طاقة لها به، ويرفض الرهبانية والانزواء وإهمال الأهل والعيال، ولما فعل بعض أصحابه ذلك أنكر عليهم ولامهم قائلاً: «إن لأبدانكم ونسائكم وأولادكم عليكم

حقاً فـادّوه إليهم».

وكان صلّى الله عليه وآله يطيل العبادة في الخلوة وربـما تـمضي عـليه ساعات وساعات وهو يتهجّد، إلّا انّه كان يُسرع في صلاة الجماعة إذ كان يرى ضرورة مراعاة أضعف المأمومين ويوصي بذلك .

◘ عبادة علي عليه السلام :

بعد سنوات من شهادة أمير المؤمنين عليه السلام دخل عدي بن حاتم الطائي على معاوية، والأخير يعلم أنّ عديّاً من خلصاء علي عليه السلام، فأراد أن يثيره عسى أن يتفوّه هذا الصحابي الجليل بكلمة ينال فيها من علي عـليه السلام، فقال معاوية: ما فعلت الطرفات؟ يعني بذلك أولاد عدي طرفة وطريف وطارف، وكانوا قد قتلوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقال له عدي: قُتلوا مع أمير المؤمنين، فردَّ عليه معاوية بقوله: ما أنصفك علي! لقد قتل أولادك وأبقى أولاده.

فقال له عدي: بل ما أنصفتُ علياً إذ قتل وبقيت بعده.

حينها رأى معاوية عجز سهامه عن إصابة الهدف، فقال: صف لنا علياً.
فقال ابن حاتم: إن رأيت أن تعفيني من ذلك يا معاوية، فرفض معاوية، فأخذ عدي بوصف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن بلغ «اقسم بالله يا معاوية! لقد رأيته ليلة وقد مُثل في محرابه وأرخى الليل سدوله وغارت نجومه، ودموعه تنحدر على لحيته الكريمة وهو يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا دنيا إليّ تعرّضتِ أم إليَّ أقبلت، غرّي غيري لا حان حينُك، قد طلّقتكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آهٍ من قلّة الزاد وبعد السفر وفقد الأنيس».

واستمر عدي في وصف علي عليه السلام حتى أبكى معاوية ذا القلب

القاسي. فقال معاوية: لقد عقمت الدنيا أن تأتي بمثـل علي ولله درّ الشاعر حين قال:

ومناقب شـهد العـدوّ بـفضلها والفضل ما شهدت به الأعـداء

◙ عبادة الإمام الحسين عليه السلام:

في عصر عاشوراء هجم جيش عمر بن سعد على معسكر الحسين عليه السلام بأمرٍ من عبيدالله بن زياد، إذ انهم أرادوا القتال في تلك الليلة، فدعا عليه السلام أخاه العباس ليطلب منهم إمهاله سواد هذه الليلة مؤكداً انّه لن يستسلم لهم وسيقاتلهم في الغد.

ولئلّا يتصوّر الأعداء انّه يحاول المماطلة فقد أكد لأخيه العباس عـليه السلام انّه يريد مناجاة ربّه واستغفاره في هذه الليلة لأن الله يعلم أنّ الحسـين يحبّه ويحب مناجاته.

أيُّ ليلة كانت تلك التي قضاها الحسين عليه السلام؟ انها كانت معراجاً بالنسبة له ولأصحابه فقد سادها عالم من السرور والبهجة، وقضاها الحسين عليه السلام وأصحابه بالتطهّر حتى انهم حلقوا شَعر أبدانهم وكانت لديهم خيمة تسمى «خيمة التنظيف» وقد وقف إلى جانبها اثنان من الأنصار كان أحـدهما على الظاهر «برير» وهو يمازح صاحبه فرد عليه: وقت مزاحٍ هذا؟ فأجابه: أنا لا أحب المزاح ولكن ما هي إلّا سويعات ونعانق الحور العين.

وعندما مرّ قوم على مقربة من خيام أصحاب الحسين عليه السلام هؤلاء التوابين المستغفرين قالوا والكلام لأعداء الحسين عليه السلام ـ كان لهم دويٌّ كدويّ النحل، فهم ما بين قائم وقاعد وراكع وسـاجد، فـقد كـانت أصـوات أصحاب الحسين عليه السلام في تلك الليلة تشبه دويّ النـحل لاسـتغراقـهم بالذكر والدعاء والصلاة والاستغفار.

في تلك الليلة أراد الحسين عليه السلام أن يتوب إلى الله، وكان يريدها ليلة لعروجه، وإذاكان الحسين هكذا أفلا نحتاج إلى توبةٍ ؟ أهُم بحاجةٍ إلى توبةٍ ونحن لا ؟

نعم، بهذه الحالة قضىٰ الحسين عليه السلام ليلته تلك، قضاها بالعبادة وتوديع الأهل والعيال، وفيها خطب بأصحابه تلك الخطبة الغرّاء.

▣ عبادة الإمام السجاد عليه السلام :

يقول طاووس اليماني: رأيت علي بن الحسين عليه السلام يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبّد، فلمّا لم ير أحداً رمق السماء بطرفه، وقال: «**الهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحة للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدّي محمد صلّى الله عليه وآله في عرصات القيامة ...**» إلى غير ذلك مما نقله طاووس اليماني -إلى أن قال-، ثمّ خرّ إلى الأرض ساجداً فدنوت منه ورفعت رأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خدّه فاستوى جالساً وقال: من الذي شغلني عن ذكر ربي؟ فقلتُ: أنا طاووس يابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي، وأُمك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول الله!؟ فالتفت إليّ وقال: «**هيهات هيهات يا طاووس دع عنّي حديث أبي وأمي وجدّي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾[1] والله لا ينفعك غداً إلّا تقدمة تقدّمها من عمل صالحٍ**»[2].

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠١.

(٢) بحار الأنوار: طبعة الكمباني ج ١١ ص ٢٥.

لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام سيّداً للمعنويات، وهكذا الحال بالنسبة لأهل البيت عليه السلام جميعاً، فحينما يرى المرء علي بن الحسين عليه السلام في خشيته من الله تبارك وتعالى وصلاته التي تجسد التهجّد بأجلى معانيه تستحوذ عليه الدهشة، وكما يعبر الكسيس كارل: «انها عروج الروح نحو الله»، فلم يكن عليه السلام في صلاته جسداً يواجه الكعبة وروحه قد نأت لاهية في مكان آخر، أجل، فمن يرى علي بن الحسين عليه السلام يبقى يردد مع نفسه؟ أي إسلام هذا؟ وأيّ روحٍ هذه؟

عندما يرى المرء علي بن الحسين عليه السلام يحسبه رسول الله وهو يتهجّد في محرابه آخر الليل أو معتكفاً في غار حراء.

ذات ليلة كان الإمام عليه السلام مشغولاً بصلاته ومناجاته التي واظب عليها طيلة حياته، فسقط أحد أولاده فكسرت يده ممّا تطلب عرضه على الطبيب، فلم يأت إليه أهله لئلّا يشغلوه عن عبادته، والطفل في هذه الأثناء يضجّ صارخاً من الألم، وجاؤوا بمن يعالج الطفل، وما أن تمّ الأمر وسكن الألم وأصبح الصباح نظر الإمام عليه السلام إلى ولده فرأى ما به وتساءل عن ذلك فقصّوا عليه ما جرى.

لقد اتّضح أن الإمام عليه السلام كان يعيش حالة من الجذب وعروج الروح بحيث إنّه أيّاً من تلك الصرخات لم تصل إلى مسامعه.

نفحات من عبادة العلماء

▣ الشيخ محمد حسين المطهري :

هناك بعض اللّذات المعنوية التي تـصعّد روحـنا الى الأُفـق الأعـلى، فالمتهجدون والصادقون والصـابرون والمسـتغفرون بـالأسحار فـهم الذيـن يلتذّون بصلاة الليل ويبتهجون بها.

لهذا فالذين استطاعوا بلوغ هذه المـرتبة ـ وقـد شـاهدنا أمـثالهم ـ لا يعيرون للذّات المادية التي تعلّقنا بها أدنى اهتمام، وفي هذا المجال لا ضير في أن أتطرّق لذكر والدي الكريم.

منذ ما يقرب من أربعين سنة ـ على ما أتذكر ـ كنت أشاهد هذا الرجل الجليل واراقبه، فلم يستغرق في نومه أكثر من ثلاث ساعات من الليل، فـهو يتناول طعام العشاء أول الليل وينام ثلاث ساعات ثم ينهض قبل طلوع الشمس بساعتين على أقل تقدير، أما في ليالي الجمعة فهو يستيقظ قبل طلوع الشمس بثلاث ساعات ويقرأ ما لا يقل عن جزءٍ من القرآن الكريم يومياً ويصلّي صلاة الليل بكامل الهدوء والاطمئنان.

والآن بلغ ما يناهز المائة من عمره ولم أره يوماً مضطرباً قط، وقد جهد في الحفاظ على تلك المتعة المعنوية، ولم تمر عليه ليلة دون أن يدعو لوالديه، وكانت له مربّية يكنّ لها بالغ الودّ لما لمسه منها من حنوٍّ، فلم تمر عليه ليلة إلا

وشملها بدعائه، وكذا بالنسبة لسائر أرحامه وذوي الحقوق وأقاربه، وبالحقيقة انّ هذه الأُمور هي التي تُحيي القلب، فإن أراد المرء أن يعمّر قلبه بمثل هذه الملذات ما عليه إلّا الابتعاد عن اللذائذ المادّية كي ينال تلك اللذة المعنوية[1].

◙ الحاج الميرزا علي آقا الشيرازي:

وأتطرق هنا لذكر أُستاذي العالم الجليل الحاج الميرزا علي آقا الشيرازي ـ أعلى الله مقامه ـ وهو من أعظم الرجال الذين صادفتهم في حياتي ويمثّل أُنموذجاً للزاهدين والعابدين وأهل اليقين وبقيّة السلف الصالح الذين أتحفتنا كتب التاريخ بهم.

كان «رحمه الله» يمتنع عن إمامة الجماعة، وفي احدى السنين وفي شهر رمضان على وجه التحديد أمّ الجماعة في مدرسة الصدر بعد الحاح شديد فاحتشدت جموع المصلّين بشكل لم يسبق له مثيل، وسمعتُ حينها انّ المساجد القريبة من المدرسة قد خلت من المصلّين، ولم يواصل إمامة الجماعة فيما بعد.

وكان «رحمه الله» يستيقظ قبل طلوع الشمس بساعتين على الأقل، ومنه عرفت معنى إحياء الليل، وفهمت معنى العبادة ومعرفة الله والاستغفار.

(١) الحق والباطل: ١٧١ ـ ١٧٢.

الآثار التربوية للصلاة

قال تعالى:

﴿إنّ الانسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً، إلّا المصلّين الّذين هم على صلاتهم دائمون﴾[1].

العبادة من جملة أركان التربية الدينية، والعبادة في نظر القرآن الكريم ما صحّت واتّسمت بالواقعية وتوفّرت شرائطها وكان جوهرها التوجّه إلى الله وطلب المغفرة منه والاستغاثة والاستعانة به، وكذلك تهذيب النفس وتشخيص معايبها، انها أهمّ عامل في تربية الانسان، وفي الواقع لو تساءلنا: لماذا أوجب الله الصلاة؟ لكان بوسعنا القول: انّ الصلاة هي التي تصوغ ذاتنا.

▣ بناء الذات:

ثمّة مفهوم متداول في مجال التربية والتعليم والمعارف الاسلامية هو: انّ الانسان صنيعة عمله، أو بعبارة أُخرى: الانسان صنيعة ذاته، أي انّه يُبنى بعمله، فهو يُصنع كيفما يعمل، وهذا المفهوم من المستجدّات في الفلسفة الغربية ويطلقون عليه «براكتيس» "**Braktes**" أو «فلسفة العمل» في حين انّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

---

(١) سورة المعارج: ١٩ ـ ٢٣.

فشخصية الانسان إذن تتبلور طبقاً لعمله، وهو يصاغ كيفما يـعمل، أي هوالفاعل وهو نتيجةفعله، والصلاة تبني الانسان، من هنا يأتي قـول القـرآن الكريم: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة**﴾، وقد ورد في المأثور: انّ أول مصداق للصبر هو الصوم.

فلابدّ أولاً من الالتـزام بـالآداب الظـهرية للـصلاة ومـن ثـم المـبادرة إلى آدابها الباطنية، والمراد بالآداب الظاهرية شرائط صحّة الصـلاة وقـبولها، فاذا قيل للمصلي: لا تجوز الصلاة في الأرض المغصوبة وان خالفت ذلك فانّ صلاتك باطلة، أو انّ صلاتك تبطل إذا كانت الدار التي أنت فيها مغصوبة، وكذا البساط الذي تصلّي عليه أو الملابس التي ترتديها حين الصلاة، بل لو كانت في ذمّتك ديون للغير وحان وقت إدائها والمدين بحاجة إلى أمواله وهو لا يمهلك ولا يدعك تصلّي، فإن كان هناك متّسع من الوقت فعليك أولاً إداء دينك ومن ثمّ المبادرة إلى الصلاة.

أي ينبغي بادىء الأمر إصلاح الحال مع الآخـرين وإداء حـقوقهم ثـم التوجّه نحو الله، فكلٌّ من هذه الأُمور يعدُّ عاملاً في بناء الانسان.

ولكن هل تُقبل الصلاة في حالة توفر جميع هذه الشرائط؟ يقولون فـي الجواب: كلا! فالصلاة هنا صحيحة بيد انّ قبولها يرتبط بشروط أُخرى مـنها تجنب الذنوب، فلكي ترتفع الصلاة لابدّ من التوجّه إلى الله والتعلّق بـه وإداء الصلاة بحضور قلبٍ وتفاعل، أي أن يعيش المصلّي حالة الدعاء بحقيقتها حينما يقول: ﴿**إيّاك نعبد وايّاك نستعين**﴾ من أجل أن تقبل صلاته.

إذا تعرض المصلّي إلى خطر ما أثناء صلاته ـ على أن لا يكـون خـطراً فادحاً ـ فلا ينبغي أن يقطع صلاته، والانسان بطبيعتين يئنّ إذا تعرض للسـعة بعوضة إلّا انّ وضعه يختلف كلياً إذا تجاوز هذه الحالة وارتقى إلى مرتبة السموّ

من حيث المعنويات.

فالصلاة هكذا تبني الانسان، وإذا واظب المرء على الصلوات الخمس فانها تترك أثراً ربما يستمر مدى عمره شاء أم أبى [1].

▣ النظافة:

ثمّة سمة تميّز بها الاسلام وهي انّه يعدّ العبادة بمثابة ارتباط وعُلقةٍ بين العبد وربّه وتحطيم لجدار الغفلة وتوجّه نحو الله جلّ وعلا، غير انّ هناك أمراً لافتاً للنظر وهو انّ الاسلام أطَّر العبادة واهتم بهذا الاطار غاية الاهتمام ووضع له مجموعة من الممارسات التربوية، فعلى سبيل المثال: أيّ تأثير تتركه نظافة بدن الانسان إذا أراد التوجّه بقلبه إلى الله؟ وقد ورد في المأثور: ان الله ينظر إلى قلوبكم ولا ينظر إلى صوركم[2].

فنحن إذ لا نريد العروج إلى الله بأبداننا فلا ضرورة. والحالة هذه ـ أن تكون أبداننا نظيفة، اننا نريد أن نعرج إلى الله بقلوبنا فيجب أن تكون قلوبنا طاهرة، من هذا المنطلق فانّ الاسلام عندما يشرع عبادة ما ويريد لها أن تترك بصماتها لا سيما من الناحية التربوية فهو يطبق ما لا يرتبط كثيراً بالصلاة إلّا ان فيه بالغ الأثر بالنسبة لجوهر الصلاة على الصعيد التربوي سواء كان واجباً أو مستحبّاً من قبيل الغسل والوضوء والبقاء على الطهارة، وكلّ ذلك من سنن الاسلام.

على أية حالٍ فالاسلام يؤكد على وجوب طهارة الملبس والبدن عند إداء الصلاة، وهذه ممارسة تطهيرية ضمن إطار العبادة[3].

---

(١) تفسير سورة المعارج: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) الجامع الصغير: ج ١ ص ٧٤ باختلاف طفيف في مضمون حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

(٣) التربية والتعليم: ١٨٦ ـ ١٨٧.

لقد ربط الاسلام بين الدنيا والآخرة ، ففي الصلاة نجد ان الجانب المرتبط بالآخرة فيها هو أن يعيش الانسان ذكر الله وأن تتملكه الخشية منه تعالى ، فإن كانت الطهارة والنظافة عديمتي التأثير في ذلك فلماذا يا ترى يأمرنا الحقّ تعالى بالوضوء والغسل والطهارة؟ وهل للغسل تأثير في التوجّه إلى الله ؟ ربَّ قائل يقول : لا ضرورة في أن يغسل الانسان وجهه من أجل التوجه إلى الله ، في حين ان الله تعالى يقول : **﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾**[1].

كما نرى انّه تعالى قرن النظافة بالعبادة حينما قال : **﴿وإن كنتم جُنباً فاطّهّروا﴾**.

◘ إداء الحقوق :

القضية الأُخرى هي الحقوق ، وفي واقع الأمر لا فرق من الناحية المعنوية للصلاة في أن تؤدىٰ على بساط مغصوب أو مباح ، فذلك انما يمثل عقوداً اجتماعية وسنن تعود بالنفع للمجتمع حتى يحترم كُلّ منا حقوق الآخر ، وأن لا يتجاوز بعضنا على حقوق البعض الآخر ، وإلّا فلا اعتبار لهذه المادّيات وانّها لا تمثل الحقيقة بعينها ، حتى يكون لما امتلكه اعتبار وحقيقة فيما يكون لما تمتلكه اعتبار وحقيقة أُخرى ، بل العبادة هي الحقيقة ، أي انّ هذه الأُمور لا تأثير لها في العبادة من حيث العلاقة والوصلة الروحية القائمة بين الانسان وبارئه .

ثمة أُمور تطرأ على وضع الانسان فتؤثر على عبادته ، بل ان جوهر العبادة يرتبك لها ، منها ما إذا تعرّض المرء لبعض الاضطرابات البدنية والنفسية ، وهذه الاعراض تحول دون تحقّق حالة التوجّه ، بيد ان ما سبقت الإشارة اليه لا

---

(١) سورة المائدة : ٦.

يضاهيها في التأثير.

إلى جانب ذلك فقد أكّد الاسلام على وجوب إباحة المكان الذي يُصلّي فيه والماء المستخدم للوضوء، بل وحتى الاناء الذي يوضع فيه ماء الوضوء واللباس الذي يرتديه المصلّي أثناء الصلاة، أي ان لا يكون ذلك محرّماً، إذ انّ العبادة لا تُقبل حتى لو كان في اللباس خيط مغصوب.

هنا تُقرن العبادة مع الحقوق أيضاً، ففي الوقت الذي يحثّ الباري تعالى على العبادة فهو يؤكّد على وجوب احترام حقوق الآخرين، أي انّه يؤكد على رفض العبادة ما لم تقترن باحترام حقوق المجتمع.

فعلى المصلّي أن يفكر باديء ذي بدء بالبيت الذي يسكنه، هل هو غصب أم لا؟ فإن كان غصباً فصلاته باطلة فيه، وعليه أن يتدارك أمره كأن يشتريه من صاحبه الأصلي أو يرضيه، وهكذا بالنسبة للبساط الذي يصلّي عليه، واللباس الذي يصلّي به، ناهيك عمّا يتعلّق بذمّته من حقوق للفقراء، فعليه إداء ما بذمّته من خمسٍ أو زكاة.

◘ الإلتزام واحترام الوقت:

ثمّ انّه تعالى يشدّد على تحديد الوقت بدقّة في التعبّد، فوقت صلاة الصبح يبدأ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فهي إذن تبطل قبل هذا الوقت أو بعده، فلا يجوز مثلاً أن يأتي بها المصلّي قبل وقتها بنصف ساعة متذرعاً بغلبة النعاس عليه نتيجة السهر وانّه لم يبق لطلوع الفجر سوى ساعة أو غير ذلك.

إن جميع الأوقات سواء بالنسبة لله تبارك وتعالى فهو لا يعتريه نوم أو يقظة ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[1] إنّما الفارق في الوقت يمسُّ العبد من أجل أن

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

يتربّى من خلال الصلاة على احترام الوقت والالتـزام بـه ، فـعلى المـصلّي أن يستيقظ ما بين الطلوعين لإداء صلاة الصبح حتى لو كان قد سهر الليل ، وهكذا بالنسبة لصلاتي الظهر والعصر وصلاتي المغرب والعشاء.

الأمر الآخر الذي يثير الاهتمام هوالدقّة في التوقيت بنحوٍ انّه يكون وفقاً للدقائق والثواني ، فلا شكّ بأنّه عديم التأثير في جوهر العبادة وعلاقة الانسان بالله تعالى ،كما لو ان التوجّه لا يحصل قبل دقيقة من حلول الزوال ويحصل بعده بدقيقة ، غير ان الاسلام اشترط الوقت هادفاً من وراء ذلك أن لا تقع الفوضىٰ ، وهذا بحدّ ذاته مظهر من مظاهر احترام الوقت ، ورياضة من أجل تنظيم الوقت والزمان، فلو صلّينا وتبيّن فيما بعد ان وقت الصلاة لم يحن بعد ، أو انّ جزءاً منها كان في الوقت والآخر خارجه ، فالصلاة باطلة ، أما مَنْ جاء بالصلاة قبل وقتها سهواً أو ان ركعة واحدة كانت قبل دخول الوقت فإنّ صلاته صحيحة .

▣ وحدة القبلة :

الأمر الآخر الذي نستفيده من الصلاة هو ما أمر به الاسلام من وجوب التوجّه نحو محور واحـدٍ أثـناء الصـلاة ، وإن صـرّح القـرآن الكـريم قـائلاً: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾[1]، فمن حيث جوهر الصلاة لا فرق في أن نولّي وجوهنا قِبلَ المشرق أو المغرب أو الشمال أو الجنوب ، فالأمر بأن نتوجّه نحو قبلةٍ واحدةٍ لا يعني أننا لو توجهنا نحو القبلة فاننا نقف أمام الله تبارك وتعالى وبغير ذلك لا يتحقق وقوفنا بين يديه ، غير ان الاسلام ولمـنفعة تربوية اجتماعية لا علاقة لها بجوهر العبادة ـ أي ان جوهر العبادة لا يقوم بها ـ يؤكد على وجوب أن يولّي الجميع وجوههم صوب محور واحد بدلاً من التوجّه

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

كيفما يشاؤون كي يفهم الناس ان عليهم توحيد وجهتهم، وهذا يعدّ درساً في الوحدة والتلاحم وتوحيد الهدف والمنحى.

ولكن ما المحور الذي يختاره لنا الباري عز وجل حيث إن جميع الأماكن لديه سواء؟ انّه تعالى يقول: **﴿ان أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركاً﴾**[1].

أي أول معبد ومسجد شُيِّد لعبادة الله جلّ وعلا، وبهذا يربطنا بسالف التاريخ أي يعود بنا إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام ومَنْ سبقه، فالكعبة وإن بنيت على يدي إبراهيم عليه السلام إلّا أنها كانت قبلة، واستناداً إلى ما رفدتنا به الروايات فإن إبراهيم عليه السلام جدّد ما بناه نوح عليه السلام أومَنْ سبقه، وبعد بقيت الكعبة إلى يومنا هذا ولم يمر زمان على الكعبة كانت فيه مهدّمة فانها تُجدد متى ما احتاجت إلى التجديد.

وهذا الاختيار بحدّ ذاته مظهر من مظاهر احترام العبادة، أي انّ العبادة لها من الأهمية بحيث وجب على الناس أن يتوجّهوا أثناء الصلاة نحو أول مسجد ومعبد وضع من أجل العبادة.

لقد تناولت في كتاب (خدمات متقابل اسلام وايران) على نحو الاستفاضة موضوع تقديس النار الشائع بين الزرادشت منذ سالف الدهر أي منذ ما يربو على خمسة آلاف سنة، وقد عقدت المجالس من أجل بحث هذا الموضوع قديماً لا سيما في عهد المأمون، وإذا ما وجّه المسلمون اعتراضهم إلى الزرادشت على فعلهم هذا فإنهم يجيبون: إذا كنا عبّاداً للنار فأنتم عبادٌ للحجر حيث إنكم تتوجهون نحو الكعبة، أو انهم يقولون: لسنا عباد النار كما هو الحال بالنسبة لكم إذ لم تعبدوا الحجر، فنحن نتوجّه صوب النار لكننا لا نعبدها،

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

وكلامهم هذا خاطىء في جميع أبعاده، فهناك بونٌ شاسع بين ما يضمره المسلم إزاء الكعبة وما يشعر به الزرادشتي ازاء النار، فكلا الشعورين ينطلقان من صميم التعاليم التي حفلت بها الكتب الدينية لكلا الطرفين.

انّ المسلم عندما يتوجه نحو الكعبة لا يشعر أبداً انّه يعبدها بأي حالٍ من الأحوال، بل انّ ذلك لا يخطر حتى على بال الأطفال من المسلمين، بينما ينعكس الأمر بالنسبة للزرادشت فكل فرد منهم يعبد النار بأيّ نحو كان، سواء باعتبارها تجسيداً للإله أو اعتبار آخر وموقفهم مشابه تماماً لعبّاد الأوثان الذين كانوا يقدّسونها ولا يعبدونها.

على أية حالٍ، فوجوب توحيد القبلة أثناء الصلاة هو تأطير للعبادة، وجوهر العبادة إنما هو شيء مجرّد يتحقّق حتى لو انزوى المرء لوحده وتوجه أينما شاء، بيد ان الاسلام يرفض مثل هذه العبادة ناهيك عن التأثير الذي تستبطنه الحركات المكوّنة لأفعال الصلاة مثل الركوع والسجود، أي انّ كل حركة منها تمثّل مظهراً من مظاهر الخضوع والخشوع أمام الباري تعالى، والاسلام يريد تطبيق هذا المعنى في إطار مجموعة من الاطروحات التربوية التي يراها ضرورية للحياة.

◘ ضبط النفس:

انّ أهم الأُطر التي وضعها الاسلام للعبادة هي ممارسة ضبط النفس أثناء الصلاة باعتبارها عبادة شاملة، وبطبيعة الحال فإن هذه الميزة متوفّرة في الحج أيضاً لكن بنحو آخر، أي أنّ المرء عندما يُحرم فهو يمتنع عن بعض الأُمور ويمارس عملية ضبط النفس، وهكذا بالنسبة للصوم.

والصلاة تضمّ بين طيّاتها الكثير من قواعد التربية الاسلامية؛ فلا يجوز أثناءها الأكل والشرب والضحك والبكاء لأيّ سبب كان، ما خلا البكاء لله

وخشية منه، وأثناءها يتوجّب على الانسان أن يسيطر على رغباته من قبيل الأكل والنوم، وأن يضبط مشاعره من قبيل الضحك والبكاء، وكذا التحرّك الفاحش كالالتفات يميناً وشمالاً، وكل ما يصدر عن المصلّي من كلام خارج إطار ما أُمر به في الصلاة، كل ذلك مبطل لها ناهيك عن الحدث الذي ينقض الطهارة كالنوم مثلاً، وفي الحقيقة ان كل ذلك صورة من الانضباط البدني والروحي؛ فمن الناحية البدنية لا يجوز الالتفات يميناً أو شمالاً أو الخلف، ومن الناحية الروحية لا ينبغي للانسان أن يقع أسير رغباته.

◙ الاطمئنان البدني والنفسي:

كيف تتحقق الطمأنينة؟ وهذا أمر مدهش حقّاً، فأنا عندما أُصلّي أُطبق جميع تلك المقررات إلا انّي أتحرك كثيراً فتارة أرفع إحدى رجليّ وأضع الأُخرى، وتارة أتحرك يميناً وشمالاً وهكذا دواليك، وأثناء الركوع طالما أحرك يديّ.

يقال ان هذه الصلاة باطلة اذ يجب على المصلّي أن يعيش حالة الاستقرار والطمأنينة أثناء الصلاة، أي عندما يقف ويرفع يديه لتكبيرة الاحرام يجب أن يكون بدنه مستقراً وإلّا فصلاته باطلة، ثم انّه إذا أراد أن يتحرك بعد ذلك فليفعل بشرط أن يقطع ما لديه من ذكر، فإن كان على سبيل الفرض يشكو ألماً في إحدى رجليه أو أيٍّ من أعضاء جسمه فليسكت ويأخذ قسطاً من الراحة ومن ثم يستقر ويستأنف صلاته.

وخلال الصلاة إذا شعر مرة أُخرى بألمٍ في رجله فعليه الإستقرار والسكوت وأخذ قسطٍ من الراحة والعودة إلى صلاته باطمئنان واستقرار، فيجب ان يحيى الاطمئنان والسكينة أثناء الصلاة بدنياً وروحياً.

◘ تعظيم الله وتصغير ما سواه :

وهنا خذ مثلاً كلمة «الله اكبر» فمن هو الانسان حتى لا تستحوذ عليه الرهبة وهو يواجه عاصفة من الأحداث ؟ فالانسان بطبيعته يخاف، فهو إذا وقف أمام جبلٍ أو صعد على قمته وألقى بنظره نحو الوادي لاستحوذ عليه الرعب، وهكذا فإن الخوف يتملّكه إذا وقف على ساحل البحر ونظر إلى أمواجه المتلاطمة، وإذا شاهد واحداً من أصحاب السلطة والجاه فهو يضطرب ويتلعثم، لِمَ كل هذا الاضطراب؟ لأنه يقع تحت تأثير هيبته.

حسناً، هذا ما يطرأ دائماً لعامّة الناس، الّا انّ من استلهم معنى كلمة «الله أكبر» لا يهزه جبروت أيٍّ كان من البشر أو الظواهر الكونية الأُخرى لأن كلمة «الله أكبر» تعني انّه جل وعلا أكبر من كل شيء، بل انّ الذات الالهية المقدّسة أعظم من كل توصيف، كلمة «الله أكبر» تعني فيما تعني: أنّي أُعظّم الله تعالى وإذا عظّمته تصاغرت أمامي جميع الأشياء، فكلمة «الله أكبر» تنمّي شخصية الانسان وتبعث في نفسه العظمة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**»[1].

وهنا نضرب هذا المثال للتوضيح: ان الصغر والكبر هما أمران نسبيان، فلو دخل أحدكم صالةً كبيرة وكان قبل ذلك قد دخل في أصغر منها ولنفرض انّ مساحتها ثلث مساحة الاولى فإن الأخيرة تبدو له أصغر من الاولى، والعكس هو الصحيح، فالانسان عندما ينظر إلى شيئين الأول أكبر من الثاني فانّه يرى الثاني أصغر وبالعكس.

من هنا فالذين عظم خالقهم في أعينهم يتحسّسون هذه العظمة فيصغر كلّ

---

(١) نهج البلاغة: خطبة المتقين.

شيء في أعينهم ولا يرون له عظمة أبداً، وان إحدى معاني «وحدة الوجود» هي ان العارف عندما تتجلّى أمامه عظمة الخالق فهو ينفي كل موجود غيره ويرى أنّ وجود كل شيء غيره انما هو عدم.

وعندما يكبّر المؤمنون ويقولون «الله أكبر» وتنطلق هذه الكلمة من أعماق أرواحهم وأفئدتهم فإن عظمة الخالق تتجلّى أمامهم، وعندما تتجسّد عظمته جلّ وعلا في قلوبهم فمن المحال أن يروا عظمة لغيره فلا يتزلّفون أو يتملّقون لديه أو يرهبونه أو يخضعون له، لأنّ العبودية لله تعالى تهب الحرية، فإن تجلّت عظمة الباري للمرء فإنّه يتحول إلى عبدٍ لله وعبودية الله تستلزم الانعتاق ممّا سواه.

إن العبودية لله تعالى مقترنة على الدوام مع التحرر من غيره لأن إدراك عظمته متلازمة مع تصغير ما سواه، وإذا ما رأى الانسان حقارة غير الله ـ مهما كان ـ فإنه من المحال أن يعبده، فالعبد لله يرى من فواحش الأخطاء أن يعبد الحقير.

◘ التسامح وحبّ الوئام:

المسألة الأُخرى التي وردت ضمن آداب الصلاة هي التسامح وحبّ الوئام مع سائر البشر فعند قراءتنا لسورة الحمد في الصلاة نخاطب الباري تعالى: **﴿إيّاك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾**.

والخطاب يأتي هنا بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، بالرغم من وجوب عدم انشغال ذهن الانسان بغير الله من ناحية جوهر العبادة إلّا انّ الشارع المقدّس ولمنفعة اجتماعية بالغة الأهمية أطّر العبادة بإطار جماعيّ كي ينمّي في الانسان الروح الاجتماعية، فأوعز إليه أن يقول: **﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾**

وهنا يتجسّد التآلف والاتحاد بأجلى صوره.

أي انّ لسان حال العبد ينطق باسم جميع المسلمين وليس باسمه فقط، ويعدّ نفسه جزءاً من كلٍّ وعضواً من هذا الجسد الاسلامي، وبذلك يعبر عن تلاحمه وانشداده للمجتمع الاسلامي أثناء أدائه لهذه العبادة.

في المفهوم الاسلامي لا اعتبار لـ «الأنا» بل «نحن» هي الفاعلة، وهذا ما يعبّر عنه المصلّي حين ينادي ربّه: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

والأسمى من ذلك ما تتضمّنه الصلاة من روح السلام والوئام الواردة في التسليم، ورغم انّ الصلاة تمثّل توجّهاً نحو الله، وان الانجذاب إلى غيره تعالى شرك فإن الشارع المقدّس أمر المصلّي بأن يقول: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهذا بحدّ ذاته إعلان للسلم والأمان مع عباد الله الصالحين، وكما يصطلح عليه في عالمنا المعاصر «التعايش السلمي» مع الصالحين من أبناء البشر، ففي الصلاة يعلن المصلّي انتفاء حالة الحرب مع عباد الله لأن من أعلن الحرب على عبدٍ صالحٍ فهو غير صالحٍ.

هذا نوع من اعلان حالة السلم، وفي نفس الوقت ليس مع الناس جميعهم، فهناك من يجب القضاء عليهم واجتثاث أُصولهم كي تنعم البشرية بسلام، وانما هو إعلان للسلم مع عباد الله الصالحين والمستقيمين، أي ان العبد ينادي ربّه: إلهي انّي سلمٌ لكل عبادك الصالحين.

▣ محو الذنوب:

إن أيّ ذنب يرتكبه الانسان يترك أثراً من الأدران والظلمات على قلبه، وبالتالي تتضاءل رغبته واندفاعه نحو الأعمال الصالحة والحسنة، وتتنامى لديه الرغبة لارتكاب المزيد من الموبقات، وفي المقابل إذا تنامت في نفسه العبادة وذكر الله وتنامى شعوره الديني فإن رغبته واندفاعه نحو أعمال الخير

يتضاعفان، وتضمر فيه روح الاندفاع نحو الفساد وأفعال الشر، أي انّه يـزيل الأدران الناجمة عن الذنـوب ويـبادر بـدلاً عـن ذلك للـقيام بأعـمال الخـير والاحسان.

ثمّة خطبة في نهج البلاغة يتطرّق فيها أمير المؤمنين عـليه السـلام إلى الصلاة والزكاة وإداء الأمانة، وبعد أن يؤكّد عليه السلام على الصلاة ويوصي بها يقول:

«وإنها لتحتّ الذنوب حتَّ الورق، وتطلقها طلاق الرّبق، وشبّهها رسول الله صلّى الله عليه وآله بالحمّة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن»[1].

(١) في رحاب نهج البلاغة: ٩٦.

الصلاة والأُسرة:

بودّي كثيراً أن ندرك أهميّة الصلاة التي هي عمود ديننا، وأن نعرف أننا مسؤولون عن أداء عوائلنا للصلاة، فكلٌّ منا مسؤول عن صلاته وعن صلاة أُسرته أيضاً.

لقد خاطب الحق تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾**[1].

وهذا الخطاب لا يختص بالنبي صلّى الله عليه وآله لوحده بل يشملنا جميعاً.

◘ سبل تعريف الأطفال بالصلاة:

ما الذي يجب فعله مع الأطفال؟ ينبغي علينا تدريب الأطفال منذ الصغر على الصلاة، وقد وردت إلينا الأوامر في أن نعلّم أطفالنا عليها منذ بلوغهم سنّ السابعة، وبطبيعة الحال فإن الطفل في السابعة من عمره لا يستطيع إداء الصلاة بصورتها الصحيحة، إلّا انّه يستطيع إداء بعض حركات الصلاة، ومنذ تلك السن يستطيع ـ ولداً كان أو بنتاً ـ أن يمارسها ويعتاد عليها، أي يفترض بنا تعليمه منذ أوان ذهابه إلى المدرسة، وكذا يجب تعليمه في البيت، إلّا ان ما ينبغي الانتباه له

---

(١) سورة طه: ١٣٢.

هو عدم جدوى إجباره وتعليمه بالقوّة، فيجب السعي باديء ذي بدء إلى توفير الرغبة لديه في الصلاة، ومن ثم تشجيعه بتوفير أسباب الاقدام قدر المستطاع من أجل أن يؤدي الصلاة برغبة واندفاع، وذلك من خلال الثناء عليه والاستحسان وتقديم الهدايا وإبراز التودّد له حتى يفهم حينها ان المحبّة له تتضاعف عندما يؤدي الصلاة.

◙ الأطفال والمسجد:

الاسلوب الثاني هو أن نصطحب الطفل إلى الأماكن التي تبعث لديه الرغبة في الصلاة، فقد أثبتت التجارب أن الطفل لا يتشجع إذاكان لا يذهب إلى المسجد وكان يعيش في وسطٍ لا أثر للصلاة فيه، لأن التواجد في أوساط المصلّين هو الذي ينمّي الرغبة لدى الانسان، فكبار السنّ تتنامى فيهم روح العبادة عندما يرون أنفسهم بين أُناسٍ متعبدين، والأطفال بدورهم يتأثرون بهذه الأجواء تأثيراً أكبر، وللأسف فإن قلّة ارتياد المساجد والمجالس الدينية وقلة حضور الأطفال في المحافل الدينية يؤدي إلى تدنّي الرغبة لديهم في تعلّم العبادات، وهذه هي مسؤولية في أعناقنا، وطالما ورد التأكيد في الروايات على حثّ الأطفال لتعلّم الصلاة، غير انّ ذلك لا يعني ممارسة الضغط والقوة والزجر، بل التوسّل بأفضل السبل التي تدفع الطفل وتحثّه على العبادة والصلاة، والأحرى بنا أن نصطحب أطفالنا بانتظام عند ذهابنا إلى المساجد كي يألفوها، فنحن إذ ألفنا ارتياد المساجد ومجالس الذكر منذ الصغر حتى أصبحنا اليوم نتردّد عليها باستمرار، فأنّى لأبنائنا ارتياد المساجد وكلّ منهم قد دخل المدرسة في السابعة من عمره ثم دخل الثانوية وبعدها الجامعة ولم تطأ قدماه أعتاب المساجد؟ من الطبيعي أن يهرب هؤلاء من المساجد.

ربّ قائل يقول: انّ أوضاع المساجد قد تدهورت في الوقت الحاضر

وانّها ليست نظيفة، أو ان الخطيب غير كفوءٍ ولا مقتدرٍ في كلامه، نقول: إن إصلاح المساجد وأوضاعها هو تكليفنا جميعاً.

إذن يجب أن لا ننسىٰ أبداً اننا مكلّفون بأن نصلّي ونحثّ ذوينا على الصلاة بالنحو الذي يشجّعهم وينمّي فيهم الرغبة في الصلاة.

لنحدّث أطفالنا عن فوائد الصلاة ومزاياها بالحدود التي بها نستطيع إفهامهم فلسفة الصلاة، فلابدّ أولاً من اتّخاذ محراب في البيت ـ وهو مستحب أيضاً ـ يكون محلّاً لأداء الصلاة، وإذا كان بالامكان تخصيص غرفة لذلك فبها ونعمت كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإلّا فيجب اتّخاذ زاوية في إحدى غرف الدار لتكون محراباً ويوضع فيه بساط للصلاة وسواك ومسبحة للذكر.



الاستخفاف بالصلاة

مع إقرارنا التام بأن الاسلام دين يؤمن بالعلاقات الاجتماعية، وهذا ما تكشف عنه آدابه. إلّا ان ذلك لا يعدُّ مبرّراً للاستخفاف بالعبادات والعلاقة مع الله والنظر إليها بعين الاستصغار، فالاستخفاف بالصلاة هو واحد من الذنوب، وكلّنا يعلم أن ترك الصلاة من أعظم الذنوب، إلّا ان الاستخفاف بالصلاة وعدم الاهتمام بها هو من الذنوب أيضاً.

نقلت أُمّ حميدة لأبي بصير ان الإمام الصادق عليه السلام لما اقتربت منه الوفاة دعا أهله وذويه أن يجلسوا عنده، ولمّا اجتمعوا فتح الإمام عليه السلام عينه ونظر إليهم وقال: «**لن تنال شفاعتنا مستخفّاً بصلاته**».

قال الإمام عليه السلام هذه الجملة وارتحل إلى الرفيق الأعلى، ولم يقل عليه السلام: لن تنال شفاعتنا تاركاً لصلاته، فذلك معلوم مصيره ومآله، فماذا يعني الاستخفاف بالصلاة يا ترى؟ ومن هو المستخفّ بصلاته؟ انّه من توفرت لديه الفرصة الكافية لأن يصلّي باطمئنان وعلى أحسن وجه إلّا انّه لا يفعل، فهو لا يصلّي الظهر أو العصر حتى يقترب الغروب فيضطر حينها إلى الوضوء والصلاة على نحو العجالة صلاة خالية من مقدماتها فاقدة للاطمئنان بعيدة عن حضورالقلب، فهل هذه تسمى صلاة؟ انّ اداء الصلاة بهذا النحو يختلف تمام الاختلاف عن ادائها بالنحو المطلوب حيث يستعدّ الانسان للصلاة ويستقبلها، فعندما يحين وقت صلاة الظهر مثلاً يستعدّ لها فيتوضّأ بهدوء ووقار مؤدّياً ذلك

وفقاً لآداب الوضوء، ثم يقف في مصلّاه ويؤذن ويقيم براحة بالٍ ويصلّي بكامل الاطمئنان، ويحافظ على ذلك حتى ينهي صلاته قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ولا ينهض بعدها مباشرة، بل يمكث في مكانه للتعقيب وذكر الله، وهذا إنما يدلّ على انّ الصلاة في هذه الدار تحظى بالاحترام والاهتمام، فيما أثبتت التجارب ان البيوت التي لا يعير فيها المصلّون أدنى اهتمام للصلاة فيستخفّون بها ويأتون بصلاة الصبح وقد أشرقت الشمس، فيما يؤخّرون صلاتي الظهر والعصر حتى يدنو الغروب، ويتماهلون في صلاتي المغرب والعشاء إلى ما بعد وقتها بأربع ساعات، ويؤدون صلاتهم على عجالةٍ من أمرهم، أثبتت التجارب انّ الأطفال في هذه البيوت لا يصلّون على الاطلاق، فمن أراد أن يكون مصلّياً حقيقياً هو وأبناؤه عليه أن يولي الصلاة كامل الاهتمام.

فلا ينبغي الاستخفاف بالصلاة والتهاون في أمرها، ولا يجدر بالانسان أن يقتنع بواجباتها فقط ثم يسأل مرجع التقليد: ماذا تقولون في التسبيحات الأربع؟ هل هي ثلاثة أم واحدة تكفي؟ وفي هذه الحال لابد للمرجع أن يدلي بفتواه فيجيب: واحدة كافية لكن لابدّ من الاتيان بثلاثة احتياطاً.

هذا لا يعدّ مبرراً لأن يقال هذه هي فتوى المرجع، ونحن نأتي بواحدة استناداً لفتواه، هذا فرار من الصلاة، علينا أن نصبح بالمستوى الذي إذا قال المرجع أن واحدةً تكفي والأُخريين بحكم المستحبات فنغتنم الفرصة ونأتي بها جميعاً.

وعلينا أن لا نستخفّ بالصوم أيضاً، فهناك من يصوم بنحوٍ لو كان الأمر بيدي لما قبلتُ صومهم، فمنهم من لا ينام طيلة الليل في شهر رمضان، ولا يفعلون ذلك من أجل العبادة بل من أجل الأكل والشرب فلا يبرحون الطعام حتى يحين موعد صلاة الصبح فيصلّوها بسرعة ثم يغطّون في نومهم، ومنهم من

ينام النهار كلّه ولا يستيقظ إلّا قبل حلول أذان المغرب فيصلّون الظهر والعصر بسرعة ثم يجلسون إلى مائدة الافطار، أيّ صيام هذا؟ ألا يسمى هذا استخفاف بالصيام حيث ينام الصائم طيلة النهار كي لا يشعر بصومه؟ وفي رأيي انّ هذا بمرتبة رفضٍ للصيام، وكأنه يقول للصوم: إنّي ابغضك إلى الحدّ الذي لا يروق لي رؤيتك، وهذا ليس حسناً.

فجميعنا نؤدي الحج ونصوم ونصلّي إلّا اننا نستخف بها جميعاً، كما اننا نستخفّ بالأذان، امّا كيف نستخفّ بالأذان؟ نقول: ان الكثير منا يمتلك القابلية والصوت الجيد لاداء الأذان ومن المستحبّ أن يعلو صوت الانسان بالأذان كما هو الحال في تجويد القرآن بصوت حسنٍ، فالأذان بصوتٍ حسن يساهم في استقطاب الناس إلى الصلاة وإلى ذكر الله، وإذا طُلب من أحد أصحاب الأصوات الحسنة أن يؤذن فهو يأبى ويمتنع معتقداً ان ذلك ينقص من شأنه، متناسياً بأن عليه أن يتباهى ويفتخر على أن يكون مؤذناً، فقد كان علي بن أبي طالب عليه السلام مؤذناً في وقت كان خليفة على المسلمين، انّه استخفاف بالأذان حين يشعر الانسان بالاستصغار إذا أصبح مؤذناً، ويعتبر ان الأذان والمؤذن يرتبطان بشأن الأفراد وموقعهم، فيرفض اداء الأذان لكونه من الشخصيات البارزة والمشهورة.

إذن، علينا أن لا نستخفّ بالعبادات وأن يكون إيماننا بالاسلام إيماناً شاملاً وجامعاً، فقيمة الاسلام تكمن في شموليته، لا أن نتمسّك بالعبادات ونترك ما غيرها، أو تكون كالذين يتشبّثون بالآداب الاجتماعية فيما يستخفون بالعبادات، وليكن في علم الجميع أننا لو تخلّفنا عن العبادات فسنتخلف عن سائر التكاليف. فالعبادة هي القوّة التنفيذية وصمّام الأمان لتطبيق التعاليم الاسلامية.

تحريف الصلاة

يقول تعالى:

﴿وما كان صلاتهم عندالبيت الّا مكاءً وتصدية﴾[1].

في هذه الآية يكشف القرآن الكريم عمّا فعله أُولئك الذين كانوا يرون في أنفسهم أصحاب الأمر والنهي.

لما بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة بأمرٍ من الله تبارك وتعالى وجاءه الأمر ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾[2].

تُرى إلى اين آل مصير الكعبة على أيديهم؟ فالصلاة التي كانت إحدى الممارسات التي يجب القيام بها في الكعبة اضافوا عليها وقضموا منها حتى غدت مجرّد صفير وتصفيق.

ولمّا كانت العبادات «توقيفية» أي لا يجوز التلاعب والتغيير فيها وفقاً للرغبات والأهواء كمّاً وكيفاً، بل يجب الاتيان بها كما جرى بيانها بعيداً عن الزيادة والنقصان والترديد والمماطلة، وإذا ما تدخّلت الأهواء في تطبيق العبادات كأن يحاول العرب أو الفرس أو الأتراك أن يقرأوا كلٌّ بلغته، أو يقول

---

(١) سورة الأنفال: ٣٥.

(٢) سورة البقرة: ١٢٥.

قائل : إن صلاة المسافر كانت قديماً ركعتان واليوم لا داعي لذلك بعد أن أصبح السفر بواسطة الطائرات ولا مشقّة في السفر بعد ذلك فلتكن صلاة المسافر أربع ركعات ، ستكون النتيجة خلوّ العبادات من مصاديقها تدريجياً .

فالصلاة الّتي تحوّلت إلى صفير لم تتحول فجأة ، بل غيّروا جانباً منها بادىء الأمر ثم أردفوا بتغيير ـ معلم ـ آخر منها وتوالت التغييرات على مدى الأجيال حتى غدت بهذا الشكل ، إذ ان كلّ جيل يجهل ما كان يفعله الجيل الذي سبقه ويتصوّر ما وصل إليه كان على هذا النحو منذ البداية ، واستمر الوضع على تلك الحال على مدى عدة أجيال حتى اختلف الأمر عن أصله تمام الاختلاف .

فيما يخصّ ترجمة القرآن وقراءته ، واداء الصلاة باللغة الفارسية لا بأس هنا من التطرق إلى التجارب التي حصلت نتيجة الترجمات المتتابعة والمتعددة للقرآن الكريم ، فلو أراد الفارسي أن يترجم القرآن ويقرأه بلغته ، وكذا التركي والفرنسي والألماني والروسي و ... إلخ سنجد ان العبارات تفقد مفهومها بتعدد الترجمات .

ربما سائل يسأل : لماذا يجب التعبّد في بعض المسائل سواء عن فهم أو عن غير فهم كما هو الحال بالاخفات في صلاة الظهر ؟ بطبيعة الحال ثمة فلسفة في الأمر ومن الحريّ بالانسان التأمّل والتدبّر من دون التصوّر بأنه يقوم بذلك بحثاً وراء الفلسفة ، بل يفكر في انّه يحاول بلوغ المزيد من الفهم ، فالصلاة التي كان يؤديها إبراهيم عليه السلام لم تكن بصورة تصفيق وصفير ، بل تحوّلت تدريجياً إلى هذه البدعة، يقول تعالى :

﴿وما كان صلاتهم عند البيت الّا مكاءً وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

◙ الصلاة في نظر الماديّين :

لقد فسَّر الماديون عبارة ﴿ويقيمون الصلاة﴾ كما يلي :

انهم ومن أجل ترسيخ إيمانهم يقيمون ذلك التلاحم الذي يطلق عليه في منطق الأديان «الصلاة» ثم يقولون :

ان هذا دليل على ضيق الأُفق وقصر النظر لدى المفسرين والمترجمين إذ استلّوا هذه الكلمات من معناها الشامل وأطّروها بقالب ضيّق ومحدود ، لأن الصلاة بمعناها اللغوي ليست هذه الحركات ، بل تمثّل التجسيد الخارجي للتلاحم والارتباط الذي يجمع العناصر الثورية .

والقرآن من خلال اختياره لهذه المفردة انما يعبر عن عنايته بقاعدة أُخرى من القواعد العامة للثورات سواء كانت عقائدية أم لا ، غاية الأمر ان هذه القواعد تتجلّى بنحو أفضل في الثورات العقائدية ، وهو ما يطلق عليه بحياة الثورة الغيبية ، فلابدّ أن يسود التلاحم بين العناصر الثورية ومراكز الثورة والاسلوب التكتيكي سواء من الناحية الفكرية أو الناحية العملية التطبيقية ، والرؤية المنفتحة التي تتمتع بها قيادات الأحزاب الدينية لا ترى ان ترسيخ هذا التلاحم والترابط يستلزم الايمان بالغيب ، بل انها تصبو إلى أن تسمو هذه العلاقة بين العناصر الثورية المتماسكة فيما بينها ، وتتمظهر بصورة الصلاة على مستوى العلاقة بمستوى الخلق في علاقتهم مع الخالق .

نقول في الردّ :

أولاً : متى كانت الصلاة وفي أي لغة تعني الارتباط بين أعضاء حزب ما أو التلاحم بشكله المطلق ؟

ثانياً : ألم يصرح القرآن ويؤكد على مسألة الارتباط بين المؤمنين أو ما يعرف بحزب الله ويوصي بذلك بالقول ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا

تفرقوا﴾[1].

فما هي الضرورة التي تدعونا إلى أن نفهم الصلاة بأنها ارتباط بين العناصر الثورية ونعتبرها تجسيد لهذا الارتباط مع عالم الوجود ؟

ثالثاً: فإنّه يعني انتفاء الأمر باقامة الصلاة **﴿وأقيموا الصلاة﴾**[2]، وهو ما قيل بشأن **﴿ومما رزقناهم يُنفقون﴾** ، ألم يـنفّذ المسلمون في الصدر الأول وبالذات في المدينة المنورة ـ وهي المرحلة التي كان يطلق عليها شهود الثورة ـ ما صدر لهم من أمر في **﴿وأقيموا الصلاة﴾** و **﴿مما رزقناهم ينفقون﴾**[3].

ثم اننا نوجّه سؤالنا إلى هؤلاء ونقول لهم: ألم يكن الارتباط بين المؤمنين ـ في نظر القرآن ـ هو ثمرة ونتيجة ارتباط الانسان بالله تعالى أو أن ارتباط الانسان بالله هو من معطيات الارتباط بين العناصر المؤمنة وتجسيدٌ لها ؟ وهل الصلاة مظهرٌ للعلاقة القائمة بين المؤمنين أم ان ارتباط المؤمنين فيما بينهم هو التجسيد الاجتماعي لارتباطهم مع الله جل وعلا ؟

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: ٤٣.

(٣) سورة البقرة: ٣، سورة الانفال: ٣، سورة الحج: ٣٥، سورة القصص: ٥٤ سورة السجدة: ١٦، سورة الشورى: ٣٨.

ترك الصلاة

في إحدى آيات القرآن الكريم يوجّه سؤالٌ لأهل النار: ﴿**ما سلككم في سقر**﴾[1]؟ فيأتي الجواب: ﴿**قالوا لم نكُ من المصلّين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين**﴾، أي اننا كنا نستمع ونصغي إلى ما يقوله الكفار ضد الدين، أو تبادر بأنفسنا إلى ذلك، فكان مآلنا إلى جهنم!

من هنا عليكم إدراك الأهمية الفائقة التي تحتلها الصلاة في الاسلام، ولماذا يؤكد النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله على ان الصلاة عمود الدين؟ كل ذلك لان كل شيء سيصلح إذا ما أُوتي بالصلاة على النحو الأحسن.

---

(١) سورة المدثر: ٤٢ ـ ٤٥.



المسجد

لم يكن دور المسجد النبوي في المدينة مقتصراً على أداء الصلاة فقط، بل كان مركزاً لنشاط المسلمين وممارساتهم الدينية والاجتماعية، فمتى اقتضت الضرورة أن يجتمع المسلمون فإنهم يُدعون لذلك في المسجد، وفيه كانوا يطّلعون على أهم الأحداث، وتُتخذ فيه القرارات وتعلن على الملأ.

لقد عاني المسلمون أثناء وجودهم في مكّة الحرمان من الحريّة في كافّة نشاطاتهم الاجتماعية، فلم يكن بوسعهم ممارسة طقوسهم العبادية وواجباتهم الدينية وتعلّم مبادىء دينهم بحرية، وقد استمر هذا الوضع حتى امتد الاسلام إلى مركز آخر في الجزيرة العربية هو «يثرب» التي عرفت فيما بعد بـ«مدينة النبي» إذ هاجر النبي صلّى الله عليه وآله بعد أن بايعه أهلها واقترحوا عليه الهجرة اليهم، وهكذا هاجر إليها سائر المسلمين تدريجياً، فبدأ بعد ذاك عصر الحرية بالنسبة للمسلمين، وأول عمل قام به الرسول صلّى الله عليه وآله بعد هجرته إلى المدينة هو انّه اتّخذ مساحةً من الأرض وبنى عليها مسجداً، وساهم في بنائه المهاجرين والأنصار[1].

▣ المسجد الحرام:

يقول تعالى:

﴿وما لهم الّا يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه

(١) قصص الأبرار

إن أولياؤه إلّا المتقون﴾[1].

وهذه إشارة تشمل قريش ومن يأتي بعدهم، وتشير الآية إلى أن قريش يستحقون العذاب لمنعهم الناس وصدّهم عن المسجد الحرام، وهم يرون أن عمارة المسجد الحرام وولايته بأيديهم، وعليه، فهم يمنعون من شاؤوا ويسمحون لمن شاؤوا، وكانوا يعتبرون ان الدور والأرض ملك لهم لأنّهم يسكنون في مكة، وهذا التصوّر واجهه القرآن موضحاً ان ليس من حق أحدٍ إلى يوم القيامة الادعاء انّ المسجد الحرام والكعبة تخضع لتصرفه، بل هما لجميع الناس المتّقين والمسلمين، يقول تعالى:

﴿سواء العاكف فيه والباد﴾[2].

أي انّ أهل المنطقة والقادمين إليها سواء، أما المنازل في مكة فقد كان استئجارها يمثل مشكلة قائمة وأثمان الاجارة باهضة، وقد يتصوّر ان من حقّهم أخذ الاجور، إلّا ان الأمر ليس كذلك حتى في فقه أهل السنّة، ويؤكد ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة كتبها إلى واليه على مكة آنذاك قثم بن العباس: «**ومرَّ أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكنٍ أجراً**»[3].

فلا حقّ لأهل مكة في أن يأخذوا الأُجور من القادمين إليها لما لها من حكم وقفي، كما لا يحقّ لهم أن يحولوا دون حجّ الآخرين إليها، وقد أمر الرسول صلّى الله عليه وآله أن تُنصب أبواب ذاتِ قطعتين، لذلك فإن مكة لكل المسلمين في أرجاء المعمورة ولا يحقّ لأحد الاعتراض على القادمين إليها.

نعود إلى قوله تعالى: **﴿وما لهم الّا يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام﴾**.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٤.

(٢) سورة الحج: ٢٥.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٦٧.

فهم يمنعون الناس ويرون في أنفسهم ولاةً على البيت **﴿وما كانوا أولياؤه﴾** أي ليس من حقّهم التصرف **﴿ان أولياؤه إلّا المتّقون﴾** فالمتّقون من حقّهم التصرف فيه، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** أي ان أكثرهم لا يعرفون سرَّ هذه المسألة.

إن المسجد الحرام الذي نشاهده اليوم لم يكن بهذه السعة في صدر الاسلام، فقد كانت المسافة بين الكعبة والمسجد الحرام لا تتعدى الخمسة عشر متراً، وتبلغ مساحة المسجد حوالي ٣٢ × ٣٢ متر، أما عرض الكعبة فهو أربعة أمتار، وطولها أكثر من ذلك قليلاً، وتم في صدر الاسلام شراء الدور المحيطة بالمسجد وتوسيعه، وتقرر في عصر أحد الخلفاء توسعة المسجد مرّة أُخرى، وقد كان الخلفاء يحاولون تجنب أخذ منازل الناس عنوة من أجل توسيع المسجد لأن بعضهم كان يرى انّ ذلك يعدّ غصباً.

ولما أراد أحد الخلفاء توسيع المسجد امتنع بعض الناس عن بيع منازلهم، وكان رأي عدد من فقهاء أهل السنة يقول: ان المنازل هي ملكهم فإن شاءوا باعوها وإن شاؤا أبوا، وقال آخرون بجواز أخذها عنوة، وكانت عادةً ما تقع بعض المشاكل فيرجعون إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام، وقد جاء الإمام الباقر عليه السلام ببرهان عجيب إذ أثبت انّ رضا صاحب المنزل ليس شرطاً إذا اقتضت مصلحة المسجد الحرام ذلك، وطرح سؤالاً مفاده: هل انّ وجود الكعبة سبق وجود الناس في هذه المنطقة والناس جاؤوا من أجل الكعبة أم ان الناس سبقوا الكعبة في التواجد؟ على سبيل المثال: يأتي الناس ويضعون مخططاً ويرسمون خريطة ويشيدون الدور، ثم يخصصون بقعة أرض للمسجد، أي انّهم يتملكون الأرض ثم يخصصون جزءً منها للمسجد، فالمسجد والحالة هذه يُبنى بعد مجيء الناس، هكذا الحال بالنسبة لكافة المساجد في العالم حتى

بالنسبة لمسجد النبي صلّى الله عليه وآله .

ثم منطقة واحدة على وجه الأرض بني فيها المسجد أولاً ، ثم اعمرت تلك المنطقة ببركة المسجد ، ألا وهي أرض مكة ، فمكة كانت وادٍ غير ذي زرع وبلا مالك ، إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام وبنى الكعبة هناك وخصصها للعبادة ، وستبقى إلى يوم القيامة مكاناً يؤدي الناس فيه مناسكهم .

إن بناء الكعبة على يد إبراهيم كان قبل استيطان الناس في تلك البقعة ، وان حقّ الكعبة والمسجد الحرام محفوظ ، والناس لهم الحرية في امتلاك الأرض ما داموا لا يسببون مضايقة للكعبة والمسجد الحرام ، وقد حظ هذا البرهان بقبول الجميع .

إن لأرض مكّة موقعاً خاصاً ، وقد أيّد القرآن هذا المنطق في تأكيده على انّ هؤلاء يستحقون العذاب ، فأولياء المسجد الحرام ان هم الاّ المتقون العالمون ، والمسجد الحرام حرم للمتقين والمسلمين في جميع أنحاء العالم .

الاذان

استدان أحد قادة الجيش في عهد المعتضد العباسي مبلغاً كبيراً من أحد التجّار الكهول، ومهما حاول التاجر استعادة ماله لم يفلح في الوصول إلى ما يبتغيه، ثم انّه أراد الاستعانة بالخليفة إلّا ان جهوده الرامية إلى اللقاء به كانت تبوء بالفشل بسبب منع رجال البلاط والعاملين وعدم فسحهم المجال له.

انتابت التاجر المسكين مشاعر اليأس ولم يرَ في الأُفق حلّاً لمشكلته، حتى سمع شخصٌ بمعاناته فأرشده إلى خياط في «سوق الثلاثاء» وأخبره انّ الخياط المذكور يستطيع أن يحلّ معضلته هذه، فذهب التاجر إلى الخياط وأخبره بالأمر، عند ذاك استدعى الخياط ذلك القائد العسكري وأمره أن يسدّد ما بذمّته من دين للتاجر فاستجاب على الفور، فأثارت هذه الحادثة دهشة التاجر فأصرّ على الخياط أن يخبره عن سبب إطاعة مثل هؤلاء له في حين انهم لا يهابون أحداً.

قال الخياط: سأحكي لك القصة، ذات يوم كنت أسير في طريقي وفي تلك الأثناء كانت امرأة جميلة تسير في الطريق أيضاً، فخرج أحد الضباط الأتراك من بيته ووقف على قارعة الطريق يراقب الناس وهو في حالةٍ ثملة فوقع بصره على المرأة فما كان منه إلّا أن حملها بجنون وأخذها إلى بيته وهي تصرخ وتستغيث منادية: أيّها الناس أغيثوني فلست امرأة فاجرة ولي كرامة

وقد أقسم زوجي أن يطلقني إذا غبتُ ليلة عن البيت وستُدمر حياتي، لكن أحداً لم يجرؤ على إعانتها خوفاً منه، فاتّجهتُ نحو الضابط ورجوته أن يترك المرأة، إلّا انّه أبرحني ضرباً على رأسي بهراوة كانت في يده حتى شجّ رأسي وأخذ المرأة عنوة إلى داره.

فجمعتُ بعض الأشخاص من هنا وهناك واتّجهنا إلى بيت الضابط وطالبناه باطلاق سراح المرأة، فهاجمنا ومعه جماعة من الخدم وضربونا حتى تفرقنا، عندها ذهبت إلى داري وهناك بقيت في دوامه حول مصير هذه المرأة المسكينة ولم يفارقني التفكير بها، فكنت أتصوّر حالها لو ظلت في بيت ذلك الرجل حتى الصباح إذ انّها ستتعرض إلى الفساد إلى آخر عمرها ولن تعود إلى بيتها، واستحوذ عليّ الأرق حتى منتصف الليل، وفجأة خطرت على بالي فكرة، فقد قلت مع نفسي: إن الرجل ثملٌ هذه الليلة ولا يعرف الوقت، فإذا سمع صوت المؤذن الآن سيظن أن وقت الفجر قد حان فيخلي سبيل المرأة فتعود إلى دارها قبل سفور الصبح، فأسرعت إلى المسجد وصعدت إلى أعلى المنارة وأذّنت بصوتٍ عالٍ وأنا أترقب الزقاق والطريق لأرى هل أُطلقت المرأة أم لا؟ الّا انني شاهدت فجأة فوجاً من الجنود الخيّالة والمشاة خرجوا إلى الشارع وهم يبحثون عن المؤذّن فأخبرتهم وأنا مذعور بأنني الشخص الذي كان يؤذن، فاقتادوني إلى الخليفة الذي كان جالساً ينتظرني، فسألني عن سبب الأذان في هذا الوقت من الليل، فذكرت له القضية من أولها إلى آخرها، فأمر بإحضار الضابط والمرأة، وبعد استجواب قصير أمر بقتل الضابط وإرسال المرأة إلى بيتها مؤكداً على أن لا يؤاخذها زوجها لأن الخليفة تأكد من عدم تقصيرها.

ثم أمرني المعتضد أن أقوم بمثل هذا العمل كلما رأيت مثل هذه المظلمة، وانتشر الخبر بين الناس، فصار هؤلاء منذ ذلك الحين يحذروني، ولهذا أطاع هذا الضابط المدين فوراً عندما أمرته.

◘ الأذان بصوت جميل :

في أحد المجالس شاهدتُ رجلاً كبير السنّ كان يـردّد شـعارات ، ولا أدري لعله كان مشلولاً لا يستطيع النطق ، وكان بدنه يهتز بصورة تثير الضحك لدى البعض حينما يحاول النطق كأن يدعو الحاضرين لإطلاق الصلوات . فقلت مع نفسي : سبحان الله ! ألا يوجد غيره يتولى هذه المهمة ؟ وهل علينا أن نختار أضعف الناس صوتاً لهذه الأُمور ؟

يروي الشاعر سعدي قصته فيقول فيها :

في إحدى المدن كان هناك مؤذن قبيح الصوت ، وذات يوم جاءه رجل يهودي ومعه هدية فقال له : ألا تتقبل مني هذه الهدية المـتواضـعة؟ فأجـابه : ولماذا ؟ قال : لأنّك أسديت لي خدمة عظيمة ، قال : أية خدمة هذه فإنني لم أُقدّم لك أيّة خدمة ، قال اليهودي : لديّ بنتٌ كانت تنوي اعتناق الاسلام إلّا أنّها لما سمعت صوتك وأنت تؤذن اشمئزّت من الإسلام ، وها أنذا قد أتيتك بهديّة لما أسديت لي من خدمة إذ حلت دون اعتناق ابنتي للإسلام.

ورد في نصوص الفقه الاسلامي انّه يستحب أن يكون المؤذن «حسناً» أي حسن الصوت لأن الانسان بطبعه يتأثر لما يسـمع الأذان بـصوت حسـنٍ فتترك عبارات الأذان آثارها في قلبه ، وهكذا بالنسبة لتلاوة القـرآن والتـبليغ فإنها تؤثر سريعاً في السامع إذا كانت بنغمات شجية.



الوضوء:

لا تعجلوا عند التوضّؤ ، فنحن نزعم أننا شيعة علي ! فلا نكـون شـيعته بالاسم فقط ، فقد ذكر لنا الكثير عن وضوئه ، وكل من يوضح طريقة وضـوئه يقول :

عندما كان يضع يده في الماء ـ وهو استحباب في أن يبدأ الانسان بغسل يديه ـ كان عليه السلام يقول : «بسم الله وبالله ، اللهم اجـعلني مـن التـوابـين واجعلني من المتطهّرين» فهو حين يغسل يديه يتذكّر التوبة ، وحين يغسل يديه يتذكر تطهير النفس ، وكأنه يريد أن يقول لنا : عندما تقع عيونكم على الماء ، هذا الطهور ، هذه المادة التي جعلها الله وسيلة للطهارة وتغسلوا بها أيديكم عليكم أن تفهموا ان هناك مادّة أُخرى للتطهير ، وثمّة ماء آخر لتـطهير الروح ، هـو مـاء التوبة .

وبعد انتهائه من غسل يديه يسكب الماء على وجهه ويقول : «اللهم بيّض وجهي يوم تسود الوجوه ، ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه» فـهو يـغسل وجهه لينورها ظاهرياً ، وعندما يغسل وجهه بالماء يصبح براقاً ، بيد ان علياً لم يكن يقنع بهذا ، والاسلام لا يكتفي به ، فهذا أمر حسن ولا بأس به ، ولكن يجب أن يرافقه تطهير آخر ونورانية أُخرى وبياض وجه من نوع آخر ، فـهو يـقول : «اللهم بيّض وجهي يوم تسودُّ الوجوه ، ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه» أي

يوم القيامة حيث تسودّ وجوه البعض وتبيضّ وجوه آخرين.

ثم يصبّ الماء على يده اليمنى ويقول: «اللهم اعطني كتابي بيميني، والخلد في الجنان بيساري، وحاسبني حساباً يسيراً»، فالسعداء هم الذين يتلقون كتبهم بأيمانهم، فهو حين الوضوء يتذكر الحساب في الآخرة.

ثم يصبّ الماء على يده اليسرى ويقول: «اللهم لا تعطني كتابي بشمالي، ولا من وراء ظهري، ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي، وأعوذ بك من مقطعات النيران»، ثمّة أُناس يستلمون كتبهم من وراء أظهرهم وفي ذلك سرٌّ أيضاً، ويمسح رأسه ويقول: «اللّهم غشني برحمتك وبركاتك» وأخيراً يمسح قدميه ويقول: «اللّهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني».

إنّ الوضوء الذي يقترن بهذا الطلب والرجاء والتوجه يُقبل بنحوٍ يختلف عن النحو الذي يقبل به وضوءنا.

◘ تعليم الوضوء:

ذات يوم كان شيخ طاعن في السنّ مشغولاً بالوضوء إلّا انّه لم يكن يعرف طريقة الوضوء الصحيحة، فلما رأى الحسن والحسين عليهما السلام ـ وكانا في سنّ الطفولة ـ ذلك ولم يكن هناك بدّ لأن تعليم الأُمور الدينية وإرشاد الجاهل بها يعد واجباً ـ قررا تعليم الشيخ الوضوء الصحيح، ولكن كيف؟ فاذا قيل له بصورة مباشرة ان وضوءك غير صحيح، بالاضافة إلى أن ذلك سيثير آلاماً نفسية لديه، فإنّه سيحمل في ذهنه خاطرةً مُرّةً عن الوضوء، أضف إلى ذلك لعله يعتبر هذا التذكير تحقيراً له فيسيطر عليه العناد ويرفض ما يقال له.

فكّر الطفلان في تنبيه الرجل بشكل غير مباشرة، وجرت بينهما في بداية الأمر مناقشة على مسمع منه، فقال أحدهما: إن وضوئي أكمل من وضوئك،

فيما قال الآخر: إن وضوئي أكمل من وضوئك، ثم اتفقوا على الاحتكام إلى الرجل، فتوضأ كلٌّ منهما على الوجه الصحيح، فعرف الشيخ بفراسة الوضوء الصحيح وأدرك ما كان يقصده الطفلان وتأثر بما يتمتعان به من محبة وفطنة وذكاء وقال: إن وضوء كما صحيح إلا أن وضوء عمكما غير صحيح، وقد دفعتكم محبتكم لأُمة جدكم إلى تنبيهي.



النيّة:

من المسائل التي حظيت باهتمام بالغ هي مسألة النيّة، وهي من مسلّمات الفقه الاسلامي، والنيّة بشكل عام تمثّل روح العبادة.

قال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: **«لا عمل إلّا بنيّة»** و **«لكلّ امرىء ما نوى»**[1].

فالعمل الذي لا يكون عن نيّة ويصدر عن عفويّة لا قيمة له، فيما يكون العمل الصادر عن نية وقصدٍ وإدراك واختيار ومعرفة بالغاية المرجوّة منه هو عمل قيّم.

وهناك صورتان للعمل الذي يؤديه الانسان:

فتارة يقوم الانسان بالعمل بصورة آلية وكأنه يعمل كالماكنة ـ كما هو الحال في الصلوات التي نؤديها ـ، وتارة يقوم بالعمل عن وعي وإدراك وفي هذه الحالة يكون ذا هدفُ وغاية فيهتم حينذاك بعمله.

كان السيّد البروجردي «ره» يرى انّه لا يكفي في باب النيّة أن يكون في نفس الانسان «داع» وكنا نستغرب في البداية أن يكون لدى السيد البروجردي مثل هذا البحث في باب النيّة، لأنّ أغلب العلماء كانوا يعتبرون الداعي كافٍ في النيّة. أي يكفي أن يكون لدى الانسان دافعاً روحياً، أي قصد القربة، بحيث لو

---

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ٢.

سألناه : ماذا تفعل ؟ لقال : أُصلي قربة إلى الله ، وإذا كانت الغفلة أكثر من هذا القدر فإن العلماء لا يرون ذلك كافياً ، فمثلاً إذا كان الانسان يصلّي وسئل : ماذا تفعل؟ وراح يفكر ثم أجاب ، فصلاته والحالة هذه باطلة ، إلّا انّ للمرحوم السيد البروجردي كلاماً آخر وهو انّه أساساً لا يكفي هذا القدر من التوجّه في بداية العمل ، وهو ان دافع الشخص إلى العمل هو قصد القربة بالشكل الذي يخلو من الغفلة ، بل يجب أن يخطر في قلبه وكأنه يتكلّم مع نفسه ويقول : أُصلي أربع ركعات أداءً (بقصد الاداء) قربة إلى الله وعند ذاك يكبّر ، وهذا لا يؤثر من حيث الدافع ، فالدافع له محلّه ، لكنه حينما يتمّ بهذا الشكل فينتقل العمل من مستوى الجهل إلى مستوى الوعي ، أي انّ الانسان يؤدي عمله بوعي أكثر .

▣ أهميّة النيّة :

للنيّة من الأهمّيّة ما أن لو تمّت مقارنة العمل مع النية المصحوبة بالعمل فانها ترجّح على العمل ، وهذا مفهوم الحديث المرويّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله :«**نيّة المؤمن خير من عمله**»[1]. فهل انّ النيّة من دون عمل أفضل من العمل بلا نيّة ؟ ان العمل بلا نيّة لا قيمة له ، وهكذا النيّة بلا عمل . فما معنى الحديث إذن ؟ هل المراد ان نيّة المؤمن أفضل من عمله المقرون بالنيّة ؟ من البديهي انّ هذا غير صحيح ، فالنية وحدها لا يمكن بأي حالٍ أن تكون أفضل من العمل المقرون بالنية ، فماذا إذن ؟ لقد قيل الكثير من الكلام بهذا الشأن ، والاجابة واضحة ، فالمقصود هو انّ الانسان يقوم عند النيّة التي يصاحبها عمل بفعلين أحدهما ...[2]

---

(١) الكافي : ٢/٨٤.

(٢) سقط سهواً من النص المستخرج من الشريط .

[فعندما نقول: انّ الروح أشرف من البدن ربّ سائل يسأل] هل ان الروح أشرف من البدن بلا روح (كونه جثة فقط لأنّ البدن بلا روح ما هو إلّا جثة هامدة) أم من البدن ذي الروح؟ ان الروح لا يمكنها أن تكون أشرف من البدن ذي الروح، لأن البدن ذا الروح يضم شيئاً آخر بالاضافة إلى الروح الكامنة فيه، والاجابة تكون بالنفي، بل المقصود انّ هذا الموجود المركّب من الروح والبدن يتفوّق جزؤه الأول على الآخر، وهذا يبيّن مدى اهتمام الاسلام بالنيّة، إذ يجب أن يقترن العمل بالنيّة والتوجّه، فيفهم الانسان ما يفعل ولا يمارس الفعل بلا وعي[1].

لما رجع أمير المؤمنين عليه السلام من صفين جاءه رجل وقال: تمنّيت لو كان أخي معنا في صفين ليصيب ما أصبنا من الأجر، فسأله الامام عليه السلام عن نيّته وما يضمره في قلبه وهل تأخر عن عذر؟ فإنه لم يكن معذوراً، فحسنٌ انه لم يأت، وإن كان معذوراً وكانت نيّته معنا ويميل الينا فهو معنا، قال: نعم يا أمير المؤمنين هكذا كان، فأخبره الامام انّ أخاه معهم وكذلك أشخاص في أرحام اُمّهاتهم وأصلاب آبائهم، وهناك إلى يوم القيامة من يتمنون لو أنهم أدركوا علياً عليه السلام وحاربوا معه فهم يعدّون ممّن حضر صفين[2].

◘ أركان النيّة:

إن الاسلام لا يقبل عبادة من دون نيّة على الاطلاق، وللنية من وجهة نظر الاسلام ركنان:

أحدهما: أن يكون العمل قائماً على التوجّه لا عن عادةٍ، العادة التي تؤدي إلى قيام الانسان بعمل ما دون أن يحصل لديه توجّه، كما هو الحال في

---

(١) التربية والتعليم في الاسلام: ١٩٣ ـ ١٩٧.

(٢) مقالات اسلامية، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الكثير من الأعمال التي يمارسها الانسان دون اهتمام مثل المشي، فهو يمشي لكنه غير ملتفت إلى انّه يمشي، فأول ركن للنيّة هو أن يتمركز ذهن الانسان بالشكل الذي يكون العمل قائماً على أساس التوجه، ولهذا يقال: إنّ استدامة النية شرط في صحّتها أيضاً.

فلا يكفي التوجّه في بداية الصلاة، أي ان الانسان إذا غفل وسط الصلاة عن عمله بحيث يقتضي تنبيهه فان صلاته باطلة.

والركن الثاني: هو الاخلاص وما يدفع الانسان للعمل. بناءً على ذلك فإنّ ملخص هذين الركنين يكون فيما يلي:

١ ـ ما الفعل؟

٢ ـ الحافز للفعل.

وماذا أعمل؟ هو أساس النيّة ويجب أن يكون قربة إلى الله وطلباً لرضاه.

◘ قصد القربة:

إن قصد القربة في الاسلام وفي جميع الأديان السماوية يمثّل روح التعاليم التي يراد تنفيذها، والنتيجة النهائية التي يجب استخلاصها من الأعمال هي التقرّب إلى الذات الالهية المقدّسة.

إن اعتيادنا على المفاهيم الاعتبارية والاجتماعية التي نستخدمها في الحياة الاجتماعية يؤدي في أغلب الأحيان إلى وقوعنا في الخطأ والالتباس، وإلى انسلاخ المفاهيم الواردة في المعارف الاسلامية عن معناها الحقيقي وتظهر بقالب مفهومٍ اعتباري.

فعندما نستعمل كلمة «قرب» خارج إطار المفاهيم الاجتماعية إنما نريد بذلك مفهومها الحقيقي، فمثلاً نقول: إن بالقرب من هذا الجبل عين ماء، أو يقول قائل: وصلت بالقرب من هذا الجبل، فمرادنا هو القرب الواقعي، أي نأخذ بنظر

الاعتبار قربنا وبعدنا المكاني من الجبل، ومقصودنا من كلمة «قرب» هو انّ تلك المسافة التي هي شيء حقيقي لا اعتباري ـ قد قلّت، أما حينما نقول: إن فلاناً أصبح قريباً من تلك الشخصية الاجتماعية، أو نقول: إن فلاناً تقرّب من المسؤول الفلاني من خلال خدمته له، فهل نقصد ان المسافة بينهما أصبحت قليلة؟ كأن يكون مبتعداً عنه بخمسمائة متر ثم أصبح على بعد مائة متر عنه، كلا بالطبع، فإن كان الحال هكذا فالخادم هو أقرب الناس إلى المخدوم، إنما نقصد ان الخادم ونتيجة لخدمته قد أثّر في نفسية المخدوم وأرضاه في حين انه لم يحظ برضاه سابقاً، أو انه أرضاه أكثر من ذي قبل، ونتيجة لذلك سيحظى من الآن فصاعداً برعاية أكثر من السابق من لدن المخدوم.

فاستعمال «القرب» هنا استعمال مجازي وليس حقيقي، إذ انّ الوجود الخارجي لهذا الشخص لم يصبح على مقربة من الوجود الخارجي لذاك، وإنّما تمّ التعبير مجازاً وتشبيهاً بـ«القرب» عن تلك العلاقة الروحية الخاصة التي حصلت من قبل المخدوم إزاء الخادم، والآثار المترتبة على هذه العلاقة الروحية.

فكيف يكون القرب إلى الذات الالهية المقدّسة؟ هل هو قرب حقيقي أم مجازي؟ هل ان العباد يرتفعون نحو الله من خلال الطاعة والعبادة والسلوك ويتقربون منه فتقلّ المسافة حتى تزول ويحصل «لقاء الرب» حسب التعبير القرآني؟ أم ان هذه التعابير هي تعابير مجازية؟ ماذا يعني القرب إلى الله؟ لا معنى للبعد والقرب بالنسبة للحقّ تعالى، بل القرب إليه تعالى يشبه تماماً القرب إلى صاحب المنزلة الاجتماعية، أي انه تعالى يرضى عن عبده وبالتالي فإن لطفه ورعايته يتضاعفان على عبده.

وهنا يُطرح سؤال آخر وهو: ما معنى رضا الله؟ نقول: إنّ الله سبحانه لا

يتغيّر بالحوادث حتى يرضى عمّن كان ساخطاً عليه وبالعكس، وإنّ التعبير بـ«الرضا» أو «السخط» إنما هو تعبير مجازي يراد به آثار رحمة الله ورعايته التي ينالها العبد نتيجة طاعته وعبادته ليس إلّا.

فما هي تلك الرحمة والرعاية يا ترى؟ هنا يختلف المناطقة، فمنهم من يعتبرها مادية ومعنوية، فالرحمة المعنوية تعني المعرفة، واللذة التي تنتج عنها، أما الرحمة المادية فتعني الحدائق والجنة والحور والقصور، والبعض الآخر لا يعتقدون بالرحمة المعنوية ويرون ان كل ما يناله الناس من رعايات ومنازل عند الله تنحصر بالحدائق والجنان المادية والحور والقصور والفاكهة.

وخلاصة ما تقوله الطائفة الأخيرة هو انّ زيادة تقرّب أولياء الله إلى مقام الاحدية تعني حصولهم على الحور والقصور والفاكهة والحدائق أكثر من الآخرين.

وحصيلة كلام المنكرين هي ان القرب من الحقّ تعالى انما يحصل نتيجة للطاعة والعبادة، وليس اختلاف نسبة الله إلى العبد ـ وهو ما اعترف به القائلون بالقرب الحقيقي ـ، ولا اختلاف نسبة العبد مع الله، ومن حيث القرب والبعد الحقيقي يتساوى أفضل البشر رسول الله صلّى الله عليه وآله مع أشقّائهم كفرعون وأبي جهل.

الحقيقة هي ان هذا الالتباس جاء أثر نمط من التفكير المادّي بشأن الله والانسان ـ لا سيما بشأن الانسان ـ فالذي يرى ان الانسان وروحه هما مزيج من الماء والطين ولم يشأ الاقرار بما جاء به القرآن الكريم: **﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾**[1] ويحمل هذا التعبير على المعنى المجازي لا خيار لديه سوى إنكار القرب الحقيقي من الله سبحانه.

---

(١) سورة الحجر: ٢٩.

ولكن ما هي الضرورة في أن نفرض ان الانسان حقير وترابي إلى هذا المستوى حتى نضطرّ إلى تأويل وتبرير كل شيء؟ إن الله هو الكمال المطلق واللامتناهي، كما ان حقيقة الوجود تساوي الكمال، وكل كمال حقيقي يعود إلى حقيقة الوجود، وهي حقيقة أصيلة مثل: العلم والقدرة والحياة والارادة والرحمة والخيرية، وغير ذلك.

إن الكائنات تقترب في أصل الخلق إلى الذات الالهية، وهي الوجود المحض والكمال المطلق - طبقاً لمدى انتفاعها من الوجود الأكمل أي الأقوى والأشد - وبطبيعة الحال فإنّ الملائكة أقرب إلى الله تعالى من الجمادات والنباتات، ولهذا السبب فإن بعض الملائكة أقرب من البعض الآخر، إذ انّ بعضهم حاكم ومطاع من قبل البعض الآخر، وهذا التباين في مراتب القرب والبعد يرتبط بأصل الخلق ويرتبط بما يسمّى اصطلاحاً «قوس النزول».

إن الكائنات ولا سيما الانسان ترجع إلى الله بحكم **﴿إنا لله وإنا اليه راجعون﴾**[1]، والانسان بحكم مرتبته الوجودية يتحتم عليه الرجوع طاعةً واختياراً واداءً للواجب، وهو يطوي حقيقة مراتب ودرجات القرب إلى الله بسلوك طريق طاعة الله، أي انه يجتاز المرحلة الحيوانية إلى مرحلة ما فوق الملك، وهذا الصعود والتعالي ليس أمراً رمزياً أو إدارياً ولا اعتبارياً، وليس من قبيل الترقي من منصب اداري بسيط إلى أرفع منه، أو من عضوية بسيطة في حزب إلى قيادة في ذلك الحزب، بل هو صعودٌ في سلّم الوجود، فشدة وقوة وكمال الوجود تعني زيادةً واستكمالاً في العلم والقدرة والحياة والارادة والمشيئة واتساع في دائرة النفوذ والتصرّف، والتقرّب إلى الله تعالى يعني طيّ حقيقة مراتب ومنازل الوجود والاقتراب من مركز الوجود الذي لا يتناهى.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦.

بناءً على ذلك، من المستحيل أن يعجز الانسان من الوصولى إلى منزلة الملائكة أو أفضل منها أو لا يتمتع بكمالات الوجود بمستوى الملائكة على الأقل، نتيجة الطاعة والعبودية وطيّ صراط العبودية.

ولغرض إثبات المنزلة التي يتمتع بها الانسان جاء الخطاب القرآني:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا ابليس أبى﴾[1].

حقاً ينبغي القول إن من ينكر مقام الانسان فهو إبليس.

▣ التقرّب إلى الله:

إن حياة الانسان الظاهرية الحيوانية تستبطن حياةً معنوية، وهذه بدورها متوفرة لدى جميع البشر وتستمد وجودها من ممارسات الانسان وأغراضه، فكمال الانسان وسعادته وكذلك انحطاطه وشقاؤه كل ذلك مرتبط بحياته المعنوية التي ترتبط بدورها بأفعاله ونواياه وأغراضه وما يصبو إليه من مجمل أعماله.

إنّ اهتمامنا بالتعاليم الاسلامية ينصبّ فقط على الجوانب المتعلّقة بالأُمور الدنيوية بجانبيها الفردي والاجتماعي، في حين انها زاخرة بالجوانب الفلسفية للحياة في جميع نواحيها، فالاسلام لا يزدري أُمور الحياة أو يهملها أبداً، ولا يرى أيَّ انفصال بين المعنويات والحياة في هذه الدنيا، كانسلاخ الروح من البدن إذ ينقطع ارتباطها بهذا العالم ويحدد مصيرها في عالم آخر، وعلى ذلك ينقطع ارتباط المعنويات بالحياة، لأن المعنويات ليست مرتبطة بهذا العالم، ولا جدوى من الحديث حول هذا الموضوع.

لكن ينبغي أن لا نتصور ان فلسفة التعاليم الاسلامية تقتصر على أُمور

---

(١) سورة البقرة: ٣٤.

الحياة فقط، بل ان تطبيق هذه التعاليم يمثل وسيلة لطيّ طريق العبودية وسلوك سبيل القرب والكمال، فالانسان يسير سيراً باطنياً نحو الكمال خارج إطار الجسم والمادة والحياة بجانبيها الفردي والاجتماعي، وهو إنما يقطعه من خلال عبادته وإخلاصه، وربما يشاهد جميع المراتب التي قطعها في هذه الدنيا، وإلا فسوف يشاهدها لدى انتقالها إلى العالم الآخر، إذ تزال الحجب، والمراتب هي منازل القرب ومراتبه وبالتالي الولاية.

مرادنا من هذا الكلام هو: انّه لخطأ فادح حصر التعاليم الاسلامية وما انطوت عليه من أهداف وأغراض ظاهرياً وباطنياً بالنتائج المترتّبة عليها في الحياة الدنيا واعتبار التقرّب إلى الله ـ وهو ثمرة الأداء السليم للأعمال، وهو الذي يرفع الانسان في سلّم الوجود ـ على أنه أمر اعتباري ومجازي مثله كمثل التقرّب إلى ذوي القوة والسلطة في الدنيا لا أثر له في الجانب المعنوي والحقيقي للانسان، فالذين تسلّقوا مراتب القرب إلى الله بمعناه الحقيقي وبلغوا أسمى درجاته، أي بلغوا مرحلة القرب بحقيقتها من مبدء الوجود وتنعّموا بنعيمه هم الذين يتمتعون بالاطلاع على عالم الوجود ويشهدون على ضمائر الآخرين ومكامن نفوسهم وأعمالهم.

إن كل موجود في هذا الكون يتقدّم خطوة في طريق الكمال المرسوم له، ويتدرّج مرتبة من مراتبه، فهو بذلك يسير في طريق القرب إلى الحق تعالى، والانسان أحد الموجودات في هذا العالم، وطريق كماله لا يتمثّل فيما يصطلح عليه في عالمنا المعاصر بـ «الحضارة» التي تعني طائفة من العلوم والفنون الضرورية والمؤثرة في تحسين المعيشة، ومجموعة من التقاليد والأعراف المهمة لتطوير الحياة الاجتماعية، بل ان للانسان بعداً وسبيلاً آخر لا يتأتى إلّا عن طريق تهذيب النفس ومعرفة الغاية السامية من وجوده، ألا وهي الذات الإلهية المقدسة.

◘ مراتب القرب الإلهي :

قال تعالى : ﴿سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج﴾[1].

ثمة تعبير له معانٍ ثرّة ورد في هذه الآية بوصف الباري تعالى وهو : ﴿من الله ذي المعارج﴾ والمعرج يأتي من العروج ، وهو مكان العروج ، وهو بذاته ذو مقامات ودرجات للعروج ، وقد ورد هذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾[2] و﴿هم درجات عند الله﴾[3] و﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾[4].

تأمّلوا جيداً ، فاننا طالما نردّد وعبارة «قربة إلى الله» أو ننويها في داخلنا كأن يقول أحدنا : «اُصلي قربة إلى الله» ، فربما يخطىء البعض في استخدام ما تداول عليه من مفاهيم وعبارات اعتبارية في الأعراف والوقائع الدنيوية ويتعامل بها مع الله سبحانه متصوّراً انها تصدق بشأنه جلّت قدرته ، في حين انها تمثل بالنسبة له تعالى حقيقة لا اغباراً.

فثمّة من يقول على سبيل المثال : إن فلاناً مقرب جداً من فلان ، فهل يا ترى ان المراد هو القرب المكاني ، أي انّه أقرب من الآخرين إليه من ناحية المكان ؟ في هذه الحالة يكون الخادم أقرب الناس من صاحب المقام ، وربما يكون هنالك من تفصله مسافات بعيدة عنه وفي نفس الوقت يعتبر مقرباً منه ، المراد من المقرب هنا من يتمتّع بالمزيد من الرعاية واللطف .

البعض يتصوّر انّ القرب من الله جلّ وعلا من قبيل ذلك ، فعند القول

---

(١) سورة المعارج : ١ ـ ٣.

(٢) سورة غافر : ١٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٦٣ .

(٤) سورة المجادلة : ١١ .

مثلاً: «إن رسول الله صلّى الله عليه وآله أقرب الناس من الله سبحانه وتعالى» يتبادر إلى ذهن البعض انّه تعالى يشمله باللطف والعناية أكثر من غيره، ويتصوّرون انّ القرب والبعد من الله بهذا المعنى، وهذا لا يختص بالبشر فقط، بل يشمل الملائكة أيضاً، أي ليس هنالك ملك أقرب من غيره، وينصب الأمر في اللطف والعناية فقط، في حين ان لعالم المعنويات مراتب من حيث القرب إلى الله تعالى، وعالم الغيب والملكوت فيه مراتب ومنازل حقيقيّة، والقضية لا تنحصر في زيادة اللطف والعناية ونقصانهما، أي ان الانسان يتسامى نحو الله من خلال عبادته، والقرب بذاته إنما هو حقيقة، وكلّما اقترب الانسان درجة من الله كلّما استنار وجوده بنور الحقّ تعالى، وبالتالي فإنّ كيانه يتغيّر وفقاً لمدى استنارته هذه، حيث يتغيّر كلّ شيء لديه بدءً من وضعه ومروراً بهيئته وأخيراً معنوياته، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿إليه يصعد الكلم الطيِّب والعمل الصالح يرفعه﴾**[1]، والمراد هو انّ الاعتقاد الصالح يرفع الكلم الطيب أو العكس، وفي عالم الغيب هنالك حقائق غير الحقائق التي نلمسها، وما ورد في القرآن الكريم من تعابير نظير: **﴿أعلى عليّين﴾** و **﴿أسفل سافلين﴾** إنما هو تلميح إلى هذه الحقائق.

وفي قوله تعالى: **﴿من الله ذي المعارج﴾** هو انه تعالى له مراتب ومنازل، وكل شيء في هذا الكون له مرتبة خاصة عنده سواء الملائكة أو الانسان أو الحيوان وسائر المخلوقات.

ثمّة حديث قدسي مشهور لدى الجميع يرويه الفريقان وهو مذكور في أهم كتب الحديث لدينا ـ أي أُصول الكافي ـ وهذا الحديث فيه من المعاني ما لا يدرك ولا يحصى، إذ يقول تعالى: «**لا يزال العبد يتقرّب إليَّ بالنوافل**»، فعباد

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

الرحمن يعرجون إلى الله بالنوافل دائماً، وهو تـعالى لم يـقل: لا يـزال العـبد يتقرب إليَّ بالفرائض، بل يقول: لم يزل عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى مرحلةً تشمله مـحبتي، وليس المـراد هـنا ان سـائر العـباد لا تشملهم محبّة الله، بل إن لله رحمتين، الأُولى: عامة، وهي الرحمانية وتشمل جميع البشر، والثانية: الرحيمية وتختص بفئة خاصة وهم العـباد الخـاصون، والمراد من الرحيمية هو ان الانسان يبلغ مرتبةً يسير نحو هدفٍ مركزي محدّد له وعندما يصل إليه تجذبه قوة ذلك الهدف، يصل إلى مرحلة تسـتقطبه المـحبّة الإلهية وتستولي على كيانه، وتجذبه يد الرحمة الإلهية نحوها.

ثم يقول تعالى: «**حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها**» أي من فرط محبّتي له أكون كل شيء بالنسبة له، فيفوض الأمر لي ولم يبق شيء لديه.

الغرض من الكلام هو انّ هذه المراتب والمنازل التي جرى الحديث عنها هي التي يقطعها الانسان، وكلّما ازداد سموّاً وارتفاعاً لا يبلغ حداً مـعيناً، بـل بوسعه السموّ والعروج إلى ما لا نهاية[1].

---

(١) تفسير سورة المعارج: ٩ ـ ١٢.

الاخلاص

إنّ معرفة الله تترك بصماتها ذاتياً على شخصية الانسان وروحه وأخلاقه وأعماله، وهذا التأثير مرتبط بدرجة إيمانه، فكلما اشتدّ إيمانه ازداد نفوذ هذه المعرفة في كيانه وهيمنت على شخصيته.

إنّ لتأثير معرفة الله ونفوذها في الانسان مراتب ودرجات، والتباين بين أبناء البشر من ناحية الكمال الانساني والقرب إلى الله ذو علاقة بهذه المراتب، وجميع هذه المراتب يطلق عليها الصدق والاخلاص، أي انها تمثل مراتب الصدق والاخلاص.

وللبيان نقول: سبق منّا القول اننا نتوجّه إلى الله ونعبده، وبذلك نعبر عمّا يجول في داخلنا من انه تعالى وحده الذي يستحق الطاعة، وكلٌّ منّا يسلّم للذات الالهية المقدّسة تسليماً مطلقاً. وهذا الوقوف أمام الله سبحانه وتعبيرنا إنّما هو عبادة لا تجوز إلّا لله تبارك وتعالى، إلّا ان المهم في الأمر هو مدى صدق هذا التعبير، أي مدى انعتاقنا من عبودية غير الله وتسليمنا للحقّ تعالى، وهذا ما يرتبط بدرجة إيماننا.

من المسلّم به انّ البشر غير متكافئين من حيث الصدق والاخلاص، فمنهم من يصل إلى مرحلة لا يملك بزمامه سوى الخالق جل وعلا ظاهرياً وباطنياً. فتعجز أهواؤه ورغباته عن الأخذ بعنانه يميناً وشمالاً، وليس بمقدور

إنسان آخر تسخيره والهيمنة عليه، ولا يعطي لنفسه إلّا بالمقدار الذي يوافق رضا الله ـ وبطبيعة الحال فإنّ رضا الله هو السبيل الذي يؤدّي بالانسان إلى الكمال الحقيقي ـ ولا ينفذ ما يمليه عليه الآخرون كالوالدين والاستاذ إلّا بما ينسجم مع مرضاة الحقّ تعالى وما يكون في سبيله وما يسمح به.

ومن الناس من يتجاوز هذا الحدّ فلا يرى محبوباً ومعشوقاً في هذا الكون سوى ربّ الأرباب، فهو معشوقه ومحبوبه الأول والأخير، وينظر إلى الخلق كمن يعشق شيئاً، ونتيجة لذلك فهو يعشق آثاره؛ فهو يحب خلق الله على انهم آياته وآثاره.

ومنهم من يتجاوز بخطواته أكثر من ذلك فلا يرى شيئاً سوى الله وتجلياته، اي انه يراه في كل شيء، وكل شيء في الكون انّما هو مرآة له متى ما نظر فيها فإنّه يقف أمام تجلياته.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما نظرت إلى شيء إلّا ورأيت الله قبله وفيه وبعده»[1].

فالمتعبّد الحقيقي ينقل ما يدور بينه وبين ربّه أثناء العبادة إلى مفاصل حياته اليومية بحيث يدخله مرحلة التصديق، فالعبادة بالنسبة للمتعبّد الحقيقي تمثل ميثاقاً، والحياة بمثابة الميدان للوفاء بهذا الميثاق الذي يرتكز على شرطين مهمين هما:

الأول: الانعتاق والتحرّر من طاعة غير الله سواء كان هوى النفس أو الشهوات أو سائر المخلوقات.

الثاني: التسليم المطلق إزاء ما يأمر به الحقّ تعالى والرضا به.

إن العبادة الخالصة تمثّل بالنسبة للمتعبّد عاملاً مهماً وأساسياً تربية روحه

---

(١) علم اليقين: ٤٩/١.

وترشيدها، ودرساً في الصلاح والتحرر والتضحية والتعلق بالله جلّ وعلا والتسليم لأمره، والتلاحم مع المؤمنين وإضمار المحبة تجاههم والاحسان وخدمة الناس.. إلخ.

اتّضح مما تقدّم انّ التوحيد في المنطق الاسلامي يرفض أي دافع وحافز غير الله، فحقيقة تكامل الانسان والكون تكمن في السير نحو الله، وكل مقصود غيره باطل ويتنافى مع المسيرة التكاملية للبشر، وكما يجب ـ في المنظور الاسلامي ـ أن يكون عمل المرء لنفسه مؤطّراً بإطار العمل في سبيل الله، لابدّ أن يكون العمل من أجل خلق الله مؤطّراً بهذا الاطار، وما يقال من أنّ العمل في سبيل الله هو بحدّ ذاته عمل من أجل خلقه، فسبيل الله وسبيل الخلق واحد، وما كان لله فهو لخلقه، وإلّا فإنّ العمل في سبيل الله بمعزل عن الخلق إنما هو رهبانية وتصوّف، إنما هو كلام خاطىء.

إن السبيل الوحيد والمراد الوحيد الذي يؤمن به الاسلام هو الله وسبيله لا غير، بيد انه يمرّ عبر خلق الله، فالعمل في سبيل الذات أنانية، وفي سبيل الخلق فقط صنمية، والعمل في سبيل الله على حدة وفي سبيل الخلق على حدةً شرك وازدواجية، والعمل من أجل النفس ومن أجل الخلق في سبيل الله هو التوحيد والعبودية لله، ففي المنهج الاسلامي لابدّ أن تنطلق الأعمال باسم الله تعالى، لكنها إذا انطلقت باسم الخلق فقط فهي الصنمية بعينها، أو تنطلق باسم الله واسم خلقه فذاك شرك ووثنية، أما إذا انطلقت باسم الله وحده فذلك هو التوحيد بعينه.

ثمّة نكتة ظريفة تستفاد من كلمة «مخلص» الواردة في القرآن الكريم، فهي تأتي على صورتين: «مخلِص» بكسر اللام، و«مخلَص» بفتح اللام، والأُولى تعني الاخلاص في العمل وأدائه خالصاً نزيهاً لوجه الله، أما الثانية فتعني الخلوص والتطهّر من أجل الله، ومن البديهي انّ إخلاص العمل شيء، والخلوص والتطهر شيء آخر.

▣ دعوة الشيخ جعفر الشوشتري :

خلال سنوات تواجده المديدة في طهران كان الشيخ جعفر الشوشتري يرتقي المنبر، وذات مرة ارتقى المنبر ونادى: أيها الناس! إن جميع الأنبياء جاؤوا يدعونكم إلى التوحيد، وأنا جئتكم اليوم لأدعوكم إلى الشرك، فدُهش الحاضرون من كلامه، ثم أردف قائلاً: إن جميع الأنبياء جاؤوا يدعونكم إلى عبادة الله فقط والعمل في سبيله، وأنا أدعوكم إلى العمل قليلاً في سبيل الله، أي ان لا تكون جميع أعمالكم لغيره.

فالعمل المكرّس لغير الله إنما مثله كالعمل الذي يأتي به المرء من أجل الدنيا فقط ولا شأن لله به من قريب أو بعيد، بيد ان الانسان يتّخذ في بعض شؤونه من الله وسيلة لبلوغ مآربه النفسية، وهذا نوع من التوسّل بالله، فحيث إن الانسان يعلم أن مقاليد الأُمور في هذه الدنيا بيده تعالى وهو القادر على حلّ معضلاتها، فهو يتوجّه نحو الله تعالى وإلّا لما طرق باب الباري عز وجل، لا شكّ في أن هذا مظهر من مظاهر الشرك، أي انه عبادة لا يكون الغاية فيها هو الله، بل انه تعالى أصبح وسيلة لتحقيق المآرب النفسية، غير انّه تعالى يتقبّل ذلك من الانسان إلى حدٍ ما، فهو يتقبل بصورة أو بأُخرى مثل هذه الأعمال التي تستبطن الشرك الخفي، أي يعطي الانسان ما أراد، والأمر هكذا في الآخرة أيضاً، فإذا تعبّد المرء قاصداً من ذلك مآرب أُخروية فإنّ الله يعطيه ما أراد، بيد انّ هذه العبادة لا تحمل المعنى الحقيقي لعبودية الله، فهو تعالى لا يعبد حقّ عبادته إلّا عندما تكون العبادة خالصة لوجهه فقط، أما ما سوى ذلك فإنّه مراتب من الشرك الخفي الذي لا تترتّب عليه عقوبات في الآخرة.

ثمّة حديث ظريف يصوّر لنا حركة الشرك في قلب الانسان، وهو:

«إن دبيب الشرك في القلب أخفى من دبيب نملةٍ سوداء على صخرة

صماء في ليلة ظلماء».

وهذا يبرهن على أن التوحيد أمر دقيق للغاية، ويدلّل على أن الشرك يسري في القلب بخفاء مثله كمثل دبيب النملة السوداء في ليلة ظلماء على صخرة صمّاء، وإذا كان دبيب النملة بهذه المواصفات فهل تستطيع العين أن تميزها؟

بناءاً على ذلك، لدينا عبادتان؛ أحدهما حقيقية والأُخرى مجازية، أما الحقيقية فهي ما يصورها الحديث التالي:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»(١).

وقد أورد سعدي مثلاً رائعاً بهذا الشأن فيما يتعلق بمدى الودّ الذي كان يكنّه السلطان محمود لاياز الذي كان يتعرّض لانتقادات الآخرين.

يقول سعدي: عندما يسافر السلطان محمود كان يحمل معه صندوقاً فيه مجوهرات، وذات مرة أمر أن لا يقفل الصندوق بإحكام، ولما وصل إلى أحد الوديان عمد إلى إلقاء الصندوق من على أظهر الناقة حتى وقع في قعر الوادي وتناثر ما فيه من لآلىء وجواهر، وقال: من أخذ منها فهي له، وانصرف، وبعد حين التفت إلى الخلف فوجد ان الجميع ذهبوا لاقتناص ما يستطيعون الظفر به من الجواهر إلّا واحداً منهم وهو إياز، فسأله عمّا حصل، فقال: لا شيء فقد آثرت الخدمة على النعمة.

لقد أراد السلطان محمود أن يثبت خلاف ما يقال من عدم توفّر شخصٍ واحدٍ يستخلصه لنفسه، فالعبادة الحقيقية تكون أن لا نتّخذ غير هذا السبيل، والباري تعالى بفضله يتقبّل منا هذا الشرك.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٩.

▣ الاخلاص شرط قبول الأعمال :

من الأُمور التي طرحت بشأن قيمة الإيمان هو ما مدى تدخل الايـمان في قبول الأعمال ؟

لقد تقدّم منّا القول خلال نقلنا للأدلّة التي أوردها القائلون بأن حسنات الكفار مقبولة عند الله تعالى وادعاؤهم بأنّ الحسن والقبح أمر ذاتي ، والعـمل الصالح حسن سواء صدر من مؤمن أو من كافر فلابدّ أن يحظى بالقبول لدى الله ، لأنّ الحسن حسنٌ والقبيح قبيحٌ بغضّ النظر عن مـصدرهما ، والله واحـدٌ بالنسبة لجميع العباد .

نقول : إن ما ورد في الاستدلال الآنف الذكر صحيح ، إلّا انّ هناك مطلبٌ لم يتمّ الانتباه إليه ولا مناص من أجل بيانه أن نتطرق إلى بيان مصطلح آخر من المصطلحات الأُصولية وهو ان الحسن والقبح على نوعين : فعلي وفاعلي .

▣ النيّة الصالحة ، العمل الصالح :

إن لكل عملٍ بعدين ، ولكلٍّ من هذين البعدين حسابه الخاص من ناحية الحسن والقبح ، فربما يكون فعلٌ ما حسنٌ في بعدٍ منها وقبيح في البعد الآخر ، والعكس صحيح أيضاً ، وربما يكون الفعل حسنٌ في كلا البعدين .

هذان البعدان عبارة عن الأثر الذي يتركه العمل في الخارج وفي المجتمع البشري ، فهو إمّا نافعاً أو ضاراً ، وكذلك الأثر الذي يتركه انتساب الفعل للفاعل والدوافع النفسية والروحية التي أدت به إلى القيام بفعله وإرادة الفاعل لبـلوغ تلك الأغراض والأهداف عن طريق العمل .

فعلى صعيد البعد الأول لابدّ مِن معرفة الحدّ الذي بلغه الأثـر النـافع أو الضار للعمل ، وفي الثاني يتحتّم معرفة النهج الذي اتبعه الفاعل والغاية التي كان يصبو لها ، وأعمال البشر من ناحية البعد الأول تُسجل في صـفحات التـاريخ

سواء كانت نافعة أو ضارة، التاريخ بنفسه يتولّى عملية الحكم بشأنها فإمّا أن يثني عليها أو يذمها، إلّا انها في البعد الثاني تُسجل في صفحات الغيب فقط، وسجل التاريخ يبحث عن الأعمال العظيمة والمؤثّرة وهو يثمن مثل هذه الأعمال، إلّا ان سجل الملكوت الأعلى يبحث عن كنه الأعمال بالاضافة إلى عظمتها وأثرها، يقول تعالى:

﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً**﴾[1].

فقد قال تعالى: ﴿**أحسن عملاً**﴾ ولم يقل: «أكثر عملاً» وهذاهو الأساس لنعلم أننا حين نمارس أعمالنا بفعل الدوافع النفسية، بالاضافة إلى ان العمل بذاته يتضمّن نشاطات وحركات وفعاليات وله آثار اجتماعية، فإننا بالحقيقة إنما نسلك طريقاً ونصبو إلى هدفٍ ما من الناحية المعنوية.

إن الأمر ليس بتلك البساطة إذ نثمن كل فعلٍ ونشاطٍ بغضّ النظر عما يحمل من أفكار ونوايا ومقدمات، كلا! فأصل الفكر والنيّة لا يقلّ أهمية عن أصل العمل، والتفكير القائل بـ«أصالة العمل» ولا يعتبر الفكر والنيّةوالعقيدة أصلاً ويقدّم العينية على الذهنية انّما هو فكر مادي، ومن المسلّم به عدم إمكانية خلق مواءمة ومجانسة بين تعاليم القرآن الكريم ومثل هذه الأفكار ناهيك عن بطلانها البيِّن.

إنّ شخصيتنا الحقيقية ـ في نظر القرآن ـ تكمن في الروح التي تسير في كلّ عمل تقوم به من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل وتكتسب ما يناسبها من آثار وطباع من خلال إرادتها وغايتها وهدفها، فتصبح هذه الآثار والملكات جزءً من شخصيتنا وتنحو بنا إلى ما يلائمها من عوالم الوجود.

إذن، فمن ناحية البعد الأول فإنّ حسن الفعل وقبحه مرتبط بأثره

---

(١) سورةالملك: ٢.

الخارجي، ومن ناحية البعد الثاني فإن حسن الفاعل وقبحه مرتبط بالطريقة التي يصدر بها الفعل عن الفاعل، فيكون حكمنا في الجانب الأول بشأن الفعل من خلال معطياته الخارجية والاجتماعية، وفي الجانب الثاني يتركز حكمنا في مدى تأثير الفعل الداخلي والنفسي في ذات الفاعل.

لو أقدم شخص ما على تشييد مستشفىً أو أي مشروع خيري آخر على الصعيد الثقافي أو الصحي أو الاقتصادي في البلد فلا شك في أن عمله هذا يعدّ حسناً وفقاً للمعايير التي يحكم بها المجتمع والتاريخ، أي انه مفيد ويصب في خدمة البشر، وهنا لا فرق في أن يكون هدف الفاعل من تشييد المستشفى أو المؤسسة الخيرية للتظاهر أو الرياء أو إشباع الغرائز النفسية، أو أن يكون هدفاً إنسانياً وسامياً يتجاوز الأنانية، فالمجتمع ينظر إليه بأنه أقام مؤسسة خيرية، والتاريخ يحكم على ما يقوم به الناس من خلال هذه الرؤية وهذا البعد إذ لا شأن له بما يضمرونه من نوايا، فعندما يجري الحديث عن المراكز العمرانية والثقافية في اصفهان فلا شأن لأحد بما كان يضمره من أنشأ مسجد الشيخ لطف الله أو مسجد الملك أو جسر«سي وسه پل» فالتاريخ ينظر إلى العمل ويحكم عليه بأنه «عمل خير».

أما في المعيار الذي يركز على حسن الفاعل فلا أهمية للأثر الاجتماعي والخارجي، بل لنوع الارتباط القائم بين الفعل والفاعل، فلا يكفي أن يكون العمل نافعاً كي نطلق عليه «عمل خير»، إنما المهم هنا هو نيّة الفاعل والغاية التي أراد الوصول إليها من خلال عمله، فإن كانت نيّة الفاعل وهدفه خيراً وقام بعمله طلباً للخير فعمله يعتبر عمل خير، أي انه حاز على عنصر «حسن الفاعل» وتوفر في عمله كلا البعدين، وقد أصاب الرُّقي على صعيدين، الأول: التاريخ والمجتمع البشري، والآخر: البعد المعنوي والغيبي، أما إذا قام به بدافع الرياء

وكسب المنفعة المادية فانّ عمله هذا قد حاز بعداً واحداً فقط وهو التقدم على صعيد التاريخ فقط دون الصعيد المعنوي والغيبي ، وذلك ما يصطلح عليه دينياً بأن عمله لم يرتق إلى العالم العلوي ، وبتعبير آخر : انّ الفاعل قدّم خدمةً للمجتمع دون نفسه ، بل ربما يكون قد خان نفسه ، فبدلاً من أن تسمو روحه بهذا العمل فانّها تصاب بالانحطاط والتسافل .

وبطبيعة الحال ليس المراد : ان حسن الفاعل منفصلٌ تماماً عن حسن الفعل ، ولا ينبغي للانسان ممارسة الأعمال الاجتماعية الصالحة ، بل المراد : ان العمل يكون نافعاً من ناحية البعد الروحي والتكامل المعنوي حينما تسمو الروح وتعرج من خلال القيام بذلك العمل وتخرج من قفص الأنانية وحبّ الذات وتحلّق في سماء الخلوص والصفاء .

إنّ منزلة حسن الفعل من حسن الفاعل كمنزلة الروح من الجسد ، فالكائن الحيّ مركبٌ من الروح والجسد ، من هنا لابدّ أن يدبّ حسن الفاعل في العمل الذي توفّر فيه عنصر حسن الفعل كي تدبّ الحياة فيه ويبقى خالداً .

بناءً على ذلك فإن ما ذهب إليه «المتنوّرون» من انّ الله يتعامل مع جميع خلقه تعاملاً متساوياً، وان حسن الفعل وقبحه يكمن في ذات الفعل ، فعمل الخير سواءٌ من الجميع ، وعلى هذا يتساوى الثواب في الآخرة بالنسبة للمؤمن والكافر» هو أمر مشكوك في صحته فقد جرى في هذا الاستدلال التركيز على ذات العمل ووحدة النظرة الالهية إزاء جميع خلقه ، أما الفاعل وشخصيته وهدفه والدوافع التي حفّزته للعمل وسلوكه الروحي والمعنوي ، هذه العوامل التي تبعث على تفاوت الأعمال فقد لفّها النسيان ، فهم يدّعون : ما الفرق بالنسبة لله في أن يكون القائم بعمل الخير عارفاً بالله أم لم يكن ؟ أو انه عمل طلباً لرضا الله أم لغاية أُخرى ، ناوياً التقرب إلى الله أم لا ؟

نقول في الردّ : لا فرق في الأمر بالنسبة لله تعالى ، بل الفرق يمسّ الانسان

نفسه ، فهو ان كان لا يعرف الله فهو يتّخذ سبيلاً معيناً ، وإن كان يعرفه فهو يسلك طريقاً آخر ، وإذا لم يكن عارفاً بالله فإنّ عمله يكون ذا بعدٍ واحدٍ أي يتوفّر على حسن الفعل فقط وبالتالي يحصل على ثناء التاريخ فقط ، أمّا إذاكان العكس فانّ عمله يتوفّر على بعدين ، أي حسن الفاعل والتقديرالغيبي ، وبهذه الحالة فإنّ عمله يسمو إلى الله تعالى ، والعكس هو الصحيح ، وبعبارة أُخرى انّ الفارق لا يخصّ الله ، بل العمل ، فالعمل إمّا أن يكون حيّاً وسامياً أو عملاً ميّتاً منحطّاً .

كما يدَّعون انّ الله سبحانه عادل وحكيم ومن المحال أن يحكم ببطلان حسنات من لا يرتبط به ويحبّه ، ونحن نعتقد أيضاً ان الله سبحانه لا يحكم بالبطلان على مثل هذه الأعمال ، لكننا لابدّ من التحقّق من ان الذي لا يعرف الله تعالى هل بإمكانه القيام بعمل خير بصورته الحقيقية يتوفّر على حسن الأثر وحسن الارتباط ، عملاً صالحاً من الناحية الاجتماعية ومن الناحية الروحية للعامل أيضاً ؟ ومن هنا نشأ الالتباس ، حيث إننا نكتفي بكون العمل مفيد اجتماعياً فنفترضه عمل «خير» و«صالح» .

لو فرضنا «وهذا فرض المحال» ان شخصاً لم يعرف الله سما إلى الله بعمله ، فإنّ الله والحالة هذه لا يفتح له أبواب رحمته ، بيد ان الحقيقة هي أن من لا يعرف الله لا يتمكّن من اختراق الحجب ، ولا يتجاوز أي درجة نحو السموّ إلى الملكوت الأعلى كي يحوز عمله صفة الملكوتية ويصبح على هيئة تبعث السرور والبهجة والسعادة في ذلك العالم ، بهذه الصورة يحظى العمل بالقبول عند الباري جلّ وعلا .

◘ تباين القوانين الإلهية والقوانين البشرية :

هنالك فارق مهم بين القوانين الإلهية والقوانين البشرية ، وهو انّ القوانين الالهية ثنائية الأبعاد ، والقوانين البشرية أُحادية البعد ولا تُعنى بالجانب الروحي

والتكامل المعنوي للانسان، فعندما تريد دولة ما فرض الضرائب فإنّ هدفها ينصبّ على جمع المال وتأمين ميزانية البلاد فقط، فلا تعير اهتماماً لنيّة المسدّد هل انه يدفع الأموال طلباً لرضا الله تعالى وحباً لبلده ودولته أم بدافع الخوف ؟ فهدف الدولة يتركز على الاموال فقط حتى وان انهال المسدّد سبّاً وشتماً على الدولة والقائمين عليها، فإنّ ذلك يبقى في نظر الدولة عملٌ على أيّة حال.

وكذلك إذا استدعت دولة ما جنودها للدفاع عن حياض البلاد فإنها تريد جندياً يقاتل العدو ولا يهمها في ان يقاتل هذا الجندي عن نيّة ورضا أو خوفاً من الأسلحة المنصوبة خلف ظهره، أو أن يكون قتاله عبارة عن استعراضٍ ينمّ عن حماقة وتهورٍ وتعصبٍ أعمى أم من أجل الدفاع عن الحقّ والحقيقة ؟

أما في القوانين الإلهية فإنّ الأمر ليس كذلك، ففيها لا تفرض الضرائب والخدمة الاجبارية بنحو مطلق، بل ان تكون مقرونة بالنيّة الخالصه وقصد القربة إلى الله تعالى، فالاسلام يريد عملاً مفعماً بالروح، لذا لو أدّى مسلمٌ ما الزكاة وكانت في نيّته أدنى شائبة من رياء فإنها لا تقبل منه، وإذا ذهب للجهاد وكان ذلك من أجل المباهاة فلا يقبل منه، فالاسلام يريد جندياً مفعماً بالمعنويات مؤمناً بنداء: ﴿**ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة**﴾[1] ويلبّيه بإخلاص.

في رواية متواترة لدى الشيعة والسنّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله انّه قال:

«إنما الأعمال بالنيّات»[2].

و «لكل امرىءٍ ما نوى»[3].

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) الوسائل: ٨/١.

(٣) الوسائل: ٨/١.

و «لا عمل إلّا بنيّة»[١].

وفي حديث آخر روي عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال:

«إنّما الأعمال بالنيّة، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام: «اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فانه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد الى الله»[٣].

الاخلاص روح العمل:

النيّة هي روح العمل، وكما ان جسد الانسان شريف بروحه، فإنّ شرافة عمل الانسان مرتبطة بروح العمل، فما هي روح العمل يا ترى؟ انّه الاخلاص، يقول تعالى:

﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[٤].

الكيفيّة أم الكميّة؟

ممّا تقدّم نحصل على نتيجة مهمة، وهي: ان قيمة الأعمال بالنسبة لله تعالى تكمن في الكيفيّة وليس الكمية، وقد أدى إهمال هذا الجانب إلى أن يستعظم طائفة من الناس بعض الأعمال البسيطة التي قام بها الأولياء. لما رأوا ان محتواها بسيط جدّاً، فعلى سبيل المثال، ما يخصّ الخاتم الذي أنفقه أمير المؤمنين عليه السلام وهو في حال الركوع وأعطاه إلى فقير وما تبع ذلك من نزول آية بحقّه عليه السلام، فقد قالوا حول ذلك: إن الخاتم يعدل خراج

---

(١) الوسائل: ٨/١.

(٢) صحيح مسلم: ٤٨/٦.

(٣) الوسائل: ٥٢/١ ح ٥.

(٤) سورة البيّنة: ٥.

سوريا والشامات ، ولكي يصدّق الناس صاغوا ذلك على شكل رواية ، فقد كان أمراً مدهشاً بالنسبة لأولئك أن تنزل آية كاملة من القرآن الكريم بشأن عملية انفاقٍ لخاتمٍ بسيط ، وحيث إنهم لم يصدّقوا فقد لجأوا إلى تهويل الأمر والمبالغة بقيمته المادية ، فلم يطرق بالهم أبداً ان الخاتم الذي تعدل قيمته خراج سوريا لا يمكنه بأي حالٍ من الأحوال أن يضفي الزينة على يد علي عليه السلام وهو في المدينة التي كانت تمتاز بالفقر والقحط ، ولو فرضنا انّ مثل هذا الخاتم كان في يد علي عليه السلام بالفعل لما أنفقه على الفقير ، بل بادر إلى إعمار المدينة وإنقاذ بؤساءها جميعاً .

إن مختلقي الأساطير لم يدركوا ان العمل العظيم عند الله تعالى ليس في صورته المادية ، ولعلّهم تصوّروا انّ نفاسة الخاتم قد استرعت انتباه الباري تعالى ـ والعياذ بالله ـ ودفعته إلى الثناء على علي عليه السلام وعظمة عمله .

▣ تجلّي الاخلاص في الملكوت الأعلىٰ :

لا أدري بماذا فكّر المصابون بقصر النظر بشأن اقراص الشعير التي انفقها علي عليه السلام ونزلت بحقه سورة الدهر ، لعلّهم يقولون ان طحين ذلك لم يكن من شعير بل من ذهب !

ان أهمية ما قام به علي عليه السلام وأهل بيته لا تكمن في الجانب المادي الذي يسترعي انتباهنا دائماً ، بل في انّه كان خالصاً لوجه الله بكلّ ما في الاخلاص من معنى إلى درجة نعجز عن تصورها ، اخلاص انعكس في الملكوت الأعلى وحظي بالتكريم والثناء ، وقد تجسدت اهميته في ما نقله القرآن الكريم :

﴿إنّما نطعمكم لوجه اللهِ لا نُريد مِنكم جزاءً ولا شكوراً﴾[1].

---

(١) سورة الدهر : ٩ .

وهذا الكلام الذي افصح عنه الله جل وعلا يمثل لسان حالهم، أي انّهم لم يقصدوا شيئاً بذلك الايثار غير وجه الله.

وإذا ما وصف القرآن الكريم أعمال الكفار بانّها سراب يفتقد للحقيقة فذلك يعود إلى جمال ظاهرها وجذابيتها إلّا انّها تخلو من الصورة الملكوتية لأن الغاية منها كانت من أجل المقام المادي والشخصي وليست لوجه الله تعالى.

لقد شقت زبيدة زوجة هارون الرشيد نهراً في مكة لا يزال حجاج بيت الله الحرام ينتفعون منه حتى الآن، وعملها هذا ذو ظاهر حسن فقد ادت الجهود التي بذلتها زبيدة إلى أن يخترق هذا النهر الجبال الواقعة بين الطائف ومكة حتى يصل إلى أرض مكة القاحلة ومنذ حوالي اثني عشر قرناً يروي الحجاج غليلهم من مائه، ومع انّه عمل جبارٌ من حيث الوجه الملكي الّا ان الاستفهام يحوم حول وزنه من الناحية الملكوتية، هل ان حساب الملائكة كحسابنا، وهل تحدق عيونهم بالحجم الظاهري لعمل الخير هذا؟ كلا انهم يدققون بشكل آخر ويتعاملون وفقاً للموازين الالهية ويتفحصون في الابعاد الأُخرى للعمل وينقّبون عن مصدر المال الذي انجزت به زبيدة هذا العمل.

ان زبيدة كانت زوجة رجل جبار ظالم، هو هارون الرشيد الذي كان يتصرف ببيت مال المسلمين على ضوء اهوائه، ولم تكن لزبيدة ثروة خاصة حتى تنفقها على أعمال الخير بل انفقت اموال الناس عليهم، واختلافها عن سائر اقرانها من النساء هو ان تلكم النساء كن ينفقن اموال الناس طبقاً للشهوات الخاصة فيما انفقت زبيدة جزءً من هذا المال لأمر فيه منفعة لعامة الناس، ثم ماذا كان غرض زبيدة من هذا العمل؟ هل ارادت به تخليد اسمها في سجل التاريخ؟ أم أنها قامت بذلك طلباً لرضىٰ الله تعالى؟ الله اعلم.

روي ان أحداً ممن رأى زبيدة في المنام سألها عن جزاء الله لها على النهر الذي شقّته فقالت: اعطىٰ ثوابه لاصحاب المال الحقيقيين.

◙ مسجد البهلول:

يروى ان البهلول مرّ ذات يوم على أناس يبنون مسجداً فسألهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نبني مسجداً، قال: لماذا؟ قالوا: طلباً لرضىٰ الله، فأراد البهلول ان يبين لهم مدى اخلاصهم فأوصى بصنع صخرة وكتب عليها عبارة «مسجد البهلول» ونصبها ليلاً على بوابة المسجد، ولما جاء بناة المسجد في اليوم التالي ورأوا اللوحة استحوذ عليهم الاستياء واخذوا يبحثون عن البهلول وحين عثروا عليه انهالوا عليه ضرباً وهم يستنكرون عليه مصادرته لجهود الآخرين، فقال البهلول: الم تقولوا اننا نبني المسجد في سبيل الله؟ فاذا التبس الأمر على الناس وظنوا انني أنشأت المسجد فان الله لا يلتبس عليه ذلك!

كثيرة هي الأعمال التي تبدو عظيمة في أعيننا ولا قيمة لها عند الله، ولعلّ كثيراً من الابنية الضخمة من معابد ومساجد ومزارات ومستشفيات وجسور واماكن القوافل والمدارس يؤول مصيرها إلى مثل هذا المصير، ان حسابها عند الله!

◙ الصورة الملكوتية للعمل:

ان النسبة بين الدنيا والآخرة كالنسبة بين البدن والروح، أي كنسبة الظاهر إلى الباطن، فالدنيا والآخرة ليستا عالمين منفصلين عن بعضهما البعض، وعالم الدنيا والآخرة أو بتعبير آخر عالم الملك وعالم الملكوت يمثلان وحدة واحدة كورقة الكتاب لها صفحتين أو كعملة ذات وجهين، والأرض الموجودة في الدنيا هي نفسها في الآخرة ولكن بوجهها الملكوتي، والجمادات والنباتات

في الدنيا تظهر في الآخرة بصورتها الملكوتية، فالآخرة بالأساس تمثل الصورة الملكوتية للدنيا.

ان التوجه إلى الله تعالى والعمل من أجل السمو إلى الملكوت الأعلى هو شرط حصول العمل على صبغة ملكوتية وارتقائه إلى أعلى عليين، وإذا لم يكن الفاعل معتقداً بالقيامة ولم يولِّ وجهه نحو الله تعالى فانّ عمله سيفتقد الصورة الملكوتية، وبتعبير آخر لا يرقىٰ إلى العليين، فالوجهة الملكوتية للعمل هي الوجهة المتعالية والوجهة الملكية هي الوجهة المتسافلة، والعمل لا يرقىٰ إلى الملكوت الاعلى ما دام يفتقد النية والعقيدة والايمان والنورانية والصفاء، والعمل الذي له روح هو الذي يرقىٰ إلى الملكوت الاعلى، وروح العمل تتجلى في الربح الاخروي والملكوتي له، وما اروع التعبير القرآني:

﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1].

هذه الآية يمكن أن تفسر على نحوين كلاهما مذكور في كتب التفسير، الاول: ان العمل الصالح يرفع الكلم الطيب والاعتقاد الصالح، والثاني: أن الكلم الطيّب والاعتقاد الصالح يرفعان العمل الصالح ويجعلاه ملكوتياً.

ان كلا التفسيرين ـ وهما صحيحان ولا مانع من أن يكون المراد كلا المعنيين ينبيان بمجموعهما قاعدة مفادها: ان الايمان يؤثر في قبول العمل وصعوده والعمل يؤثر في اشباع الايمان ورفع درجته، وهذه القاعدة من البديهيات في المعارف الاسلامية، ونحن نستشهد بهذه الآية استناداً إلى التفسير الثاني لها ـ وان كنا قد ألمحنا إلى عدم وجود المانع في أن تكون آية ناظرة إلى كلا المعنيين في آن واحدٍ ـ.

على أية حال، من الخطأ ان نظن أن أعمال غير المؤمنين بالله والقيامة

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

تصعد إلى الله وتحصل على صورة «علنية».

لو قيل لنا ان فلاناً توجه نحو شمال طهران قاصداً السفر إلى الشمال لعدة ايام فلا نتوقع أبداً انّه سيتوجه إلى قم واصفهان وشيراز ومن يحتمل ذلك يتعرض للاستخفاف ويقال له: لو انّه كان يرغب في السفر إلى قم واصفهان وشيراز لكان عليه ان يسلك الطريق الواقع جنوب طهران.

من المحال ان يصل الكعبة من توجه إلى تركستان.

ان الجنّة والنار تمثلان غايتين في السلوك المعنوي للإنسان، وفي ذلك العالم يرى كلُّ شخص نفسه في الغاية التي كان يسير من أجلها، فريقٌ في أعلى عليين وفريق في أسفل سافلين، والقرآن الكريم يؤيد ذلك:

﴿... ان كتاب الأبرار لفي عليين﴾[1].

﴿... ان كتاب الفجار لفي سجّين﴾[2].

انّىٰ للإنسان ان يبلغ غايته وهو لا يتحرك نحوها أو يسير بالاتجاه المعاكس لها؟! ان الحركة باتجاه العليين نابعة من ارادة الوصول اليها، والارادة متفرعة من المعرفة والاعتقاد من جهة والتمكين والتسليم من جهة اُخرى، وكيف يتسنىٰ لنا ان ننتظر ممن لا يعتقد بهذا الهدف ولا يتوفر لديه التمكين والتسليم وأخيراً لا رغبة لديه في ذلك ولا يخطو ادنى خطوة باتجاهه، الوصول إلى ذلك الهدف؟ ولا شك في أن كلّ طريق يؤول إلى هدفه، وما لم يكن الله تعالى هو الهدف فلا ينتهي اليه.

﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان

---

(١) سورة المطففين: ١٨.

(٢) سورةالمطففين: ٧.

سعيهم مشكوراً﴾[1].

أي ان من لا يتجاوز تفكيره الدنيا ولا هدف له أعلى من المحال أن ينال هدفاً اخروياً سامياً، وبمقتضى كرمنا ولطفنا نمنُّ عليه بما اراد من هدف.

وهنا ثمة نكتة مفادها ان عالم الدنيا ـ عالم الطبيعة والمادة ـ هـو عـالم العلل والاسباب والاخيرة متنازعة ومتازحمة مع بعضها، اضافة إلى ما تتميز به الدنيا من القسر أيضاً، لذا فمن كانت غايته الدنيا فلا ضمان في أن يبلغ غايته كاملة، وهذا ما اختاره القرآن الكريم من تعبير لافهامنا مغزى هذا الأمر:

﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾.

أما من تطلّع إلى هدفٍ اسمى في مسيرته الروحية ولم يتعلق قلبه بأهداف دنيا ويسير نحو غاية الهية ويتقدم متزوداً بالايمان فانه سيبلغ مـا يـصبو اليـه بطبيعة الحال، لان الله تعالى يثمن العمل ويتقبل العمل الصالح الذي يُقدم قربة اليه ويقابله بالأجر.

وهنا يشترط السعي وبذل الجهد أيضاً اذ من المحال ان يصل الإنسان إلى هدفه دون السير نحوه والتحرك باتجاهه. ثم يقول تعالى في الآية اللاحقة:

﴿كلّاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك، وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[2].

أي انّنا فياضون على الاطلاق وقد خلقنا العالم والقينا فيه القابلية على النشاط، وكلّ من يزرع بذرة فانها تنمو وتثمر برعايتنا، ومن يحث الخطى نحو هدفه نوصله اليه.

يقول الحكماء المتألهون: واجب الوجود واجـباً مـن جـميع الجـهات والحيثيات، لهذا فهو واجب الفياضية، وعلى ضوء هذا فان من طلب شيئاً امدّه الله تعالى، فمن طلب الدنيا لا يدعه الله لوحده لانه يسير في طـريق الضـلال

---

(١) سورة الاسراء: ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة الاسراء: ٢٠.

ويعمل خلافاً لارشاد الله وهدايته، بل ان طالب الدنيا يحصل على الدعم الالهي في الحدود التي يمنحها عالم الاسباب والعلل والتمانع والتزاحم، فيمدّه الله بعطائه ورحمته الواسعة.

وبعبارة أُخرى ان العالم يمثل ارضاً مستعدة وجاهزة للزراعة والنمو والحصاد، الّا ان ذلك مرتبط بما يختاره الإنسان من بذور لتنميتها، والمحصول الذي يريد جنيه، وكلّ بذرةٍ يختارها هي نفسها التي تنمو في مزرعة هذا العالم التي زودت بالاستعداد والملائمة.

نعم، هنالك دعم خاص يحظى به الساعون نحو الحقيقة يطلق عليه الرحمة الرحيمية، لا يتمتع بها طلاب الدنيا لانهم لا يريدونها، أما الرحمة الرحمانية فهي تجري على السوية في جميع الناس وفي كافة المسارات.

من خلال ما تقدم في هذا البحث يُحلّ جزءٌ من المسائل المبحوثة، فقد اوضحنا ان حسن الفعل لا يكفي لنيل الثواب الاخروي، وانّما يلزم توفر حسن الفاعل ايضاً، فحسن الفعل بمثابة البدن، وحسن الفاعل بمنزلة الروح والحياة، وبيّنا ان الايمان بالله ويوم البعث شرط اساسيّ ومن الضروري توفره في حسن الفاعل، وهذا الاشتراط ليس اعتباري بل ذاتي وتكويني كاشتراط طريقٍ معينٍ لهدف معين.

وهنا من الضروري الاشارة إلى مسألة أُخرى وهي انّه ربَّ قائل يقول: ان قصد التقرب إلى الله في العمل ليس ضرورياً بالنسبة لحسن الفاعل، فمن عمل خيراً بدافعٍ من ضميره وبسبب العطف والرحمة التي تستولي على قلبه فان ذلك يكفي لانّ يتوفر حسن الفاعل في عمله، وبعبارة أُخرى، ان الدافع الإنساني كافٍ لتوفر حسن الفاعل، فمجرد ان يتجرّد المرء من حب الذات يكون العمل قد تزيّن بحسن الفاعل سواء كان الدافع الهياً أم انسانياً...

هذه المسألة جديرة بالتأمل، فمع اننا لا نتفق مع الكلام الآنف الذكو ـ وهو انتفاء الفارق في كون الدافع الهياً أو انسانياً ـ ولا نستطيع الآن الخوض في هذا

البحث العميق، الا ان العمل الرامي إلى الاحسان وخدمة الخلق ومن أجل الإنسانية لا يتساوى مع العمل الحاصل بدافع «حب الذات»، وبطبيعة الحال فان الله لا يترك أصحاب مثل هذه الاعمال دون أجر.

▣ آثار اخلاص النيّة:

هناك حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله يرويه الشيعة والسنة ويعد من المسلّمات، يقول صلّى الله عليه وآله:

«من اخلص لله اربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

أي لا يتحكم بوجوده لمدة اربعين يوماً أيّ دافع غير رضا الله تعالى، فهو يتحدث ويصمت، وينظر ويغض النظر من اجل رضا الله حتى ان أكله ونومه ويقظته تكون من اجل بلوغ رضا الله تعالى، فهو قد نظم حياته واصلح نفسه بالشكل الذي لم يعد يعمل لاي شيء سوى الله، أي انّه يصبح كابراهيم خليل الرحمن اذ يقول: **﴿قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين﴾**[2].

نعم، يشير النبي صلّى الله عليه وآله إلى ان من أفلح في التخلص من أهوائه تماماً لمدة أربعين يوماً ويوقف عمله خلالها لله وحده ولا يحيا الّا من أجله فان ينابيع المعرفة والحكمة تجري من قلبه على لسانه[3].

ويقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله:

«لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات»[4].

---

(١) سفينة البحار مادة خلص.

(٢) سورة الانعام: ١٦٢.

(٣) الإنسان الكامل: ١٧٨.

(٤) المحجة البيضاء: ٢: ١٢٥.

القراءة في الصلاة

في الفقه الشيعي يجب في الصلاة قراءة سورة كاملة بعد سورة الفاتحة، فيما لا يرى أهل السنة ذلك، فهم يرون الكفاية في قراءة جزء من سورة أو حتى آية صغيرة واحدة، ولعلكم سمعتم أئمة الجماعات في المسجد الحرام أو المسجد النبوي يبدأون القراءة من وسط السورة فيقرأون سبعاً أو ثمان آيات ويكتفون بذلك، الآن الفقه الشيعي يوجب قراءة سورة كاملة بعد الفاتحة، وبناءً على ذلك فان فقهاء الشيعة يترددون في قراءة سورة الضحى أو الانشراح كلاً على انفراد لاحتمال كونهما سورة واحدة، واذا ما قرئت احداهما فمثلها مثل السورة الناقصة، وهكذا الحال بالنسبة لسورتي الفيل وقريش.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فانها سورة الحسين بن علي عليه السلام، من قرأها كان مع الحسين بن علي عليه السلام يوم القيامة في درجته من الجنة، وهي السورة التي فيها **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلني جنتي﴾**[1].

◘ ضرورة تعلّم اللغة العربية:

سبق وان تكلمت حول، فضيل بن عياض، وعلى اثر ذلك وصلتني رسالة

---

(١) سورة الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

من إحدى السيدات تقول فيها: حضرت مجلسك مرة واحدة وذلك في إحدى الليالي وقد تأثرت بما ورد فيه بشدة فقررت الحضور ثانية، وقد ورد في حديثكم ان فضيل بن عياض سمع آية من القرآن فانقلب أمره، وتحدثتم عن الصلاة وحضور القلب، فماذا اصنع يا ترى وانا لا أفهم شيئاً من القرآن؟ وحيث لا افهم معنى الصلاة، فايّ معنىً يمثله حضور القلب بالنسبة لي؟

كأن هذه السيدة كتبت الرسالة ولسان حالها يقول: لقد دخلنا روضة الاطفال وبعدها الابتدائية ثم الثانوية واخيراً تجاوزناً مرحلة الجامعة وتعلمنا كلّ شيء الّا القرآن، فعليكم اذن ان تمهدوا السبيل كي نتعلم العربية ويطّلع الناس على معاني القرآن الكريم ويفهموا المغزى من الصلاة فيؤدوها بروحها على الاقل، ويقرأون القرآن ويفهمون ما يُتلى منه.

من أولى الواجبات ان يتعلم المسلمون اللغة العربية ليفهموا ما يرددون في صلاتهم ويفهموا قرآنهم، لكن ما العمل؟ فقد استحوذ حب الدنيا علينا ودفعنا الحرص ان نبعث باطفالنا وهم في السابعة من العمر كي يتعلموا اللغة الانجليزية لانها تفتح امامنا باب الغنى المادي، فنادراً ما نجد عائلة تخلو ممن يعرف الانجليزية، بيد اننا نفتقد الدافع لفتح صفٍ واحدٍ لتعليم اللغة العربية في سبيل الله ومن أجل صلاتنا وقرآننا.

يتذكر من كان يحضر مجالسي قبل ست أو سبع سنوات، ما أكدت عليه مراراًمن ضرورة اقامة صفوف تعلّم اللغة العربية، والآن اكرر ما كنت انادي به: ان تعليم اللغة العربية لابناء الشعب لا سيما الاطفال من أهم واجبات مؤسساتنا الدينية كالمساجد والحسينيات والهيئات والمسؤولين عن مجالس تفسير القرآن ...الخ، وذلك لاسباب كثيرة اعرض لجانب منها، هاهنا كي تمثل حافزاً لاخوتنا واعزائنا، فاللغة العربية هي لغة كتابنا وديننا واذا كانت اللغة الفارسية

تمثل اللغة الوطنية بالنسبة لنا نحن الايرانيين فان اللـغة العـربية تـمثل اللـغة الدينية ، والسبب الثاني هو اننا مسلمون ونعتز باسلامنا وقرآننا ، والقرآن يمتاز بما لم يتمتع به كتب سائر الاديان وهو ان لفظ القرآن جزء من اعجازه.

أن الامل يحدوني بان يجتهد اعزاؤنا في تعلم اللغة العربية كي يتسنىٰ لهم الانتفاع من الكتب العربية ويأخذوا ذلك على انّه واجب اسلامي في الدرجـة الأولى ، وواجب وطني ثانياً ، كي تسهل عليهم قـراءة القـرآن ونـهج البـلاغة والادعية كدعاء أبي حمزة الثمالي ويتلذذوا بقراءتها ويتمتعوا بصلاتهم ويتوفر لديهم حضور القلب ويفهموا ما يرددون في قنوتهم.



تفسير سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) مالك يوم الدين (٤) اياك نعبد واياك نستعين (٥) اهدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين انعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: منذ ان دُوِّنَ القرآن كانت سورة تبدأ بالبسملة ما خلا سورة التوبة ،الّا ان اختلافاً شديداً وقع بين الشيعة والسنة مع مرور الزمن في كون البسملة جزءً من كلّ سورة أم لا ، فبعض أهل السنة لا يراها جزءً من السورة وان افتتاح السورة بالبسملة مثله كمثل افتتاح أي عمل بها حيث انها ليست جزءً منه ، وان لم يطبقوا ذلك عملياً في كثير من الاحيان فهم لا يفتتحون سورة الفاتحة أو السورة يأتون بها بعد الفاتحة في الصلاة بالبسملة.

لقد عارض الشيعة هذا بشدّة متبعين في ذلك نهج الأئمة الأطهار عليهم السلام فورد عنهم عليهم السلام: قاتل الله من الغى اعظم آية في القرآن.

فلو رفعنا البسملة من اوائل السور لم يعد لها وجود في القرآن على الاطلاق عدا التي جاءت في سورة النمل وهي نقل لكلام ملكة سبأ نطقت به حينما قرأت كتاب سليمان عليه السلام: **﴿انّه من سليمان وانّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**[1].

---

(١) سورة النمل: ٣٠.

على أية حال، فالشيعة يسلّمون بكون البسملة جزءً من القرآن ولا يرونها غريبة عليه تضاف إلى سورة عند القراءة كما تضاف عند الشروع بأي[1].

◙ شروع الاعمال بـ«اسم الله» :

الكل يعلم ان الآية محل البحث متركبة كلها من جار ومجرور وهي ليست جملة تامة، وقد حذف متعلق الجار والمجرور، فيما اختلفت آراء المفسرين حول هذا المتعلق المحذوف، فمنه من يقول «استعين» وآخر يقول «ابتدىء» وثالث يقول «اسم» ويبدو ان الاحتمال الاخير هو الاقوى من بينها.

ثمة دوافع وغايات مختلفة تقف وراء التسمية، فهنالك من يطلق على

---

(١) الشيعة متفقون على المسألة اعلاه، الآن اهل السنة مختلفون فيما بينهم حولها، فمنهم من يتفق مع الشيعة ومنهم من يخالفهم، وآخرون يقولون بالتجزئة.

فابن عباس وابن المبارك وعاصم والكسائي وابن عمر وابن الزبير وابو هريرة وعطاء وطاووس، وكذا الفخر الرازي في تفسيره الكبير وجلال الدين السيوطي في الاتقان ممن يدّعون تواتر الروايات في ذلك يؤيدون التجزئة.

ويقول البعض ومنهم مالك وأبو عمرو ويعقوب: انها ليست جزءً من أي سورة وهي إنّما نزلت لتبتدىء بها السور تيمناً وللتفريق بينها.

الا ان بعض اتباع الشافعي وحمزة يقولون بالتجزئة أي أنها جزء من سورة الفاتحة فقط، وقد نسب بعضهم القول الاول إلى احمد بن حنبل (تفسير ابن كثير ١: ١٦) فيما نسب البعض الآخر القول الثاني له (تفسير الآلوسي: ٣٥/١٠).

أما فيما يخص قراءتها في الصلاة فرأي فقهاء العامة كما يلي:

١ ـ الحنفية قالوا يسمّي الإمام والمنفرد سراً. ٢ ـ المالكية قالوا يكره الاتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة. ٣ ـ الحنابلة قالوا التسمية سنّة وليست آية من الفاتحة(نقلاً عن كتاب الفقه على المذاهب الاربعة، مع الاختصار)، الّا ان الشيعة وتمسكا منهم بالروايات الواردةعن أهل البيت عليهم السلام وسيرة المسلمين الاوائل فقد افتوا بكونها جزءً من السورة ووجوب الجهر بها في الصلاة وبوسعكم الرجوع إلى الروايات الواردة في كتب فروع الكافي باب قراءة القرآن ص٨٦، والاستبصار باب الجهر بالبسملة: ٣١١/١، والتهذيب باب كيفية الصلاة وصفتها ١٥٢، ووسائل الشيعة باب ان البسملة آية من الفاتحة ٣٥٢/١.

مؤسسة اسم شخص ما راجياً بلوغ هدف مادي، أومن الناس من يطلق على الوليد اسم شخصٍ محبوب قد توفي سابقاً ـ وهذا متعارف عليه كثيراً ـ قاصداً من ذلك احياء اسم ذلك الشخص وتخليده.

بيد ان الإنسان أُمر ان يزين أعماله باسم الله تعالى أيّاً كانت الدوافع كي يضفي عليها صبغة القداسة والعبودية والتبرك باسم الله تعالى، فالإنسان بما منحه الله من فطرة، وايمانه بأن الحق جلّ وعلا هو القدوس وهو مصدر الخيرات، فانه عندما يزين عمله باسم الله فذلك يعني ان هذا العمل يحظى بالقداسة والشرف والكرامة في ظل هذا الاسم.

وبما ان الابتداء باسم ما يعني الاقرار بقدسية ونزاهة صاحب الاسم من العيوب والاعتراف به مصدراً للكمالات، ومن يفعل ذلك انّما يريد اضفاء البركة على عمله من خلال الانتساب إلى ذلك الاسم، من هنا لا ينبغي التسمية باسم ايٍّ كان حين الشروع بايّ عمل حتى لو كان اسم النبي صلّى الله عليه وآله وهذا مغزى ما ورد من أمر بتسبيح اسم الله في مطلع سورة الاعلى.

وتكرر التعبير بـ«يسبح الله» أو «سبح الله» أو «سبحان الله» في القرآن بيد ان التسبيح باسم الله ورد مرّة واحدة فقط وذلك في سورة الاعلى حيث يقول تعالى: «سبح اسم ربك الاعلى»، ويبدو ان افضل رأي جاء بهذا الشأن هو رأي صاحب تفسير الميزان اذ يقول:

هو أمر بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسة وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند إلى غيره ما يجب ان يسند اليه كالخلق والتدبير والرزق.

راج مؤخراً بين طائفة ممن يدّعون مقارعة الشرك فعلٌ هو في ذاته مظهر من مظاهر الشرك، فبدلاً من الشروع في نشاطاتهم وتسميتها باسم الله فانّهم

يسمونها باسم الشعب! فاذا كان الاتيان باسم النبي صلّى الله عليه وآله إلى جانب اسم الله تعالى يعد شركاً، فالابتداء باسم الشعب هو اختلاق ند لله، والحال ان القرآن الكريم يأمرنا ان نسبح اسم الله وان تنطلق أعمال الإنسان باسم الله لا بأسم غيره، ومن خلال ذلك تنال أعمالنا القداسة وتحظى بالبركة في ظله.

◘ الله :

وهو أحد أسماء الله الحسنى، في بعض الأحيان تكون التسميات المختارة للأشخاص أو الأشياء عبارة عن علامة له، فيما تكون وصفاً في البعض الآخر، وفي الأولى بالرغم من أن الاسماء لها معانٍ الّا ان الاهتمام لا ينصب على المعاني بل تكون التسمية من أجل تحديد الهوية وتشخيصها، من هنا لا تتعدى التسمية كونها علامة لا غير، ناهيك عن عدم مطابقة الاسم في هذه الموارد لمواصفات المسمّى بل ربما يناقضها كما هو الحال في تسمية العبيد باسم كانور أما في الثانية فالتسمية تعبر عن شأن من شؤون المسمى وصفة من صفاته.

وليس هنالك اسم من اسماء الله تعالى يحمل صبغة العلامة وانّما جميع اسمائه تفصح عن حقيقة من حقائق الذات الالهية المقدسة، وقد ورد في القرآن ما يناهز المئة من اسماء الله تعالى تمثل في حقيقتها مئة صفة من صفاته، منها ما يُلاحظ في هذه السورة من أسماء: الله، الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين، الّا ان ايّاً منها لا يتمتع بالشمولية التي حازها هذا الاسم «الله» لان كلّاً منها يجسد واحداً من كمالاته جل وعلا غير ان هذا الاسم يصور لنا الذات الجامعة لكل الصفات الكمالية.

و«الله» في الأصل «الاله» وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وهنالك

عدة آراء حول الاصل اللغوي لكلمة «الله» فرايٌ يقول انها جاءت من «اَلِه» وآخر يقول انها مأخوذة من «وَلِه» و«إله» على وزن فعال وهو من المفعولية كما في كتاب أي مكتوب فان اشتقت من «اَلِه» فانها تعني (عبد) وهذا يفيد ان الله تعني الذات الجديرة بالعبادة والكاملة من جميع الجوانب، حيث ان المخلوق من قبل غيره أو الناقص لا يستحق العبادة، اذن يصح ما قيل ان «الاله» تعني الذات التي يجب ان تعبد، وهذه الكلمة تنطوي على معاني الذات الجامعة لكافة الصفات الكمالية والمنزهة عن الصفات السلبية والعيوب.

واذا كانت مشتقة من «وَلِه» فان الوله يعني الحيرة والواله تعني الحيران وهي تعني العاشق، من هنا قيل ان العقول تصاب بالذهول ازاء الذات الالهية المقدسة أو انّها تنجذب اليها وتعشقها وتلوذ بها، ويُعدّ سيبويه ـ وهو من أئمة علماء النحو في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ومن النوابغ في هذا العلم، ومصنفه «الكتاب» في مجال النحو يعد منافساً لكتاب «المنطق» لارسطو وكتاب «محيطي» في علم الهيئة لبطليموس. وكلامه في الادب العربي يعد سنداً ـ من انصار الرأي القائل ان اصل كلمة «الله» هو «وَلِه» وتعني الذهول امام العظم أوالعشق.

وفي إحدى مقاطعه يذكّر الشاعر مولوي بحيرة الإنسان اذا شعر بألمٍ ما، وسيطرة حالة اللاشعور عليه فيتجه نحو جهة غير محددة يلجأ اليها وذلك هو الله، والإنسان ليس هوالوحيد الذي يلجأ اليه تعالى عندالحاجة، بل الاسماك في قعر البحار وبين الامواج، والطيور في كبد السماء، والامواج المتلاطمة في البحر كلها تلجأ اليه.

وثمة احتمال قويّ يقول ان لكلمتي «اله» و«وله» اصل لغوي واحد، أي أنها كانت في البداية «وله» ثم استعملت بصيغة «اله» ولما درج استعمالها بهذه

الصيغة اكتسب صفة العبادة، بناء على ذلك فان معنى الله يكون: تلك الذات التي ذُهل الناس جميعهم ولهاً ازاءها وهي الحقيقة الوحيدة التي تستحق العبادة.

وبوسعنا القول بعدم وجود ما يرادف كلمة «الله» ويحل محلها في اللغة الفارسية. وليس هنالك ما يفيد معناها تماماً، فان استبدلناها بكلمة خدا فهي لا تؤدي المعنى المطلوب فهي مخففة «خودآي» وهي تفيد ما يعبر عنه الفلاسفة «واجب الوجود» أو انها اقرب ما تكون إلى «غني» الواردة في القرآن منها إلى الله، واذا استخدمت كلمة «خداوند» فانها لن تكون كافية لأنّها تعني «صاحب»، ورغم ان «خداوند» تستخدم لترجمة كلمة «الله» الّا انها لا ترادفها، ف«خداوند» تفيد شأناً من شؤون الله تعالى.



◙ الرحمن الرحيم:

ولا يمكننا العثور أيضاً في اللغة الفارسية على ما يعد ترجمة حرفية لهاتين الكلمتين، والترجمة المتوفرة حالياً لا تفي بالمعنى الصحيح، اذ ان كلمة «بخشنده» تعني الجواد، و «مهربان» تعني الرؤوف وكلاهما من صفات الله المذكورة في القرآن الكريم، والجواد من يعطي ما لديه دون مقابل وان الرحمن والرحيم مشتقتان من الرحمة، وفي الرحمة ثمّة معنىً اضافي هو: في الحالات التي يكون فيها المخلوق محتاجاً ومستحقاً ويمد يد الاستعطاف بلسان حاله، أي انّه يستحق الترحم وان يغاث بشيء ما، فالاستجابة هنا تسمى رحمة، غاية الأمر ان رحمة الإنسان تشمل مستحقها متى ما تأثر ورقّ قلبه لمسكنته، غير ان الباري تعالى منزه عن هذه الافعال.

فعندما نقول: الرحمن الرحيم يتجسد في اذهاننا معنيان، أحدهما: الحاجة المبرمة والشديدة لجميع المخلوقات وكأنها جميعاً تمد يد العوز إلى

مقام الغني المطلق وتلتمس منه الرحمة، والآخرة: انّه تعالى قد أفاض عليهم برحمته اللامتناهية وقضى حوائجهم جميعاً.

وحينما رأى المتأخرون من المترجمين عدم وجود كلمات تفي بالمعنى المنشود لبسملة اكتفوا بترجمتها على النحو التالي: «به نام الله رحمن ورحيم».

ما الفرق بين الرحمن والرحيم؟ لابد أولاً من بيان ان المفردات العربية التي تأتي على وزن فعلان تفيد الكثرة مثل عطشان، وما كان منها على وزن فعيل وهذا ما يُطلق عليه الصفة المشبهة بالفعل فانها تفيد الثبات والدوام.

فالرحمن. على وزن فعلان ـ تدل على الكثرة والسعة وان رحمة الله تعالى وسعت كلّ شيء وعمّت جميع الآفاق، وبالأساس فان وجود الشيء بحد ذاته هو رحمة لأن الوجود هو الرحمة بعينها، كما ورد في الآية ١٥٦ من سورة الاعراف: ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ وفي دعاء كميل: «**وبرحمتك التي وسعت كلّ شيء**».

ولا استثناء في هذا الصنف من الرحمة، فهي لا تختص طائفة من الناس دون غيرها، أو أنها تشمل المؤمنين فقط، بل ان المعمورة بأكملها مشمولة برحمة الله، أو بتعبير آخر كلّ ما في الكون هو عبارة عن رحمة الله.

الدرس الذي بوسعنا ان نستلهمه من البسملة هو ان ما يصل الكون من الله لا يكون على وجهين: خير وشر، بل كلّه خيرٌ وهذه الرحمة تشمل الجماد والنبات والحيوان، والإنسان على اختلاف مشاربه لان فاتحة الوجود مقرونة برحمة الله.

اما الرحيم وعلى وزن فعيل ـ فانها تدل على الرحمة الدائمة واللامتناهية، وتقدم القول ان الرحمن تعني الرحمة الواسعة والشاملة لجميع المخلوقات، وهناك مخلوقات في هذا العالم تفنى وترحل عنه إلى عالم الخلود وحيث ان

الرحيم تفيد نوعاً من الرحمة الخالدة فانها تختص باولئك العباد الذين اجهدوا أنفسهم لسلوك الطريق نحو الرحمة الالهية الخاصة عن طريق العمل الصالح والايمان.

اذن، لله رحمتان: عامة وخاصة، وبرحمته العامة خلق جميع الكائنات ومنها الإنسان وهو الوحيد من بينها يتميز بالتكليف ويمسك بزمام مصيره بيده، فان ادى ما عليه من مسؤوليات وواجبات سيحظى حينها بالرحمة الالهية الخاصة. فالرحمن اشارة إلى تلك الرحمة الواسعة التي بسطت اجنحتها على الجميع دون تمييز فشملت المؤمن والكافر وحتى المخلوقات الأُخرى من جمادات ونباتات وحيوانات، والرحيم اشارة إلى الرحمة الخاصة التي تختص بالمطيعين والصالحين[1].

◙ الحمد لله:

حريّ بنا القول هنا ان اللغة الفارسية تخلو من مفردة تترجم كلمة «الحمد»، وهنالك كلمتان مقاربتان لها في المعنى يوجد ما يقابلهما في الفارسية وهما «المدح» وتقابلها «ستايش» «شكر» وترجمتها «سپاس» الا ان أياً منهما على انفراد لا تفيد معنى الحمد.

كلمة المدح مقاربة للحمد وقد احتمل البعض انهما كلمة واحدة على وجهين حيث يكثر نظير ذلك في اللغة العربية كما في خلص ولخص، وأيس ويئس، فالحروف في كلا الموردين متماثلة لكنها متغيرة المواقع.

والمدح من مزايا الإنسان، أي ان لديه الادراك والشعور بحيث تتبلور

---

(١) في الروايات جرى بيان الفارق بين الرحمن والرحيم، فعن الصادق عليه السلام:
«والله اله كلّ شيء، الرحمن لجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة» (الكافي - توحيد الصدوق - تفسير العياشي).

لديه ردة الفعل ازاء ما يصادفه من صور الكمال والجلال والجمال والبهاء فينعكس ذلك بصورة مدح وثناء، وهذا الاحساس لا يتوفر في الحيوان فهو لا يدرك الجمال والجلال والعظمة وليست لديه القدرة على مدح هذه الاوصاف.

في بعض الاحيان يتجاوز الإنسان حدود المدح فتتحول فيه الحالة إلى ما يطلق عليه التملق وهذه تُعد من رذائل الاخلاق لانها تدفع به إلى ان يمدح ما لا حقيقة له في بعض الاحيان، ومن القبيح ان يهدر المرء ما وهبه الله من قابلية لمدح صور الكمال والعظمة وآيات الجمال الحقيقي ويفرط بها بدافع الطمع فيمدح مخلوقاً لا يستحق المدح، فهذه القابلية انّما وجدت كي يُشبع الإنسان شعوره الرفيع في مدح وتكريم الكمال، لا ان يسخرها لاشباع طمعه وهذا ضرب من الذلّة.

فالمدح الواقعي لا يتدخل فيه الطمع أبداً، بل يكون نابعاً من الفطرة السليمة وطبيعة الإنسان، فعندما تقع عين المرء على أثر فني جميل كالقرآن الذي كتبه «بايسنقر» ينبهر بجماله فيثني عليه بلا ارادة منه، ولو سُئل عن الدافع وراء هذا المدح وما اذا كان يحصل على مقابل ازاءه فانه يجيب: وهل يلزم ان احصل على مقابل؟ فأنا إنسان وبطبيعة الحال حينما يواجه الإنسان صورة من صور العظمة والجلال والجمال والكمال فانه يعظمها ويهتم بها فيظهر ذلك بصيغة المدح، هذا هو معنى المدح وهي لوحدها لا تفيد الحمد.

وهنالك شعور طيب آخر يعد من خصال الإنسان وهو «الشكر» وهو يحصل عندما يصل برٌّ من إنسان إلى آخر حينها تستدعي انسانية الموصول ان يبادر إلى شكر الواصل، فعلى سبيل الفرض، لو ان سائقاً اراد العبور بسيارته وصادفته سيارة أُخرى كان لسائقها حق العبور فان توقف الاخير وسمح للاول بالعبور يترتب عليه وبمقتضى فطرته ان يرد عليه بالشكر، وهذه الميزة لا تتوفر

في الحيوان بل انها من خصال الإنسان فقط ، والسؤال الذي يطرحه الباري تعالى في الآية : ﴿هل جزاء الاحسان إلّا الاحسان﴾ انّما يخاطب به فطرة الإنسان السليمة ، ووجدانه النزيه هو الذي يتكفل الاجابة على هذا التساؤل .

وما قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه ينطوي على مفهوم عظيم وصائب ، فمعرفة الإنسان لنفسه معرفة كاملة انّما هو السبيل الذي يفضي إلى معرفة الله ، وأحد السبل التي تؤدي إلى معرفة الإنسان نفسه هو معرفة العواطف الإنسانية التي يعتبر الشعور بالشكر أحدها وهو ما يتولى أمره الوجدان ولا علاقة له بالتعليم وقواعد التربية الاجتماعية ولا يعدمن الآداب والتقاليد المتعارف عليها ، ولا يختص بمنطقة دون غيرها ، فالآداب والتقاليد تتغير بتغير الزمان والمكان إلى حدٍ ربما يصل إلى التناقض ، كما هو الحال في رفع غطاء الراس واعادته إلى مكانه فهو تعبير عن الاحترام الا ان ذلك يعد تقليداً في مجتمع ما دون غيره ، ولم نر في أي مجتمع من المجتمعات ان يقابل الاحسان بالاساءة على انّه من تقاليد ذلك المجتمع!

فالحمد لا يعني المدح ولا الشكر ، فما هو يا ترى ؟

بوسعنا القول : لو جمعنا الاثنين معاً لاعطيا معنى الحمد ، أي المقام الذي يستحق المدح لعظمته وجلاله وحسن كماله وما يتمتع به من جمال وبهاء ، ويستحق الشكر ايضاً لما تفضل به من احسان وبرٍّ ، حينذاك تؤدي كلمته الحمد دورها .

▣ الحمد مختصٌ بالله :

ليس من المستبعد ان يكون لمفهوم آخر وفعلٌ في معنى الحمد ، وهو «العبودية» ، وعليه يكون هناك ثلاثة عناصر داخلة في معنى الحمد وهي المدح والشكر والعبودية ، وبعبارة أُخرى ، أن الحمد عبارة عن المدح المبطن بالشكر

والعبودية، ولعل ذلك متأتٍ وعلى ضوء الآية من ان الحمد منحصر لله تعالى وليس هنالك محمود سواه لهذا فإن الحمد يستبطن العبودية أيضاً.

يجمع المفسرون على ان معنى هذه الآية هو اختصاص الحمد بجميع انواعه لله تعالى، واذا كان الحمد لا يعني الشكر المقترن بالخضوع والركون التعبدي، ولا يستبطن سوى الشكر فلِمَ لا يؤدي المرء الشكر للوسائط البشرية التي منحها الله له؟

فالحري بالإنسان ان يؤدي الشكر والتقدير للذين يصله الخير عن طريقهم، وقد ورد في الأثر الصحيح «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»، ولا بد من شكر الوالدين، المعلم، هؤلاء الذين يشملون الإنسان بالعطف والاحسان باستمرار، فمن غير الممكن ابداً التذرع بشكر الله واهمال الآخرين والتغاضي عنهم وعدم تقديم الشكر لهم على ما انعموا به، ولكن ينبغي الالتفات إلى ان شكر الله وشكر العباد لا يكون كلٌّ على حدة، بل في الوقت الذي يجري تقديم الشكر إلى المخلوق لا بد من التوجه إلى عدم استقلالية هذا المخلوق، فما يصل من ناحية المخلوق يستوجب شكر الله قبل كلّ شيء.

يتضح من معرفتنا بان الحمد منحصرٌ لله تعالى ان معناه لا ينحصر في الشكر بل انّه يستبطن المدح والعبودية أيضاً، ونظراً إلى ان الله جل وعلا هو الذات المتفردة المستحقة للعبادة وهو الرحمن الرحيم فاننا نحمده ونشكره ونعبده.

خلاصة القول: ان الحمد شعور ذاتي طاهر لدى الإنسان وهو يستمد وجوده من أعماق روحه بحيث يمدح مظاهر الجمال والجلال ويقف خاضعاً امام آيات العظمة، والقول بأن سورة الفاتحة تستلزم معرفة تامة بالذات الالهية المقدمة، يعني عدم امكانية قراءة سورة الفاتحة قراءة صحيحة وحقيقية بعيداً

عن لقلقة اللسان ما لم تتوفر المعرفة التامة بالله جل وعلا.

عندما تصادفون شخصاً يتمتع بمزايا روحية رفيعة وسامية وحائزاً على خصالٍ وفضائل طيبة، وقد دفعتكم الحاجة اليه ولم يتوان عن تقديم العون لكم وقضاء حاجتكم وقد شملكم باحسانه وبرّه، فاذا جرى الحديث عن هذا الشخص في محفل ما تبادرون إلى الافاضة في مدحه والثناء عليه من صميم القلب! فهذا المدح ينبع من أعماق ارواحكم وتتلذذون به كثيراً وتركن نفوسكم اليه!

والإنسان له مثل هذه الحالة في الصلاة، ونحن نعتقد وقد كررنا مراراً ـ ان العبادة تقتضي توفر المعرفة التامة بالذات الالهية المقدسة، والعبادة لا تتسامى ما لم تحصل المعرفة التامة بالله تعالى.

والامر الملفت للنظر هنا هو مجيء اربع صفات أُخرى بعد الحمد وهي: «رب العالمين، الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين، وكلٌّ منها تعتبر نافذة نحو معرفة الحق تعالى، وهذا ما سنوضحه لاحقاً.

الّا انّه وقبل أن ترد الصفات المذكورة حصر الحمد لله تعالى ـ تلك الذات المستحقة للعبادة والمدح ـ وهذا يفيد اسمى المراتب.

أي الذات المستحقة للحمد والتي يجب ان امدحها بغض النظر عن احسانها اليّ وتفضلها عليّ، وقبل ان انظر إلى مبدء علمي ومنتهاه وخلقي وخلق هذه الارض الشاسعة، وبطبيعة الحال فان هذا الادعاء لا يتيسر لايّ كان الّا قول علي بن أبي طالب عليه السلام:

«الهي ما عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك بل وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك».

فعبادتي لك تأتي لانك خلقتني واحسنت اليَّ، لا لانك تدخل من عبدك

الجنة يوم القيامة، بل لانك موجود وأنت جدير بالعبادة[1].

◘ رب العالمين:

والرب من ربب لا من ربى، وقد تترجم على انها تفي صاحب الاختيار كقول عبدالمطلب «انا رب الابل وللبيت رب يحميها».

وفي كلمة «رب» يكمن مفهوم الالوهية والتصرف، وكذلك المكتمل والمربّي، فالله تعالى هو المتصمرف في هذا الكون وهو الذي يوصل العالم إلى الكمال.

وقد خلق الله عوالم تتمتع الكائنات فيها ـ ولاسباب خاصة منذ نشأتها بمقدار من الكمال المتيسر لها ،أي انها تفتقد للطاقة الكامنة وانّما كلّ ما فيها حالة فعلية، وبعبارة أُخرى فان بدءها وعودها سيّان، أي انها مربوبة لله تعالى منذ ان خلقها وابدعها.

اما العالم الذي نعيش فيه، أي عالم الدنيا أو المادة فهو عالم التدرج ويقوم نظامه على بدء الكائنات من نقص وسيرها نحو التكامل، فبدؤها وعودها متباينان، وهي مخلوقات الله من ناحية ومربوبة له من ناحية أُخرى.

ان عالم الطبيعة يختلف عن العوالم الأُخرى مع انّه عالم بذاته وذلك باعتبار تنوعه ولكل نوع فيه عالم، فهناك عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان وعالم الافلاك، وهذه العوالم دائبة الحركة من النقص إلى التكامل اذ لم يُخلق أيّ منها كاملاً منذ البداية، والله هو الذي يوصل كائنات هذه العوالم إلى الكمال النهائي فهو «رب العالمين».

وحسبما يستفاد من القرآن فان هذا العالم هو عالم النمو، والناس فيه

---

(١) قُسمت العبادة في نهج البلاغة على ثلاثة انحاء: قوم عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وقوم عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار.

فئات مختلفة منهم الصالحين ومنهم الطالحين، والكل في حالة نمو، وكأن العالم بيئة زراعية خصبة تنمو فيه البذور على انواعها، وفي هذا العالم لا يقتصر التكامل على الصالحين، وانّما يطوي الفاسقون ـ أي الذين يزرعون بذوراً فاسدة ـ مراحلهم أيضاً في نظام هذا العالم.

قال تعالى في سورة الاسراء:

﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[1].

خلاصة مضمون هذه الآية هي اننا نمدّ كلّ من طلب الدنيا وزرع من أجلها حتى تثمر البذرة التي زرعها ولكن بالمقدار الذي نريد، ولمن شئنا، أي ان ذلك ليس سنّة قطعية لا يعتريها الاستثناء وان من الحتم ان يتحقق للإنسان ما ينبغي من نتيجة عاجلة لعمله.

ان السر في عدم تحقق النتيجة المؤكدة لبذرة طلب الدنيا يكمن في ان الدنيا مشحونة بالتزاحم والآفات والعراقيل، لا ان هذا العالم لم يخلق لنمو هذه البذور.

ثم تذكر الآية: ان جهنم مصير كلّ من يحصر هدفه بالدنيا ويحدده بها ويخرج عند المسار اللائق بالانسانية.

وأما من لم يحدد هدفه بالدنيا، وزرع لآخرته وسعى في هذا السبيل فان عمله هذا لا يضيع أبداً.

والخلاصة هي أن نظام هذا العالم شيّد على أساس ملائمته لنمو كلّ بذرة تزرع فيه، غاية الأمر ثمة بذور تعطي ثمارها كاملة وهي البذور التي تكون على

---

(١) سورة الاسراء: ١٨ ـ ٢٠.

الصراط المستقيم . في حين هناك بذور وان توفرت امكانية نموها الّا انـها لا تؤتي ثمارها . لهذا فالذي يقوم باعمال طالحة وتتحقق الخطط التي يرسمها لا يمكنه التبجح بأن أعماله لو كانت غير صالحة لما تحققت . فتحقق العمل لا يعني احقية نظريته . اذ ان نظام هذا العالم يقوم على «كلّاً نمد هؤلاء وهؤلاء» فكل بذرةٍ تزرع تنمو وقد تعطي ثمارها .

▣ الرحمن الرحيم :

تحدثنا سابقاً عن هذه العبارة . وهنا نضيف إلى ما سبق من كلام فنقول : ان وصف الله بهاتين الصفتين يتطلب معرفة تامة . لان الرحـمن تـعني رحـمته الوافرة . لا بالمقدار الذي نفهمه من كلمة وافرة بل ان عالم الكون كلّه منه وما يأتي منه عبارة عن رحمة وخير . والرحيم تعني دوام فيوضاته على العباد .

الصفة الأولى لها صلة بنظام الكون . والثانية بـالعالم الخـاص للـخلق . ولغرض وصف الله سبحانه بالصفة الأولى يستلزم توفر قدرٍ من العـرفان لدى العبد بحيث يرى العالم كله رحمة في رحمة . ويبعد عن نفسه فكرة الاثنينية فلا يصنف الظواهر إلى خير وشر وانّما يعتبر الوجود برمته خيراً ورحمةً لانه ناشىء منه تعالى وهذه المسألة مطروحة في العدل الالهي .

وحريٌّ بالعبد ان يطيل التأمل بهذه المسألة مع نفسه دائـماً حـيث ورد الحث عليها في الادعية . ومنها في الدعاء بعد التكبيرة الخامسة من التكبيرات المستحبة قبل الصلاة : «**لبّيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس اليك**» .

فالمصلي يقف موقف أولياء الله ويناجي ربه قائلاً : جئتك طائعاً طـالباً رضاك . وبتعبير أوضح : ها انا ذا بين يديك !

ان معرفة الله بصفة الرحمن تعني معرفة العالم باعتباره مـظهر للـحكمة الالهية البالغة ونظام الله الاتم . وعند الثناء عليه تعالى بهذه الصفة يجب ان تتوفر

لدى المرء رؤية يرى من خلالها نظام الكون على انّه نظام رحمة وخير وبركة، أما الشر والنقمة فهي امور نسبية لا حقيقة لها، ومن البديهي ان الفكر الساذج لا يمكنه الزعم بامتلاك مثل هذه الرؤية للعالم، كما انّه ليس باستطاعة الإنسان ايجاد هذه الرؤية في نفسه عن طريق القوة والتعبد.

ان القرآن حينما يدعونا إلى الثناء على الله بهذه الصفات يريد منا ان نعرفه ونعرف العالم بهذا النحو، وادراك الحقائق الشامخة انّما يتم بطريقة عقلانية واستدلالية صحيحة، وكلّ ذلك يستبطن دعوةً للتفكير بالامور الالهية وكذلك تأييداً بامكانية حصول مثل هذه المعارف.

وبالنسبة للصفة الثانية وهي «الرحيم» فلابد من القول ان معرفة الله بهذه الصفة تستدعي ان تتوفر لدى المرء معرفة تامة بمنزلته وموقعه بين الكائنات في هذا العالم.

والامتياز الذي يتفوق به الإنسان على سائر المخلوقات هو انّه يعتبر الابن البالغ في هذا الكون، فهو ليس ابناً لم يبلغ الحلم في هذه الاسرة وخاضع لقيمومة الابوين الالزامية، وانّما بلغ من الرشد في عقله درجة بحيث مُنح اختيار الطريق بنفسه، في حين ان الموجودات الأُخرى تخضع لقيمومة الزامية من قبل عوامل هذا العالم، والإنسان حرٌّ ومختار بسبب تكامله العقلي وما يتمتع به من قدرة اختيار أحد السبيلين.

﴿انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[1].

ان الإنسان امام مفترق طريقين في السبيل المستقيم والسبيل المنحرف، فان سلك الاول شمله نوع من الرحمة والرعاية الخاصة من قبل الله تعالى، وكأن العالم قد اسس بشكل بحيث يحظى كلّ من سار في سبيل الله بمدد الله

---

(١) سورة الدهر: ٣.

وهـدايـتـه ﴿والذيـن جـاهدوا فـينا لنـهدينهم سـبلنا﴾[1] فـينور قـلبه ويـمنحه القوةويسخّر له الاسباب والعل «ويرزقه من حيث لا يحتسب» وبالتالي يصل الى مرحلةٍ يشعر فيها انّه يتعال مع ربه مـباشرة، حـيث يـرى انّـه كـلما ازداد اخلاصاً في عمله كلما تضاعفت الرعاية الالهية التي تشمله حينها يصل العبد إلى مرحلة الرضا والتسليم.

▣ مالك يوم الدين:

قرأتم في الرسائل العملية ان هذه الآية يمكن قراءتـها عـلى وجـهين: ﴿مالك يوم الدين﴾ و﴿ملك يوم الديـن﴾ لنرى هل تؤدي هـاتان القـراءتـان إلى تصور معنيين مختلفين للآية؟

لكل من «ملك» و «مالك» معنىً مسـتقل فـي الاسـتعمالات اليـومية، فالاولى عبارة عن رابطة سياسية، والأُخرى رابطة اقتصادية، فالعلاقة المالكية بين الإنسان وأي شيء تقوم بنحو يستطيع الاستفادة منه، وعندما يقال ان فلاناً يمتلك منزلاً فهذا يعني ان الأمر المقرر حالياً يقضي بأنه يكون الاعتبار بـهذا الشكل، واذا قيل ان فلاناً ملك المنطقة الفلانية فهذا ليس الا اعتبار، ولذلك اذا تغير الاعتبار في كلا الحالتين فانه ينتهي مباشرة، أي بالامكان تولي اشخاص آخرين لمالكية ذلك البيت وملوكية تلك المنطقة بعد برهة من الزمن وتقام علاقة مع آخرين.

في مثل هذه الحالات تتشكل الملكية والمالكية بالاعتبار ويمتاز هذان المعنيان عن بعضهما البعض امتيازاً تاماً، أي أن الملك لا يقوم بـدور المـالك والعكس صحيح، ففي الأولى المدار هو المُلك وفي الثانية الملِك.

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

بيد ان هذه العلاقات تكون حقيقية في بعض الموارد، فلو قال قائل انني مالك لقواي البدنية فمعنى ذلك انّه صاحب حق ومختار في الاستفادة منها، أي أن في كيانه تكمن قوة يستطيع استخدامها متى شاء، وبامكانه عدم استخدامها ايضاً متى شاء، وهنا تلاحظون ان مَلِك ومالك لهما معنىً واحد من حيث المصداق، أي اننا مالكون لاعضائنا وجوارحنا ونسيطر عليها أيضاً، بسبب ان هذا أمر تكويني وليس اعتبارياً ومجازياً محضاً.

وتتضح وحدة الملك مع المالك بجلاء بالنسبة لله خالق الكون والذي له ارادة قاهرة على كلّ العالم وهي علاقة حقيقية بين المالك والمملوك، لذلك جاء في القرآن الكريم حول الملك يوم القيامة.

﴿لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار﴾[1].

والأكثر من ذلك ما جاء في الآية: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾[2].

في هذه الآية اعتُبر الملك والتصرف في الادارة بوصفه امراً مملوكاً، وهذا هو مفاد «لمن الملك اليوم» واللام تفيد الملك، ومعنى الآية هو كن المالك الجواب هو الله، فيتبين ان المُلك والمِلك لا ينفكان عن بعضهما، وكما يقال ليس لهما حيزين منفصلين.

هل ان الله هو مالكٌ وملك في الآخرة فقط دون الدنيا؟ كلا، وانّما هو المالك والملك الحقيقي للدنيا والآخرة، ولأن الناس تعوزهم النظرة الثاقبة في الدنيا فهم يصطنعون ملاكين وملوكاً وهميين ومجازيين فيرون انفسهم وغيرهم مالكين للأشياء وملوكاً عليها فيدّعي من له منزل ان مالك له، وعندما تتكشف امامه حقائق العالم ويلقي نظرة واقعية عليها سيرى ان كل التملكات كانت

---

(١) سورة المؤمن: ١٦.

(٢) سورة آل عمران: ٢٦.

مصطنعة وان الله تعالى هو المالك والملك الحقيقي للكون.

﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[1].

والرواية التالية تبين ذلك:

عن جابر عن ابي جعفر عليه السلام انّه قال: «الأمر يومئذ واليوم كلّه لله، يا جابر! اذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم الّا الله»[2].

◘ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين:

يظن الإنسان ان التوحيد هو واحدة من فروع الاسلام وان هناك آلاف الفروع الأُخرى إلى جانبها، الا انّه حينما يتمعن جيداً يجد ان الاسلام برمته عبارة عن توحيد، بمعنى ان جميع مكوناته سواء ما يتصل منها باصول العقائد أو ما يتعلق بالاخلاقيات والشؤون التربوية أو التعليمات اليومية انّما هي توحيد.

هنالك مصطلح في المنطق اسمه «التحليل والتركيب» وهاتان الكلمتان المستخدمان في الفكر مستنبطتان من العلوم الطبيعية، والمراد هو انّه مثلما يوجد تحليل وتركيب في عالم المادة، أي ان كلّ المركبات تتجزأ إلى عناصر أولية، واذا اعيد تركيب تلك العناصر يعود المركب من جديد، وهكذا الحال في مجال الافكار، حيث يقول الفلاسفة: ان جميع افكار البشر تعود إلى قاعدة عدم التناقض، واذا ما تم تحليلها وتفكيكها فانها تعود إلى هذه القاعدة البديهية.

وفي الاسلام ثمةقاعدة مشابهة تدعى التوحيد، أي انّه جميع الاسس الاسلامية لو حللناها فانها تعود إلى التوحيد، فالنبوة والمعاد وهما من الاصول العقائدية وكذلك الامامة لو تم تحليلها فانها توحيد بنحوآخر، واذا درسنا في

---

(١) سورة ق: ٢٢.

(٢) الميزان ٢: ٢٢٩.

التعليمات الاخلاقية أو الاحكام الاجتماعية الاسلامية فانها ستظهر بشكل التوحيد.

نكتفي بهذا القدر من البحث ونترك تفاصيله إلى فرصة أُخرى، وقد تم التطرق إلى هذا الموضوع في موارد عدة من تفسير الميزان.

▣ التوحيد النظري والتوحيد العملي:

هناك نوعان من التوحيد في الاسلام: نظري وعملي، والاول له صلة بعالم المعرفة والفكر، بمعنى معرفةالله بالوحدانية، اما الثاني فيعني بناء موحدةً وتوجيهها نحو الذات المقدسة، وبعبارة اخرى، التوحيد النظري يعني الايمان بوحدانية الله، والتوحيد العملي يعني صيرورة الإنسان موحداً.

واود التنويه إلى انّه ما جاء في سورة الفتح من أولها إلى هنا يتعلق بالنوع الأول، أي التوحيد النظري، ومن عبارة «اياك نعبد» وما يليها بيان للتوحيد العملي، ومن هنا يدرك المرء العظمة النادرة لهذه السورة القصيرة ويشاهد نموذجاً واضحاً لاعجاز القرآن الكريم فيها.

حقاً ان الإنسان ليعجز عن اخفاء دهشته بهذا الكلام الذي جرى على لسان رجل امّي عاش في بيئة جاهلية بعيدة عن العلم والثقافة، وهو كلام يثير تفكير اعظم الحكماء المتألهين من حيث عمقه وما يتمتع به من عذوبة وسلاسة بحيث لا يبعث تكراره الملل عند الإنسان ابداً.

ولتوضيح المطلب نقول: تضمنت الجمل والعبارات التي مرّت من أول السورة حتى مقطع «مالك يوم الدين» عدة مسائل معرفية بشأن الله سبحانه، فهو «الله» وهو«الرحمن» وهو «الرحيم» و«رب العالمين» و «مالك يوم الدين» بالاضافة إلى انّه «المحمود» على الاطلاق ويعود اليه كلّ حمد وثناء.

لقد انطوت هذه المفردات المعدودة على كلّ الالهيات وطرحت فيها اهم

الابحاث الالهية.

وقد استلهم علماء الاسلام وحكماؤه ان طرح هذه المسائل في القرآن الكريم تمثل دعوة إلى الغور في أعماق هذه الحقائق، والقرآن لا يريد منا ترويد هذه الكلمات بلقلقة لسان فحسب، بل يدعونا إلى ادراك حقائقها.

ان معرفة هو «الله» تعني انّه الذات الكامل والجدير بالعبادة واليه تتوجه جميع الكائنات بفطرتها، وبعبارة أُخرى المعرفة والاقرار بالكامل المطلق الذي لا سبيل للنقص والفناء والفقر اليه، ولهذا فانه كلّ شيء منه ويعود اليه.

ومعرفة انّه «الرحمن» ـ وكما ذكرنا آنفاً يتحتم على المرء ان يعمل على تدقيق فكره وتلطيفه كي يتسنى له معرفة الله بهذه الصفة ـ تعني أن يدرك ان الوجود بأجمعه هو مظهر رحمانية الذات الالهية المقدسة، فكل ما يصدر عنه ليس الّا خيراً ورحمة، وكلّ موجود من حيث انّه موجود ومن حيث انّه منتسب إلى الذات الحق، أي من حيث انّه عيني وحقيقي، ليس الّا خيراً ورحمة، أما الشر والنقمة فهي من الصفات العدمية والنسبية والاضافية للأشياء لا الصفات الوجودية.

ومعرفة انّه «الرحيم» فمن يدعو الله بهذه الصفة يزعم انّه وصل إلى هذه المرحلة من المعرفة حيث يشخّص ان نظام الخلق وصدور الأشياء هو مظهر الذات المقدسة، وكذلك نظام رجوع الأشياء إلى الحق تعالى هو نظام خير ورحمة ايضاً، أي أن الكائنات جاءت من الرحمة وتعود اليها.

وهذا يعني تقدم الرحمة وسبقها للغضب والنقمة، وبتعبير آخر:

لو أن النقمة والعذاب عُرف بصورة صحيحة فهو رحمة بلباس النقمة، وبعبارة أُخرى: ان الله تبارك وتعالى صفات جمال وصفات جلال، وصفات الجمال هي من قبيل العلم والقدرة والحياة والجود والرحمة، وصفات الجلال

هي من قبيل القدوسية والجبارية والانتقام وما شابهها .

فلا اثنينية لله تعالى في مرتبته الذاتية ، فيكون نصف ذاته رحمة وخيراً وجوداً وربوبية ، والنصف الآخر قدوسية وجبارية وانتقاماً ، كما انّه ليس جباراً ومنتقماً في نفس المرتبة التي هو فيها خير وجود ورحمة ، بل ثمة نوع قائم من التقدم والتأخر بين اسمائه وصفاته .

وقد قام أهل الحكمة والمعرفة بدراسات رائعة وعميقة جداً بهذا الصدد وهي من اثمن نتاجات الفكر البشري ، ولا يتيسر الوصول إلى صلب هذه الحقائق الّا لمن توفرت فيهم القريحة الزاخرة المقرونة بالتعمق والمتابعة التي لا تعرف الكلل .

نعم هنالك نوع من التقدم والتأخر بين اسماء الله وصفاته ، أي ان بعض الاسماء والصفات وليدة لبعضها الآخر ، وبشكل عام تتقدم الصفات الجمالية على نظيراتها الجلالية ، والاخيرة وليدة الأولى ، والذي تتقدم جباريته وانتقامه على غيرها من الصفات هو «يهو» الاله الذي اصطنعه اليهود ، وليس «الله» الاله الحقيقي للعالم الذي يدعونا اليه القرآن الكريم .

وهنا يمكن ان ندرك جيداً سبب اقترانه «بسم الله» في القرآن مع «الرحمن الرحيم» ولم تقترن مع «الجبار المنتقم» لان مظهر الكون في نظر القرآن هو مظهر الله الرحمن الرحيم ، والجبارية والانتقام انّما هما صورتان اخريان من الرحمانية والرحيمية .

ومن المعلوم بطبيعة الحال ان الرحمة الرحيمية ، أي الرحمة التي تشمل الكائنات عند الرجوع إلى الله تشمل بالدرجة الأولى أهل الايمان . أي اولئك الذين كلّ ما يصلهم هو رحمة ظاهره وباطنه ، رحمة في هيئة رحمة لا في هيئة نقمة ، رحمة مطلقة وليست نسبية .

ان المراد من القول بأن الفارق بين الرحمن والرحيم هو ان الرحمن صفة مختصة بالدنيا ، والرحيم صفة مختصة بالآخرة ، أو القول ان صفة الرحمن تشمل جميع الناس مؤمنهم وكافرهم . أما صفة الرحيم فتشمل المؤمنين فقط ، هو ما اوضحناه آنفاً .

الدنيا والآخرة من حيث انهما عالمان لا يختلفان عن بعضهما فيكون تحويل أحدهما من مادة وفقرة «الرحمن» والأُخرى من مادة وفقرة «الرحيم»، أويتم تأمين الرحمة المشتركة التي تشمل الكافر والمؤمن من مادة أو فقرة ، والرحمة الخاصة بالمؤمنين من مادة أو فقرة أُخرى .

ان عالم الوجود يخلو من هذه التقسيمات ، فتقسيم الوجود من حيث الرحمة هو ان للعالم «بدء» وعودة «العالم منه واليه ، ومعنى ان الله رحمن هو ان مبدء العالم وخلقه هو مظهر الرحمة ، ومعنى ان الله رحيم هو ان عودة العالم اليه هو مظهر الرحمة ايضاً ، وحتى جهنم والعذاب الالهي الذي هو مظهر الجبارية والانتقام الالهي هما وليدا رحيمية ايضاً ، وهنا ليس بوسعنا الافاضة في التوضيح اكثر من هذا .

وانّه «مالك يوم الدين» هنا تطرح معرفة أُخرى ، اذ يدّعي العبد ، انّه يعرف مصير الخلق ، أي انّه يعرف يوم الجزاء الذي فيه تتضح عدم اصالة الاسباب والوسائل وان الملك ومالك بالاصالة هو الله وحده .

كلّ ذلك والتفسيرات التي ذكرت سابقاً تقع في اطار التوحيد النظري أي التوحيد النابع من المعرفة وهذه المعرفة ضرورية للغاية ، ولا ينبغي القول ابداً ان هذه المرحلة هي مرحلة ذهنية لا ضرورة لها ، كلا ! فالمعرفة لها اصالة في الاسلام ولا يتقدم الإنسان من دونها .

ولكن هل ان هذه المرحلة كافية أي ان الإنسان يعدُّ موحداً اذا عرف وفهم فقط ؟

كلا! بل ان هذه المعرفة والفهم تمثل المقدمة، أي يتحتم عليه المعرفة والفهم كي يتوفر على التوحيد العملي.

وحينما نقول «اياك نعبد» فاننا نبدأ بالتوحيد العملي ومرحلة اظهار ايماننا بالوحدانية.

◘ أصل «العبادة» في اللغة:

عندما يكون شيء ما مطيعاً وذلولاً ولا يصدر منه أي عصيان وتمرد ومقاومة، يطلق على هذه الحالة في اللغة العربية «تعبداً».

كانت الطرق والشوارع سابقاً تختلف عما عليه الآن. ففي الوقت الحاضر تُشق الطرق وتُعبّد بواسطة مكائن انشاء الطرق ثم تستخدم للسير عليها، أما في السابق فقد كانت الطرق تُنشأ من خلال السير المتكرر ولهذا تحول الاحجار والاشواك في الايام الاولى دون التردد والمسير، الّا ان الاحجار الصغيرة تتهشم تدريجياً وتزول مقاومتها للعابرين نتيجة السير المستمر عليها فلا تسبب الاذى لاقدام الناس والحيوانات.

بعدما كانت عاصية وغير مستقرة، فالطريق الذي يصبح سالكاً يسمى طريقاً معبداً[1].

ان العبد والمعبّد هو المطيع والمسلِّم الذي لا يصدر عنه أي عصيان، وهذه الحالة ـ أي الطاعة والخضوع وعدم العصيان ـ يجب ان تتوفر لدى الإنسان في تعامله مع الله فقط، والعبودية لله تعني توفر هذه الحالة تجاه الحق تعالى واوامره، امّا التوحيد في العبادة فيعني ان لا تستحوذ عليه هذه الحالة امام أي موجود وأي أمر آخر، بل يتصف بالعصيان والتمرد ازاء ما سوى الله تعالى، اذن

---

(١) ويقال طريق معبد إلى مذلل بالوطىء (مفردات الراغب).

يتعين ان تتوفر لدى الإنسان حالتان متناقضتان: التسليم المطلق لله، والعصيان المطلق لما سواه، وهذا هو معنى «اياك نعبد».

ويجب الالتفات إلى ان طاعة من أمر الله بطاعتهم كالابوين والإمام والقادة الذين تتوفر فيهم الشروط، انّما هي طاعة لله في واقع الأمر، فنحن نطيع لان الله أمر بذلك، وكلّ ما يتصل بهذا هو عبادة لله، وكلّ ما يقع بموازاة الله، أي يسير طولياً عرضياً مع الله وليس طولياً فهو شرك.

◙ أنواع الشرك والتوحيد:

وردت في القرآن الكريم مصاديق مختلفة للشرك سنشير إلى بعضها وسيتضح اجمالاً معنى التوحيد العملي في القرآن.

أولاً: **﴿أرأيت من اتخذ الهه هواه﴾**[1].

في هذه أُعتبر من اطاع شهوته مشركاً، وعندما نقول «اياك نعبد» ونرفض عبادةً غير الله فاننا ندّعي هنا الخضوع لأمر الله لا الخضوع لميولنا واهوائنا وشهواتنا.

ثانياً: **﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله﴾**[2].

ونحن نعلم ان اليهود والنصارى لم يعبدوا علماءهم ومقدسيهم كما كان الوثنيون يعبدون أوثانهم، فلم يسجدوا لهم قط، بل كانوا متعبدين امامهم، أي كانوا مطيعين وخاضعين لهم بلا ترخيص من الله تعالى فكانوا في الحقيقة مطيعين لميولهم واهوائهم النفسية، وكلّ ما كان يصدر من احبارهم ورهبانهم فانه يواجه بالقبول منهم.

وهنا يقدم الباري تعالى ان الطاعة حقٌ منحصرٌ لله تعالى، ولا يطاع الا

---

(١) سورة الفرقان: ٤٣.

(٢) سورة التوبة: ٣١.

مَنْ أمر الله بطاعته، والاحبار والرهبان ممن لم يأمر الله بطاعتهم.

فحين نردد «اياك نعبد» فمعنى ذلك: اننا يا ربّ لا نعبد أية فئة تحت غطاء الروحانية والقداسة أو أي اسم آخر، ولا نطيع طاعة عمياء، ولا نطيع الّا من أمرت بطاعته، فاننا اذ نطيع رسول الله صلّى الله عليه وآله لانك اوجبت اوامره بصريح القول، واذا اطعنا الائمة الاطهار عليهم السلام بوصفهم اولي الأمر فذلك ما امرت به، ونطيع المجتهدين الذين تتوفر فيهم الشروط ـ أي العلماء المتقين العدول الواعين ـ بحكم ان النبي والائمة الاطهار الذين اوجبت طاعتهم قد امرونا بذلك.

ثالثاً: ﴿قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد الّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله﴾[1].

وهذه هي الآية التي تضمنتها الكتب التي بعثها رسول الله صلّى الله عليه وآله الى الملوك والقياصرة في السنة ١٥ و ٦ من الهجرة.

وهذا مظهر آخر من مظاهر التوحيد العملي في القرآن أيضاً، حيث يأمر بأن لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً.

اذن فمعنى «اياك نعبد» هو: اننا نتخذك وحدك «ربّاً» ومطاعاً وليس لدينامعبوداً سواك ولا نطيع من خالفك وتمرد عليك.

رابعاً: ﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ ان عبّدت بني اسرائيل﴾[2].

عندما واجه موسى بن عمران فرعون ودعاه، قال فرعون بلهجة حادة:

فاجابه موسى: ﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ ان عبدت بني اسرائيل﴾.

تلاحظون، ان النبي موسى عليه السلام سمّى الفرعونية وهي استبداد

---

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

(٢) سورة الشعراء: ٢٢.

فرعون «تعبيداً» فبنوا اسرائيل لم يسجدوا لفرعون قط ، بل انّه اذلّهم واجبرهم على طاعته وسخّرهم لخدمته وسلب منهم الحرية والاختيار ، فكـانوا عـملياً مطيعين ومنقادين لفرعون .

اذن «اياك نعبد» تعني : الهنا اننا نرفض كلّ تعبيد واذلال وطاعة اجبارية واستغلال وسلب للحرية والاختيار .

هذه امثلة وردت في القرآن بوسعها توضيح معنى التوحيد العـملي . ان التوحيد العملي هو الذي يصطلح عليه علماء الاسلام «التوحيد فـي العـبادة» والمراد منه التوحيد في العينية الخارجية ، أي ان تكون حقيقة الإنسان موحدة .

والخلاصة، لا يكفي في الاسلام ان يكون المسلم موحداً على مستوى الفكر فقط ويعتقد بوحدانية الله في الذات والصفات والافعال ويدرك ويعلم انّه لو عُرض عليه البحث حول معرفةالله فهو يستطيع التحدث إلى ما شاء الله ، مثل هذه يمتلك نصف التوحيد ، والنصف الآخر ، عليه ان يكون ذو نـزعة مـوحدة عملياً ، بل موحداً ، وعندما يعرف الله بكل أوصافه ويكون موحداً على صعيد الطاعة والتسليم يمكن القول انّه موحداً .

وقد أشرنا سابقاً إلى اننا ندرك عظمة سورة الفاتحة هنا ، ومن المدهش حقاً أن يتمكن مَنْ لم يتلقَ درساً في عمره قط ولم يلتقِ بفيلسوف أو عالم ، ان ينظم مفردات أول سورة من كتابه بنحو اختصر كلّ ما في عقيدته فـي قـطعة صغيرة ، ويبين التوحيد النظري في أسمى مراتبه في عدة جمل قصيرة ويـبين التوحيد العملي باسمى مراتبه في جملة واحدة قصيرة هي «اياك نعبد» .

▣ حصر العبادة :

حسب قواعد اللغة العربية ، «اياك» في جملة «اياك نعبد» هـي مـفعول

«نعبد» وينبغي ان تأتي وفقاً للسياق الاولي بعد الفعل، ولو كان الأمر كذلك لكان معناها: نعبدك انت الاّ ان علماء النحو يقولون ان تقديم ماحقه التأخير يفيد الحصر، وهذا لا يختص باللغة العربية فقط بل يشمل اللغة الفارسية ايضاً، وعلى هذا يصبح مفاد الجملة: نعبدك أنت فقط ونطيعك، ولا نطيع شيئاً سواك ولا نأتمر بأمرٍ غير صادر منك، فجملة «اياك نعبد» جملة واحدة تعوض عن جملتين، جملة اثباتية: أي اننا خاضعون امام الله، وجملة نافية: أي اننا لا نخضع ابداً امام غير الله.

وعلى ضوء هذا البيان، فان هذه الجملة تتضمن الايمان والكفر الموجودين في شعار التوحيد، فالمسلم حين يقول «لا اله الاّ الله» يعبّر عن الايمان والكفر في آن واحدٍ، ايمانٌ بالله وكفرٌ بمن سواه.

ونقرأ في آية الكرسي **﴿لا اكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾**[1].

ففي الاسلام يفتقد الايمان لجانبه العملي مالم يقترن بالكفر، فيتحتم ان يقترن التسليم لله برفض مظاهر الطغيان كي يكتمل الايمان.

◘ ضمير الجمع:

النكتة المثيرة للاهتمام والكامنة في هذه المرحلة ـ مرحلة التوحيد العملي ومرحلة صيرورة الإنسان ـ هي مجيء كلمة نعبد بضمير الجمع لا المفرد. فلم يقل «اياك اعبد» وهذا مفاده ان الإنسان يُصنع في ظل معرفة الله وليس في ظل جهله والغفلة عنه، وفي ظل العمل والنشاط وليس من خلال الرؤى والتفكير المرض، ويمحص الإنسان من خلال النشاط الاجتماعي والتلاحم

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

والذوبان في المجتمع الموحد وليس بالانعزال والابتعاد عن أهل الايمان، فالإنسان مخلوق مفكر ومتعبد وفعال واجتماعي، والإنسان الفاقد للتفكير والمعرفة يفتقد للحقيقة، ومن انقطع عن الله واستحوذت عليه الغفلة عن الله فهو ليس انساناً، والمفكر المنقطع عن الله يفتقد للحقيقة ايضاً، فهو إنسان ناقص، وكذا الحال بالنسبة لمن وحد الله وانقطع عملياً عن المجتمع الموحد، اذن معنى اياك نعبد هو:

الهنا! اننا نتوجه اليك جميعاً بحركةٍ متسقةٍ وكلنا آذان صاغية لما تأمرنا.

◙ إياك نستعين:

وهذه العبارة تفيد التوحيد في مجال الاستعانة وهو يعني الاستغاثة والاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه فقط وهنا رب سؤال يطرح وبالامكان طرحه على نحوين أحدهما يرتبط باصل الاستعانة والاستغاثة.

ففي نظر علماء التربية والاخلاق يتعين على الإنسان ان يعتمد على نفسه، فالاعتماد على الآخرين والاستعانة بهم يخلق من الإنسان مخلوقاً ضعيفاً واتكالياً على العكس من الاعتماد على النفس فهو ينمي طاقات الإنسان ويحفزها.

وعليه لابد من الاعتماد على النفس لا الغير سواء كان ذلك الله تعالى أم غيره، ولهذا فان العلماء المعاصرين يرفضون التوكلّ على الله اذا كان فيه سلباً للاعتماد على الذات ويعدّونه أمراً منافياً للاخلاق.

وربما يطرح هذا السؤال بصيغة أُخرى وهي: لماذا النهي عن الاستعانة بغير الله؟ فاذا كان النهي عن عبادة غيره تعالى يعدّ امراً منطقياً فما المبرر من النهي عن الاستعانة بغيره؟

لقد جعل الله من هذا العالم عالم اسباب، ونحن البشر يحتاج بعضنا

البعض الآخر وإلى سائر المخلوقات ولابد لنا من اللجوء إلى الغير وإلى المخلوقات الأُخرى بغية تأمين ما نحتاجه في حياتنا.

نقول في الاجابة على هذا التساؤل: ان في الأمر جنبة أُخرى، وليس الاستعانة والتوسل بالغير بأي نحو كان هو عمل مرفوض، بل ان الله تعالى خلق الإنسان محتاجاً إلى الغير، أي ان بني البشر بطبيعتهم محتاجون بعضهم للبعض الآخر، وما نشاهده في النصوص الاسلامية من تأكيد وحثٍّ على التعاون يفصح عن ذلك، فقد ورد في القرآن الكريم، قوله تعالى:

﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى﴾[1].

و«تعاون» من مادة «عون» فلو كانت الاستعانة بالغير غير جائزة على كافة المستويات لما أكد عليها الباريء تعالى، بل ان التوصيات تترى بأن نتعاون فيما بيننا لاننا محتاجون بعضنا للبعض الآخر.

دعا رجل عند أمير المؤمنين عليه السلام ان لا يجعله الله محتاجاً للناس، فنهاه أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك وأمره ان يدعو الله بان لا يكله إلى خلقه، والمراد ان العبارة الأولى مستحيلة لان طبيعة الخلقة قائمة على حاجة الناس بعضهم للبعض الآخر، اذن فعبارة «اياك نستعين» لاتعني النهي عن استعانة الإنسان بالآخرين، فماذا تعني اذن؟

المستفاد من الآية الكريمة هو: يجب ان يكون الله هو المعتمد الأول والاخير الذي يطمئن اليه قلب الإنسان وتركن اليه نفسه، والذين يلجأ اليهم في حياته ما هم الّا وسائط، وعلى المرء ان يرى نفسه وقواه العضلية والعقلية وجميع قدراته ما هي الّا وسائل خلقها الله تعالى وجعلها تحت تصرفه، لذا فان هناك الكثير من القوى التي يعتمد عليها الإنسان في حياته الّا انّه يجدها في

---

(١) سورة المائدة: ٢.

آخر المطاف تعمل على العكس مما كان يؤمله، فقد يعتمد على قواه واذا بها تبدي تمرداً عليه، فالحق تعالى هو القوة الوحيدة التي يتخلص بها من القلق اذا ما اعتمد عليه ونظم مسيرة حياته وفقاً لاوامره.

روي ان الرسول صلّى الله عليه وآله وفي إحدى معاركه تنحى جانباً ليأخذ قسطاً من الراحة فجلس على إحدى التلال ليتسريح فاخذته اغفاءه، وفي هذه الاثناء وقعت عينا أحد المشركين عليه فطار هذا فرحاً لانه ظفر بالرسول صلّى الله عليه وآله فتوجه نحو رسول الله صلّى الله عليه وآله ووقف عند رأسه ونادى: محمدٌ هذا، فاجابه الرسول صلّى الله عليه وآله: نعم، قال الرجل: مَن الذي ينقذك مني؟ فاجابه رسول الله صلّى الله عليه وآله: الله، عندما فوجىء الرجل بهذا الجواب، فهمَّ ان يضرب رسول الله فاصطدمت رجله بحجر فسقط إلى الارض حينها نهض رسول الله صلّى الله عليه وآله ووقف على رأسه قائلاً: وانت من الذي ينجيك مني؟ فاجاب: عفوك يا محمد، فعفا عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله.

الغرض من ذلك هو ان هذه العبارة لا تعني وجوب تجنب الإنسان مدَّ يد الاستعانة بالغير، بل عليه ان يعرف مسبب الاسباب أثناء استعانته، ويعلم انّه تعالى هو الذي سخَّر الوسائل والاسباب له وجعلها تحت تصرفه.

▣ إهدنا الصراط المستقيم:

من أجل توضيح الصراط المستقيم توضيحاً تاماً لابد من بيان بعض المطالب:

١ ـ ان جميع المخلوقات تسير سيراً تكوينياً لا اختيارياً ـ وهذه سنة الكون ـ نحو الله تعالى وتعيش حالة حركةٍ وصيرورةٍ دائبة، وذلك ما يؤيده قوله

تـعالى: ﴿الا إلى الله تـصير الامـور﴾[1] وكـذلك: ﴿وان إلى ربك المـنتهى﴾[2]، والإنسان باعتباره أحد المخلوقات يخضع لهذه السنة، لقوله تعالى: ﴿يـاايـها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[3].

٢ ـ هنالك طريق واحد فقط من بين الطرق كلها هو الطـريق المسـتقيم واللاحب يمثل طريق السعادة وهـو الطـريق الذي يـتعين عـلى الإنسـان ان يختاره.

٣ ـ بماان ما يقع عليه اختيار الإنسان من طريق يعني انّه يختار اسلوب حركته وطيّه للطريق نحو مقصد ما، وبعبارة أُخرى انّه يريد السير نحو كـماله فالإنسان اذن هو مخلوق باحث عن التكامل، ومعنى اهدنا الصراط المستقيم هو: اهدنا إلى صراط التكامل.

٤ ـ ان طريق التكامل هو طريق مكتشف لا مبتدع، وهذا خلاف ما يدعيه الماديون الديالكتكيون بعدم وجود أي طريق وغاية، والإنسان هو الذي يوجد غايته وقيمه وطريقه، وهذا يعني انّه مبتدعٌ لتكامله وقيمه، وفي نـظر القـرآن الكريم فان الغاية وكمالها والقيم ومعانيها انّما جرى تعيينها في أصـل الخـلقة وايجاد الكون، وماعلى الإنسان الّا اكتشافها والبحث عن غايته وطيّ الطريق نحوها.

٥ ـ الصراط المستقيم محدد الأهداف منذ بدايته على العكس من الطرق غير المستقيمة من قبيل المنحنية أو المتعرجة التي توصل الإنسان عبر خطوط ملتوية مختلفة المآب، اذن، الطريق الذي يسلكه الإنسان نحو الكمال لا يمر عبر التناقضات ولا هو نتيجة لتضارب الأشياء فيما بينها، وهذا ما يعكس ادعاء

---

(١) سورة الشورى: ٥٣.

(٢) سورة النجم: ٤٢.

(٣) سورة الانشقاق: ٦.

الديالكتيكيين.

٦ ـ القول بأن طريق التكامل طريق مكتشف وليس مبتدع أو مختلق لا يعني ان وجود سالكه منفصل عنه وقد جرى ايجاده سابقاً ثم يتوجب عليه السير فيه كما هو الحال في الطرق المادية، بل ان وجود السالك جزء من وجود الطريق وهذا ما هو مقرر في أصل الوجود حيث يكون مآله القرب من الحق تعالى، أي ان الإنسان لديه الاستعداد الفطري في أصل خلقته ـ للوصول إلى الكمال الحقيقي، كما هو الحال بالنسبة لنواة التمر التي تمتلك القابلية لان تتحول إلى نخلة.

٧ـ في نفس الوقت الذي يتمتع به الإنسان بالاستعداد الفطري فهو بحاجة إلى المرشد والهادي لانه يختلف اختلافاً كلياً عن سائر المخلوقات التي تمتلك القابلية لبلوغ الكمال، وهو ان طريق هذه المخلوقات جرى تحديده في هذه الدنيا وليس بوسع أيٍّ منها العثور على اكثر من طريق، والإنسان على العكس تماماً، كما يصطلح عليه في الفلسفة المعاصرة:

«كلّ مخلوق واجد الطبيعة الاّ الإنسان فهو فاقد الطبيعة» ويصر الديالكتيكيون على القول بأن الإنسان فاقد الماهية والطبيعة، وقد تناولنا ذلك في موضعه واثبتنا بطلان ادعائهم.

فالإنسان يتمتع بطبائع متناقضة ومتباينة وعليه ان يختار طريقة من بين هذه الطبائع المتعالية والمتسافلة، اما سائر المخلوقات فلا تملك حق الاختيار اذ ان كلاً منها خُلقَ بغرائز معينة وهذه الغرائز هي التي ترسم لها الطريق، من هنا نجد ان كلاً منها يسير على وتيرة واحدة، في التصرف والطبع على أمر التاريخ، فالنحل والنمل متشابهة جميعها في طريقة اعداد الطعام وبناء الخلايا ولا يُرى أي تغيير أو تبديل في طريقة عملها، الاّ ان امام الإنسان

المئات من الطرق وبامكانه اختيار ما يشاء منها، يقول تعالى في سورة الليل: ﴿ان سعيكم لشتى﴾ وهذا بطبيعة الحال ناظرٌ إلى كمال الإنسان لاضعفه.

لنرى الآن هل ان ذلك يحتم علينا القول بان الإنسان فاقد لطريقه كلياً؟ فاذا تصور الماديون لا سيما الديالكتيكيون ذلك فالقرآن يرفضه، فما أكد عليه القرآن من ان هنالك خطاً محدداً بين الله والعبد فيه تكامل الإنسان، انّما يعني أن هنالك الآلاف من الخطوط التي يقف الإنسان على مفترقها، واحد منها فقط هو الذي يمثل الصراط المستقيم الذي ينتهي إلى الله تعالى، بيد ان الإنسان يمتلك الحرية الكافية لاختيار ما شاء منها، فان اختار ذلك الطريق فقد اصاب في اختياره والّا فان جميع الطرق الأُخرى منحرفة وباطلة.

وهذا مفاد الرواية التي مفادها: ان الرسول صلّى الله عليه وآله كان ذات يوم جالساً ويحيط به بعض أصحابه، فأخذ الرسول صلّى الله عليه وآله يخط بيده على الارض خطوطاً ومن بين هاتين الخطوط كان هنالك خط مستقيم والباقيات ملتويات ومتعرجات فقال صلّى الله عليه وآله: هذه سبيلي والباقي ليست لي.

وهذاهو السر في تعبير القرآن الكريم بشأن الظلمة والنور فهو يأتي عن الأولى بصيغة الجمع وعن الثانية بصيغة المفرد دائماً لان سبل الضلالة متفرقة في حين ان سبيل الحق واحدٌ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[1].

وهنا تتجلى الحاجة إلى هداية الأنبياء لتعذر ان يشخص الإنسان الطريق المستقيم الذي يوصله إلى الكمال، بل لابد ان يتولى الرسل أمر هدايته.

وفي تفسير الميزان ثمة توضيح في هذا المجال مفاده: ان كلمة سبيل استخدمت في القرآن بمعنى الطريق الّا انها تختلف عن الصراط، من هنا فقد

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

استخدمت بصيغة الجمع، الا ان الصراط استخدمت دوماً بصيغة المفرد، فالسبل تعني الطرق الفرعية التي تؤدي إلى الطريق الرئيسي، والصراط تعني هذا الطريق الرئيسي.

من الممكن ان يكون هنالك طريق واحد لا غير يوصل إلى نقطة ما، الّا ان الفروع المتشعبة على اطرافه تكون متعددة وبالتالي فانها تؤدي اليه.

ونحن البشر جميعاً مثلنا كالقافلة نسير في طريق الكمال ولابد ان نمر بالطريق الرئيسي، غير ان كلاً منا ربما يصل إلى هذا الطريق عبر الطرق الفرعية، فكلّ من أدى واجبه الإنساني والاخلاقي والشرعي في أي مقام كان فهو في الحقيقة قد اختار السبيل الذي يوصله إلى الطريق الرئيسي رغم تفاوت الطرق فيما بينها للوهلة الأولى، فعلى سبيل المثال هناك الطبيب والعامل والتاجر و... الخ، كلّ هذه السبل بامكان الإنسان الوصول عبرها إلى الصراط المستقيم.

صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين:

ينقسم الناس من حيث ما يحصلون عليه في مقام العبودية واختيار الطريق إلى ثلاثة فئات:

الفئة الأولى: وهم الذين يسلكون طريق العبودية، وممن تشملهم الرحمة الخاصة التي مر ذكرها آنفاً خلال الحديث عن مفردة «الرحيم» ويعيشون في بحبوحة النعم الالهية باستمرار، وكأن شعوراً ينتابهم بأن ثمة يدٍ من الغيب تجذبهم نحوها، وهذه الفئة هم المقربون عند الله وهم الأنبياء والأولياء ثم الامثل فالامثل، والحري بالمرء ان يتخذهم قدوة له ويحذو حذوهم، وبعبارة أُخرى فان الإنسان يدعو الله ان يوفقه للسير في خطهم.

الفئة الثانية: وهم على العكس من الأولى، فهم الناكصون عن عبادة الله

تعالى والمتمردون عليه، وهؤلاء تتجلى آثار أعمالهم على كيانهم وكأنّ يداً تمتد اليهم لتبعدهم عن جادة الصواب، وبدلاً من السمو نحو الباري تعالى والتمتع بالنعم الالهية فانهم يتعرضون لغضب الله وسخطه ويبتعدون عن طريق الكمال ويتهاوَوْن في منزلق الشقاء، يقول تعالى:

﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾[1].

انهم سلكوا سبل الحيوانية بدلاً من صراط الإنسانية، فمُسخوا، وبدلاً من التقدم نحو الإمام فهم يتراجعون القهقري، وهؤلاء هم الذين يعبر عنهم القرآن الكريم «المغضوب عليهم».

وهنالك فئة ثالثة وهم الذين عبّر عنهم القرآن **﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾**[2]. اذ تلفهم الحيرة والضلالة اينما ولّوا وجوهم لم يهتدوا إلى سبيل، وهم الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بـ«الضالين».

فنحن اذ نردّد اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فذلك يعني: الهنا! أبِنْ لابصارنا صراطك المستقيم، صراط الأولياء والأبرار والصالحين الذين يتنعمون بنعمك الوافرة، لا طريق الذين مُسخوا ونأوا بأنفسهم عن صراط الإنسانية فكان مصيرهم ان تعرضوا إلى غضبك، ولا طريق الذين استحوذت عليهم الحيرة والضلالة، الذين يتلونون كلّ لحظة بلون وينعقون مع كلّ ناعق[3].

---

(١) سورة طه: ٨١.

(٢) سورة النساء: ١٤٣.

(٣) التعرّف على القرآن.

صلاة الجمعة

ثمّة صلاة اسبوعية في الاسلام يطلق عليها صلاة الجمعة[1]. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم على وجه التحديد بقوله تعالى:

﴿يا أيّها الذين آمنوا اذا نوديَ الى الصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون﴾[2].

وقد أجمع المفسرون على ان المقصود بذلك هو صلاة الجمعة، فما هي يا ترى؟ وقت صلاة الجمعة، الظهر من يوم الجمعة وهي تختلف عن سائر الصلوات: هي: أولاً: ركعتان فقط، ثانياً: يجب أن تؤدّىٰ جماعة بينما لا يجب ذلك في غيرها. ثالثاً: انها اذا اقيمت تجب على كل مَنْ حضر على مدى فرسخين بجميع الاتجاهات الا عن عذر. رابعاً: ما دامت صلاة الجمعة قائمة فلا يجوز اقامة صلاة جمعة اخرى على امتداد فرسخ واحدٍ بجميع الاتجاهات.

تأملوا! لو اقيمت مثل هذه الصلاة فكيف ستكون؟ فلو اقيمت صلاة الجمعة في طهران على امتداد فرسخين أي من شميران شمالاً وإلى الري جنوباً وعلى امتداد اثني عشر كيلومتراً شرقاً وغرباً، أي ما يعادل فرسخين واشتركت فيها الجموع الحاشدة، فاي تجمع كبير سيقام آنذاك؟

---

(١) من محاضرة القيت قبل انتصار الثورة الاسلامية.

(٢) سورة الجمعة: ٩ ـ ١٠.

وهذه الصلاة تتألف من ركعتين وليس اربع ، لماذا ؟ لقد تواترت الروايات والاخبار واصبح من المسلّمات لدنيا ان : «وانّما جُعلت الجمعة ركعتين لمكان الخطبتين» ، أي يجب التجمع خلال هذه الصلاة العامة في مكان واحدٍ ولا يتفرق المصلّون كما يحصل في صلوات الجماعة ويجب القاء خطبتين قبل الصلاة بدل الركعتين .

ولدينا في الاسلام نصوص تشير إلى ان الخطبة هي جزء من الصلاة منها قول امير المؤمنين عليه السلام : الخطبة هي صلاة ، وعلى المصلين السكوت خلال خطبة الإمام والاستماع إلى ما يقول وعلى الجميع ان يكونوا وكأنهم في حال صلاة ما دام الإمام لم ينزل من منبر الخطابة مع بعض الاختلاف من قبيل عدم وجوب استقبال الإمام للقبلة أثناء الجلوس أو أثناء القائه للخطبة ، والخطبتان اللتان هما فرض في هذه الصلاة يقومان مقام ركعتين من صلاة الظهر .

▣ آداب صلاة الجمعة :

هناك عدة آداب بالنسبة لامام الجمعة منها : ان يضع عمامة على رأسه وهي عبارة عن قطعة قماش تُلف حول الرأس مرتين أو ثلاث مرات كعمامة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

حفظ الله الحاج السيد رحيم ارباب الاصفهاني ،لعل الكثير منكم على معرفة به ـ وهو من علماء الطراز الاول في الفقه والاصول والفلسفة والادب العربي وجانب من الرياضيات القديمة ، وهو من تلاميذ الحكيم المعروف جهانغيرخان قشقائي ، ولا يزال لحد الآن يضع قبعة جلدية على رأسه ، وزيّه يشبه من كلّ الجوانب زي سائر العلماء ، فهو مثلهم يرتدي العباءة والقبا ، الا انّه يستخدم قبعة جلدية ، وهو من الملتزمين بصلاة الجمعة ، ويقيم صلاة الجمعة بنفسه في

أصفهان، لكنها لم تكن بالمستوى الذي يريده الاسلام لعدم التزام عامة الناس بها، وكان عندما يقيم صلاة الجمعة يعصب رأسه بعمامة صغيرة ذات طيتين أو ثلاث.

واذكر انني زرته في شهر فروردين عام ١٣٣٩هـ ش في اصفهان وتطرقنا إلى موضوع صلاة الجمعة، فقال: لا أدري متى ستمحو الشيعة عن جبينها عار ترك صلاة الجمعة وتضع حداً لشماتة سائر الفرق الاسلامية التي تلومنا على ترك صلاة الجمعة، وكان يقول: ليت صلاة الجمعة تقام في المسجد الاعظم بقم الذي كلّف الملايين من الاموال.

ومن آدابها أيضاً، القيام عند الخطابة، يقول تعالى: **﴿واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾**[1].

وفيها اشارة إلى قصة وقعت في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله فقد كان (ص) واقفاً يخطب الجمعة وفي هذه الأثناء سمع المصلون صوت طبول وهي علامة وصول البضائع التجارية، وخوفاً من نفاد البضاعة انصرف الناس وتركوا رسول الله صلّى الله عليه وآله، الغرض، انها اشارة إلى هذا الأمر حيث يقول: «وتركوك قائماً» أي انهم تركوك وحيداً وانت واقف تخطب، وقيل ان الجلوس أثناء الخطبة هي بدعة ابتدعها معاوية.

أما هل يجب أن يكون الإمام والخطيب شخصاً واحداً أم بالامكان ان يكون واحدٌ خطيب والآخر امام؟ فهذه بذاتها مسألة، فالأكثرية أو الجميع يقولون بوجوب ان يكون الإمام والخطيب شخصاً واحداً ويعتقد البعض ان الشرط الاساسي لامام الجمعة هو ان يكون قادراً على القاء الخطبة، وقد ورد في

---

(١) سورة الجمعة: ١١.

روايات مستفيضة ان الملاك هو «امام يخطب».

ومنها أيضاً أن يتوكأ الإمام على سيف أو رمح أو عصا حين قيامه للخطبة ويبادر في القاء خطبته على هذه الحال.

▣ المقصود من اجتماع الجمعة:

ستعجبون من التعاليم الاسلامية التي لم تسمعوا بها أو نادراً ما طرقت اسماعكم. وستسألون عن المقصود من كلّ هذا الاجتماع والآداب والمراسيم، وسيزداد عجبكم لو سمعتم ان الهدف الاهم من هذا التجمع هو الاصغاء لتلك الخطب. اذن كم يجب ان تكون لتلك الخطب من أهمية وبُعد حيوي؟ ان لها من الأهمية بحيث يجب على الجميع ان يتركوا اعمالهم واينما كانوا بمجرد ان يرتفع صوت المؤذن منادياً «الله اكبر» ويسرعوا نحو صلاة الجمعة ويستمعوا إلى الخطبتين ثم يصلّوا ركعتين جماعة وبعدها تكون لهم الحريّة في الانصراف قال تعالى في سورة الجمعة:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾.

في سائر الأيام يحل وقت الاذان بحلول الزوال وبعد ذلك يؤتى بصلاة الظهر، أما يوم الجمعة فان هناك استثناءً اذ يمكن الاذان قبل الزوال، كما يمكن الاتيان بالاذان عندما تكون الخطبتان قد انتهت اول الزوال.

وعندما يرتفع صوت المؤذن لصلاة الجمعة تحرم المعاملات لقوله تعالى: «وذروا البيع» وهذا نص قرآني ومن المسلّمات في الاسلام، ولا خلاف بين الشيعة والسنة في هذا المجال، أي لو اقيمت صلاة الجمعة بشكلها الصحيح وأذّنَ لها وفي هذه الاثناء جاء مشترٍ إلى أحد الدكاكين يشتري مقداراً من الجبن فأخذ صاحب الدكان السكين ووضعها على قطعة الجبن ليقطعها، وهنا ارتفع

صوت المؤذن منادياً «الله أكبر» فيجب على البائع والمشتري التوقف والاسراع إلى الصلاة، لقوله تعالى: ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع**﴾ والبيع في تلك الأثناء حرام، ويجب ان يهرعا إلى الصلاة ويستمعا الخطبتين.

وفي صلاة الجمعة خطبتان، اذ يُنشئ الإمام الخطبة الاولى ثم يجلس ويسكت قليلاً بعدها ينهض للخطبة الثانية.

مضمون الخطبتين:

اذا كان لخطبة الجمعة هذا القدر من الاهمية، والهدف الأهم لهذا التجمع هو الاستماع لتلكما الخطبتين، فما هو الكلام الذي يجب ان يطرح فيهما؟

أولاً: الحمد والثناء على الله تعالى.

ثانياً: الصلاة على خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وائمّة المسلمين.

ثالثاً: الموعظة وبعض القضايا الضرورية التي ساتطرق إلى شرحها فيما بعد.

رابعاً: قراءة سورة من القرآن الكريم.

ولكي ندرك مدى أهمية الحضور في هذا الاجتماع، فقد ورد في رواية انّه يجب على السجانين أن يأتوا بالسجناء إلى الصلاة ويخضعوهم لمراقبة شديدة لئلا يلوذوا بالفرار.

ومن المهم في خطبة الجمعة ان يبادر الخطيب إلى الموعظة اضافة إلى حمد الله والثناء عليه وذكر الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وأئمّة المسلمين وقراءة سورة من القرآن الكريم، وعند الضرورة يطرح القضايا المهمة التي تمس المسلمين، وفيما يتعلق بنوع القضايا الضرورية تلك لا بأس ان نستفيد من الرواية التالية:

في وسائل الشيعة: ١/٤٥٧ وخلال نقله الاحاديث المتعلقة بصلاة

الجمعة يروي حديثاً عن «علل الشرائع» و«عيون اخبار الرضا» رواه الفضل بن شاذان النيشابوري وهو أكابر رواتنا وثقاتهم عن الإمام الرضا عليه السلام حيث يقول:

«انّما جعلت الخطبة يوم الجمعة لان الجمعة مشهد عام، فأراد أن يكون للأمير سبب إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية وتوفيقهم على ما اراد من مصلحة دينهم ودنياهم ويخبرهم بما يرد عليهم من الآفاق من الاحوال التي فيها المضرة والمنفعة».

فهنالك حوادث تقع في العالم الاسلامي، تارة تحمل معها بشارة كحصول تقدم للاسلام أو قضية تدعو للفخر ويحسن ان يطلع عليها المسلمون، ويتعرفوا على أحوال بعضهم البعض، فيعرفوا على سبيل المثال ماذا حصل خلال هذا الاسبوع لاخوانهم في الجزائر أو أي مكان آخر من العالم.

ونورد مثلاً آخر عن جهلنا ونقول: من بين مميزات المجتمع الحي هو اذا اصيب أي عضو فيه بملمةٍ فان سائر الاعضاء تتحسس له وتشاطره الالم، وقد سمعنا بالحديث الوارد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**». فالمجتمع الحي لا يجهل ما يجري على أعضائه ولا يعيش اللاابالية تجاههم، وانّما يطلع على ذلك على أقل تقدير.

لقد فرض الاسلام صلاة الجمعة لعدة امور منها الاطلاع على ما يجري في العالم لا سيما العالم الاسلامي، الّاانّنا لو دقّقنا في تاريخنا منذ ستة أو سبعة قرون لوجدنا ان هنالك جهلاً موقعاً يسيطر علينا اذ يُقطع من هذا الكيان اهم وافضل اعضاءه ظلماً وعدواناً ولا تعرف سائر الاعضاء بذلك، وقصة البلد الاسلامي الاندلس الذي كان واحداً من ثلاثة مراكز للحضارة الاسلامية

العظيمة وتدين له اوربا في نهضتها وحضارتها، هي مثال حي امامنا ،فقد اقُتطع هذا الجزء بشكل مأساوي فيما لم يعرف الشرق الاسلامي وعلى مدى مئات السنين بهذه الحادثة، واليوم تقع حوادث مؤلمة جداً أيضاً كقضية الفلبين وغيرها وليس هنالك قليلاً من الاطلاع عنها ناهيك عن التعبير عن المواساة تجاه المسلمين فيها.

أما لماذا يجب ايراد خطبتين وعدم كفاية خطبة واحدة، وهل هنالك فرق بين الخطبتين ؟ هذا ما تضمنه الحديث التالي:

«وانّما جعلت خطبتين ليكون واحدة للثناء على الله والتحميد والتقديس لله عزّ وجل، والأُخرى للحوائج والاعذار والانذار والدعاء لما يريد ان يعلمهم من أمره ونهيه وما فيه الصلاح والفساد».

الّا ان هذا الأمر ـ وكما قال صاحب وسائل الشيعة ـ ليس ضرورياً على الدوام.

لقد تطرقت إلى هذا البحث هذه الليلة بمناسبة تناولنا لموضوع الخطابة والمنبر واشرنا إلى اننا في الاسلام لدينا نص، واستناداً إلى ذلك النص اصبحت الخطبة من الواجبات، ولكن لم لا يعمل الشيعة بها ؟ فهذه مسألة أُخرى، وانا شخصياً ممن لم يقتنعوا في أن هذه الصلاة المفعمة بالبركة والاهمية صعبة وثقيلة بحيث تهمل وتترك.



صلاة العيد وعظمتها

بعد ان هزم الخليفة العباسي المأمون ـ وهو ممن يتصف بالذكاء والتدبير ـ اخاه الامين وقتله وبسط نفوذه على المناطق الخاضعة للخلافة، ولم يزل حينها في مرو ـ وهي من توابع خراسان ـ كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام في المدينة يدعوه للحضور إلى مرو الّا ان الإمام عليه السلام اعتذر عن ذلك بمختلف الاعذار، غير ان المأمون اصرّ واخذ يكرر كتبه للامام عليه السلام، فلما رأى هذا الاصرار من المأمون توجه إلى مرو، وهناك اقترح عليه المأمون ان يتولى أمر الخلافة فابى الإمام عليه السلام ذلك لمعرفته بما يضمره المأمون ويعلم ان هذا الموضوع له طابع سياسي بحث، واستمر هذا الوضع مدة شهرين، طرف يصر وآخر يمتنع، ولما رأى المأمون رفض الإمام عليه السلام لهذا المقترح اقترح عليه ولاية العهد، فقبل الإمام عليه السلام بذلك شريطة ان يكون تشريفياً بحت وان لا يعهد للامام أي عمل ولا يتدخل في أمور الدولة فوافق المأمون، وأخذ البيعة من الناس وأمر بضرب السكة النقدية باسم الإمام عليه السلام وخُطب على المنابر باسم الإمام الرضا عليه السلام.

ولما حلّ يوم عيد الأضحى ارسل المأمون إلى الإمام عليه السلام طالباً منه أن يصلّي بالناس صلاة العيد كي يطمئنوا لهذا الأمر أكثر، فاشار الإمام في جوابه إلى ان الاتفاق كان يتضمن عدم تدخله في الأعمال الرسمية طالباً قبول

اعتذاره عن مثل هذا العمل، فكان جواب المأمون هو ان المصلحة تقتضي ان يذهب الإمام لتثبيت موضوع ولاية العهد بصورة كاملة، ولما اصر المأمون، وافق الإمام شريطة ان يؤدي الصلاة كما كان يؤديها رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام وهو شرط قبله المأمون.

وفي صبيحة يوم العيد تجمهر قادة الجيش وطبقات الاعيان وسائر الناس خلف دار الإمام وهم يرتدون ملابس فاخرة ويمتطون الخيول طبقاً لما تعارفوا عليه واعتادوه في زمن الخلفاء، وهم ينتظرون موكب ولي العهد للتحرك مع قافلته نحو المصلّى، ووقف على سطوح المنازل عدد كبير من النساء والرجال لمشاهدة عظمة وهيبة موكب الإمام عن قرب بانتظار ان تفتح باب دار الإمام.

أما الإمام الرضا عليه السلام فكما اشترط على المأمون في ان يصلي العيد كما صلاّها المصطفى صلّى الله عليه وآله والمرتضى عليه السلام، لم يقم بما قام به الخلفاء فيما بعد، بل اغتسل أول الصبح واعتم بعمامة بيضاء ارضى لها ذؤابتين واحدة على صدره والأُخرى بين كتفيه، وخرج حافي القدمين رافعاً ثوبه إلى ركبتيه، وأمر من معه ان يفعل مثله وأمسك بعصا رأسها من حديد، وخرج من الدار، وطبقاً لما جرت عليه السنّة فقد رفع صوته بالتكبير: الله اكبر، الله اكبر.

وراحت الجموع تردد معه هذا الذكر بشوق ولهفة وكأن الارض والسماء والجدران والابواب تردد معهم، وتوقف قليلاً عند باب الدار ورفع صوته مكبراً: الله اكبر، الله اكبر، الله اكبر على ماهدانا الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الانعام، الحمد لله على ما أولانا.

والناس كله يكررون بصوت مرتفع ومنسجم هذه الاذكار، وكان الجميع يجهشون بالبكاء ومشاعرهم ملتهبة، فيما كان قادة الجيش والضباط

يرتدون الزي الرسمي ويمتطون خيولهم متصورين ان ولي العهد سيخرج وفق المراسيم الملكية ويرتدي الالبسة الفاخرة ويمتطي جواده، ولما رأوا الإمام في ذلك الوضع البسيط وهو مترجلاً يذكر الله، انتابتهم مشاعر جياشة وارتفعت اصواتهم بالتكبير وهم يبكون، فترجلوا بسرعة من على ظهور خيولهم وخلعوا احذيتهم بل ان من يعثر على سكّين يقطع بها حزمة حذائه يعتبر نفسه أوفر حظاً من الآخرين.

ولم يمض وقت طويل حتى ضجّت مدينة مرو بالضجيج والبكاء، وكان الإمام عليه السلام يقف ويكبر اربع مرات بعد كلّ عشر خطوات يخطوها ويردد معه الناس بصوت عالٍ ببكاء وهيجان فاثارت مظاهر العظمة والجلال مشاعر الناس إلى الحد الذي نسيت معه تلك المظاهر المادية والعظمة الظاهرية التي كان الناس ينتظرونها وتوجهت حشود الناس نحو المصلّى بشغف ولهفة.

فوصل الخبر إلى المأمون وقال له المقربون منه: اذا استمر هذا الوضع قليلاً ووصل علي بن موسى إلى المصلّى فان خطر الثورة قائم لا محالة، فاهتز المأمون وارسل إلى الإمام على الفور يطلب منه العودة متذرعاً بامكانية اصابة الإمام باذي أو ازعاج وعند وصول المبعوث إلى الإمام ارتدى حذاءه وثوبه ورجع[1].

(١) قصص الأبرار: القصة ٢٣.

ملامح من عبادة الأستاذ

في خاتمة المطاف وكمسك ختام من المناسب جداً ان نشير هنا إلى ملامح من عبادة الأستاذ لانها تمثل نماذج وامثلة حيّة من عبودية عباد الله الصالحين عسى ان تكون مشعلاً ينير الدرب لعشاق العبادة والعبودية لله تعالى بحوله وقوته.

▣ التوجه إلى الله :

تتميز غرفة الأستاذ الشهيد المطهري بمواصفات خاصة تعكس توجهاته، فهناك لوحة عُلّقت في الغرفة كتب عليها لفظ الجلالة (الله) بالنيون الاخضر أو الاصباغ البراقة ليلاً حيث لاتبرز الكتابة الا في الليل فقط، وهذا يوضح ان الأستاذ كان يريد ان يستثمر جميع حواسه لاحياء ذكر الله في نفسه عندما يقوم لله في الليل وينشغل بذكره.

▣ التهجّد وصلاة الليل :

من خصال الأستاذ المطهري (ره) الاهتمام البالغ بالتهجد واحياء الليل فقد كان مواظباً على ذلك منذ ان كان طالباً في الحوزة وحتى رحيله، يقول سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة الاسلامية في ايران، كان المرحوم

المطهري عابداً سوياً زكي الاخلاق والروح، ولا انسى انّه كان حينما يأتي إلى مشهد كان يتردد على منزلنا كثيراً، وكان يذهب إلى اقرباء زوجته احياناً، وكان يحيي الليل بالتهجد والبكاء، يصلّي صلاة الليل ويجهش البكاء حتى ان صوت بكائه ومناجاته كان يوقظ النائمين، وفي إحدى الليالي كان في منزلنا، وفي منتصف الليل استيقظت عائلتنا على صوت بكائه، وبالطبع لم يعرفوا للوهلة الاولى ممن صدر الصوت بيد ان عرفوا فيما بعد انه صوت الشيخ المطهري.

نعم، انّه كان يصلي صلاة الليل وهو يبكي بصوتٍ يُسمع من الغرفة التي هو فيها.

يقول أحد أصدقائه: من الخصال التي كان المرحوم المطهري يتمتع بها التزامه وولعه الشديد بالذكر والدعاء واحياء الليل، وعلى ما أتذكر فانني مذ تعرفت عليه وجدته ملتزماً بصلاة الليل وكان يحثني عليها وكنت ابرر عدم قيامي بها بأن ماء حوض المدرسة مالحٌ ووسخٌ وهو يضر عينيّ فافرغت عاتقي منها، حتى رأيت في المنام ان رجلاً يوقظني ويقول: انا عثمان بن حنين مبعوث امير المؤمنين عليه السلام وهو يأمرك ان تنهض وتصلّي صلاة الليل وهذه رسالة من الإمام إليك، وكُتب في تلك الرسالة الصغيرة بخط أخضر واضح: «هذه براءة لك من النار». وفي عالم الرؤيا جلستُ متحيراً نظراً للفاصلة الزمنية بيننا وبين امير المؤمنين عليه السلام وانا على هذه الحالة فاذا بالمرحوم آية الله المطهري يوقظني وفي يده اناء فيه ماء قائلاً: جلبت هذا الماء من النهر فقم وصلِّ صلاة الليل ولا تعتذر.

يقول نجل الأستاذ الشهيد المطهري خلال شرحه لحادثة استشهاده: «في تلك الليلة التي سمعنا بها خبر اغتيال والدي لم ننم حتى الصباح، وفي الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل دق جرس الساعة التي كان يستيقظ على

صوتها لصلاة الليل، لكنه كان قد فارق الحياة حيث صلّى صلاة الليل مضرجاً بدمه في ظلمة الشارع قبل موعد صلاة الليل.

ويُنقل عن أحد الفضلاء والمحققين المعاصرين كلام له بحق الأستاذ: كان (ره) في علاقته مع ربه عارفاً من أهل الذكر والسلوك والعبادة وكان يكرر مراراً: أرغب في الذهاب إلى قم لأنشغل بالرياضة والعبادة والعرفان، فكانت هذه أمنيته.

▣ الخضوع والخشوع في الصلاة:

يقول أحد أقرباء الشهيد المطهري: في كلية الالهيات الواقعة في منطقة «سرچشمه» أُسس مصلى صغير في الضلع الجنوبي من الكلية، وكان استاذنا الجليل المرحوم آية الله العلّامة الشهيد المطهري يصلي فيه فرادى في بعض الأحيان، ولم يشهد ذلك المصلّى تردد الكثير من المصلّين ،الّا ان عددهم اخذ يزداد تدريجياً.

وفي أحد الايام خلى هذا المصلّى دخلت فيه ورغم حرارة الجو فقد رأيت الأستاذ يصلي وهو مرتديا العمامة والقبا والعباءة، فقد كان يقيم الصلاة بحقيقتها، ولعله لم يلتفت إلى دخولي ابداً بسبب تركيزه على الصلاة وحالة الخشوع والخضوع التي تهيمن عليه.

لقد كان الأستاذ يقيم الصلاة ممزوجة بتوجه وخضوع إلى درجة ان حالته الخاصة تلك شدّتني اليه وبدلاً من الاقتداء به في الصلاة انشغلت بمشاهدة صلاته حتى فرغ منها واستمر في قراءة الادعية والتعقيبات والتسبيحات، من المتعذر علي ان اصف الحالة التي كنت اشعر بها وانا اقف خلفه أثناء صلاته، فكانّه كان يشاهد القيامة واحوالها، وكانت الخشية التي يتصف بها العلماء والعرفاء وتشع من كيان هذا العارف تجذب الانسان نحوها.

◘ التأدب في الصلاة :

كان الأستاذ الشهيد المطهري يولي الصلاة اهمية بالغة فلم يكن يصلي بملابسه الخاصة بالنزل ابداً لا سيما صلاة الصبح ، اما نحن فننهض من فراش النوم ونصلي صلاة الصبح بنفس ملابس النوم ، لكنه كان يرتدي ملابسه كاملة للصلاة فيضع العمامة على رأسه ويهيىء نفسه للصلاة ، ولعله كان يبتغي من وراء ذلك الحصول على الاستعداد الروحي منذ تلك اللحظة التي يبدء بها ارتداء ملابسه ، أي انّه يريد الابتعاد عن الروتين في عمله ، ومن المسلّم به ان هذا الاستعداد له تأثير روحي مهم.

◘ التوصية بالصلاة :

اتذكر ان والدي صلّى المغرب مساء يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر ارديبهشت عام ١٣٥٨ هـ ش ، وكانت الساعةحوالي الثامنة مساءً ، فطلب مني ومن أخي ان نوصله إلى منزل أحد السادة حيث ينعقد هناك اجتماع سياسي اسبوعي في تلك الليلة ، ولكنه قال بعد قليل : لا ضرورة لمجيئكما اذ سيأتي أحد الأصدقاء وساصطحبه ، ثم دخل المكتبة بعد الصلاة لتنظيم ملاحظاته وبعض اعماله ، ومن ثم دخلت للغرفة لا بحث عن سجادة وتربة للصلاة ، وفي هذه الاثناء دخلت أمي إلى المكتبة وقالت :

يا مجتبى ! هنالك سجادة في الغرفة الأُخرى فلماذا تستخدم السجادات المخصصة للضيوف ؟ فقلت لها : لم أعثر فيها على سجادة وتربة ، فقال والدي : ليس مهماً ، انّما المهم أداء الصلاة في أول وقتها ، والصلاة أهم وأثمن من كلّ شيء .

كان هذا آخر ما سمعته من والدي الكريم ، وبعد قليل وصل صديق والدي فتوجها معاً إلى الاجتماع ، ذهب والدي ولم يعد ، وانّما أسرع إلى لقاء محبوبه الحقيقي وهو الله تعالى.

▣ الإهتمام بالقرآن والمناجاة :

يقول آية الله السيد علي المحقق الداماد : ثمة ناحية مهمة أود التطرّق إليها هنا وقد كان لها بروز ساطع في وجوده وهي روح التعبد والتسليم التي كان الشهيد يتمتع بها ، فقد كان (ره) يتحلى بالخشوع والخضوع في العبادة والمناجاة مع الله إلى حدٍ انّه لم يترك صلاة الليل ابداً منذ بلغ سن التكليف ، وكنا نلاحظه يلتزم قبل النوم بقراءة بعض آيات القرآن بدقة وتدبر ، ولا يمكن وصف حالته الخاصة أثناء مناجاته في جوف الليل مع الله ..

▣ آية الله السيد حسن طاهري الخرم آبادي :

ـ كان الأستاذ ملتزماً بقراءة القرآن قبل النوم ، وفي ليالي الجمعة كان يقرأ الدعاء بالاضافة إلى القرآن .

ـ كان الأستاذ (ره) من أهل الدعاء والتوسل ، ويقول أحد الاصدقاء : ذات مرة أخبر الشهيد المطهري بأن أحد الاشخاص حكم أو سيحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات فتألم الأستاذ كثيراً وقال :

«عليّ بالقرآن ومفاتيح الجنان» ثم اخذ بقراءة دعاء التوسل بتوجه.

▣ التنظيم في العبادة :

يقول الدكتور علي اللاريجاني :

كان (ره) منظماً ومنضبطاً في كافة شؤون حياته ، واوقاته منظمة وفقاً لاعمال محددة ، حيث قسّمها بين العبادة والاستراحة والمطالعة ، وكان يبادر إلى العبادة قبل طلوع الفجر بساعتين ولم يغير هذا البرنامج حتى أثناء السفر ، وقد يلجأ إلى الراحة متأخراً في بعض الايام نتيجة لكثرة الاعمال ، الا ان راحته كانت منتظمة وكان يستعد للراحة في الساعة ٩/٣٠ أو ١٠ مساءً ، وبطبيعة

الحال فان هذا التوفيق في العبادة وبهذا التنظيم الذي لا يتغير ولا يحصل الّا في ظل حب الله والانس به.

◙ خصاله العبادية :

فيما يلي بعض مزاياه العبادية كما ينقلها الاخ الهراتي :

١ ـ كان (ره) على وضوء دائم ويوصي بذلك.

٢ ـ كان مقيماً لصلاة الليل.

٣ ـ يقرأ القرآن لمدة عشرين دقيقة تقريباً قبل النوم مساءً.

٤ ـ يشرف بدقة على أداء أولاده للصلاة.

٥ ـ بكاؤه بصوت مرتفع خلال قراءة العزاء على سيد الشهداء عليه السلام والمناجاة ليلاً وكذا عند وفاة والديه.

٦ ـ سجوده الطويل بعد صلاتي المغرب والعشاء.

٧ ـ يتجنب التظاهر سواء في الامور العبادية أو الاجتماعية أو السياسية.

٨ ـ اكثاره من قراءة : «**أُفوض أمري إلى الله ان الله بصير بالعباد**». أثناء القنوت وقراءة الذكر.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الباب الأول

صفات أصحاب الرسول «ص» ١١٧

آثار العبادة ١٣٥

الصلاة ١٦٣

